

الفَجَمُ

الفَجَم

رواية

محمد أبو سيف

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م
حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

رسم الغلاف: محمد أبو سيف

تصميم الغلاف: محمد عاطف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٨/٣٣٣.١

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 522 - 3

الفَجَم

رواية

محمد أبو سيف

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

أبو سيف، محمد

الفجم: رواية/ محمد أبو سيف.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدملك: ٣ ٥٢٢ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٣٣٠١ / ٢٠١٨

إهداء

إلى الأستاذة والمعلمة الدكتورة سعاد فطيم
التي علمتني حرفا فصرت لها عبدا

محمد أبو سيف
نوفمبر 2017

1

القرية تنام في سكون الليل.. الأبواب مغلقة على ساكنيها من البسطاء الكادحين نهاراً، وفي الريف يتجلى النهار واضحاً بشمسه وحره، كما يتجلى الليل بسواده وسكونه.. وصوت أشبه بالفحيح يعم الجو، أنت لا تسمعه جلياً كصوت الأذان أو أجراس الكنيسة، أو زغاريد الفرح وصوات المآثم، لكنه يتخلل جسمك ويستقر في أذنك فيهزك رعباً.. العجائز من أهل القرية يعرفونه ويخافونه، والشباب سمعوا عنه ويرهبونه، أما الأطفال فيقومون من أسرهم إلى أحضان أمهاتهم خوفاً ورفقاً من ذلك الصوت غير المسموع.. إنه الفجم وانتابني سؤال بديهي: أحقا هو موجود؟

كان سؤالاً عن صحة وجود الفجم بداية لسلسلة من الأسئلة شغلت رأسي وأنا عائد إلى البيت، سائراً عبر الأزقة المتربة الملتوية بعشوائية، إذ إن قريننا لم يكن مخططاً لها أن تتسع كل هذا الاتساع لتلتهم الأرض الزراعية،

وتبور أراض وتقلع محاصيل لإدخالها في كوردون المدينة، فبيت المنازل بلا تخطيط، ولا مرافق أو بنية تحتية، فبدت شوارعها وحاراتها وأزقتها أشبه بشعر منكوش مهوش ليس له أول من آخر، فتتحرف فجأة، أو تضيق على غفلة، أو تعلو وتهبط بلا منطق، وتشعر أن أقدام مجموعة من العميان هي التي دكت سبلها بلا قصد، وبفعل السير يوميا بلا رؤية ولا هدف فصارت على ما هي عليه، وبفعل الزمن والتعود والتكرار والنمطية وعدم التفكير لم يلتفت أحد إلى حالة الشوارع المذرية فاعتادها الناس وألفوها.. أم هي التي ألفتهم؟ ولطالما حذر جدي الكبير من مغبة تلك الجهالة، فالفجم ينجذب إلى الخرابات مثله مثل العفاريت والجان وأبو رجل مسلوخة، إلا أن الفجم ليس خرافة مثلهم، بل هو موجود لا شك، ووفقا لرواية جدي الكبير، فقد حضر أول ظهور للفجم، ورأى بعيني رأسه ما تشيب له الولدان، لكنه لم يفصح عن تفاصيل لأسباب شيب الولدان هذا، إما إشفاقا علينا، وإما هربا من ذكرى مؤلمة لا يريد استرجاعها، لكنني قررت أن أسأل جدي الكبير عنه، ما الفجم؟ وماذا رأى جدي من أهواله وكيف يعيش وأين يتواجد؟ ولماذا قرئتنا بالذات؟ وما شكله؟ وماذا يأكل؟ وعشرات الأسئلة التي تدفقت بلا نظام إلى رأسي، فشغلت تفكيري وعمت بصيرتي، فلم أر البت سمر وهي تعترض طريقي بابتسامتها الداعية، ومررت بها كأنها غير موجودة، لكنني التفت على صوتها تعاتبني: "كده برضك يا جاد! ما فيش حتى سلامو عليكو!!" قلت وأنا أذوب صباة وقلبي يقفز بين ضلوعي: "يقطعني ويقطع الفجم، هو اللي خلاني ما شوفكيش".

الحياة في قريتنا كوم والبت سمر كوم ثاني، فهي رفيقة طفولتي السعيدة وصباي المتفتحة وفتوتي الفائرة ومراهقتي المرهقة، وحبيبتي الآن، لا يمر يوم إلا وأرى سمر صباحا وظهرا وعصرا ومغربا، وكان الليل من ضمن الأوقات السعيدة التي نكمل بها يومنا لكن منذ أن كبرت وحاضمت منعها أبوها عمي فراج من الخروج بعد المغرب، ثم بعد العصر ثم معظم النهار إلا للضرورة، كما منعها من المدرسة، ورغم علمه بارتباطنا منذ الطفولة وعلم القرية كلها أن "جاء لسمر، وسمر لجاء" إلا أن عقل عمي فراج ضلم وعاداته قديمة، فهو يصير على فلاحة الأرض القليلة التي يملكها بيده، لا يستعين بالمحراث الميكانيكي ولا أدوات الفلاحة المتطورة، لا يزال يؤمن بالفأس والمنجلة والساقية والشادوف، وعمي فراج يعد صديق جدي الكبير المفضل، رغم فارق السن الكبير بينهما، فجدي الكبير تخطى المائة والخمسين عاما بسنوات توقف هو ونحن عن عدها، لكن الغريب أننا نسينا كم هرم هذا الرجل، فهو لم يشترك يوما من ألم أو مرض أو حتى تعب، ونظامه لم يتغير منذ سنوات أطول من عمري وعمر جدي الوسيط وجدي الصغير وأبي، فنحن خمسة أجيال نعيش في بيت ملك في قرية الجباينة إحدى آلاف القرى في أقصى جنوب مصر.. أفقت من دوامة الأفكار على صوت البت سمر تقول في دلال: "مش عايزة أعوق لحسن يقولوا الفجم ظهر في الناحية".

كهربتني كلمة البت سمر، وتذكرت جدي والغروب الذي أصبح وشيكا، فقلت في حزم: "وانتي إيه اللي مخرجك الساعة دي؟ إمشي على داركم

واياكي تطلي حتى من الشباك". على ما يبدو أسعدتها رجولتي فابتسمت في خجل فبدت غمازاتها، وأرجحت كتفيها وهي تعلم أني أحبها أكثر حين تفعل ذلك وقالت معاتبة: "ما وحشتكش؟"، قلت والشوق مفضوح في صوتي وعيني: "قوي.. بس خطر وقفنا هنا"، قالت: "خلاص نتقابل بعد العشا"، رفضت في شدة: "عشا لما يعيشش نافوخك، يابت انتي مجنونة؟ الفجم في الناحية"، ضحكت في استهزاء: "انت روخر بتصدق زيهم! إيش حال ما كنت متعلم"، لطمتني الجملة ووقعت في مطب لم أره، كيف وأنا المتعلم الطالب في السنة النهائية بكلية طب أسيوط، أنساق وراء خرافة الفجم تلك! كيف وأنا رجل العلم لا أؤمن إلا بالأدلة العلمية والبراهين العملية أنزلق وراء كلام جدي وباقي أهل القرية الجاهلاء؟ كعادتها أفأقنتني البت سمر من غيبوبيتي سائلة: "ها"، قلت بلا وعي: "أشوفك وراسور المدرسة"، افترقنا على موعد، وأسرعت إلى جدي وقد عقدت العزم على مفاتحته في خرافة الفجم هذه، فانتشار الخرافات في قريتنا أسهل من انتشار الكوليرا والبلهارسيا، بل أسهل من انتشار الهواء نفسه، فوسائل الاتصال في قريتنا سبقت العالم بسنوات طوال قبل النت والموبايل، فالقرية كلها تعرف ماذا يطبخ كل بيت، وتعرف من مريض وتعرف من سيتزوج من خلال الزغاريد، وزغردة الخطبة تختلف عن زغردة الزواج أو الطهور أو النجاح في الامتحان، فزغردة الخطبة قليلة العدد تفلت رغم إرادة صاحبها يتبعها زغرة من زوجها تعني: "اصبري لما ربنا يتمم بخير"، فترد على الكلمة التي لم تقال: "من فرحتي"، وزغردة الفرح والدخلة

تلاي في سماء القرية طويلة متنغمة متلوية ممطوطة ناعمة فاجرة مفضوحة،
كأنها ألفاظ تחדش الحياء، أما زغرودة النجاح فهي أشبه بالصفير المتقطع،
وعادة تكون قصيرة قليلة التكرار خوفاً من الحسد.

2

لامست الشمس خط الأفق وقد تلونت بحمرة الرحيل، إيلاج النهار في الليل سيبدأ، كم أحب تلك اللحظات التي أنتظرها على سطح منزلنا كل يوم مرتين، في الفجر والغروب، ويصر جدي الكبير أن يشهدهما كل أفراد الأسرة، حتى صارت طقساً يومياً لعائلتنا، عائلة الجباية التي سُميت القرية باسمها، فجدي الأكبر أو الجبتي الكبير هو جد جدي الكبير، وهو مؤسس عائلة الجباية، ومنه تناسلت عائلتنا التي كبرت واتسعت حتى أصبحنا لا نعرف بعضنا البعض، وأُفِيق على صوت دخول جدي الأصغر الذي دائماً يحضر متأخراً للاجتماع اليومي لنشهد عملية إيلاج النهار في الليل، كيف تتم بتدرج هادئ وإيقاع لا يتغير.. النهار ينحني بمغيب الشمس ليرتدي عباءته الغامقة، وقلنا كلنا في نفس واحد بين مسموع وخافت ومتمتم وصامت: "سبحان الله"، وهذه التسبيحة ينتهي الاجتماع، وينسحب كل

إلى مهجعه، لكنني لم أنسحب مع أبي، وظللت أنتظر حتى يخلو السطح لأسأل جدي الكبير عن الفجم مع انسحاب آخر ضوء من بقايا النهار التفت جدي الواقف مواجهاً للبقعة التي كانت شمساً منذ لحظات، وجدني أقف في انتظاره، فجلس على المقعد الخوص الذي صنعه بنفسه، اقتربت منه وجلست تحت قدميه، وهي علامة على الرغبة في الحديث، تعلمناها كلنا منذ نعومة أظافرنا، بادرنى بالسؤال: "جبت العيش؟"، فهزرت رأسي إيجاباً: "قبل المغرب وحطيته في المشنة وغطيته بالصوفة"، فلاذ بصمته سارحاً في نجوم بداية الليل، وصمت جدي إذا طال ودخل في مرحلة التأمل، فمن الحماقة أن تقطع عليه تأمله، إذ سينالك زغدة من عصاته الخشبية التي لا تفارقه أبداً، تذكرت مواعيدي مع البت سمر، فبعد دقائق سيقوم ليصلي المغرب، ثم جلسة التأمل حتى العشاء، ثم الصلاة والنوم، إذن هذا أنسب وقت لأسأله فقلت: "جدي.. هو إيه الفجم ده؟".

لم تهتز خلجة من وجه جدي حين ألقى عليه السؤال، وظل في سرحانه اللا نهائي برهة قبل أن يقول: "انت شفته؟"، قلت: "لا.. بس.. قاطعني مسكتنا إياي: "يبقى مش حتعرفه"، أوقعني جدي الكبير في حيرة من أمري، فهل هذا الرد إجابة لسؤالي أم نهى عنه، أم دعوة للبحث أم هروب من الإجابة، فقلت: "وأعرفه مين يا جدي؟"، نظر إليّ وشبح ابتسامة ساخرة في مسحة وجهه سائلاً: "عامل إيه في جامعتك يا جاد الله؟"، وجدني الكبير هو الوحيد الذي ينطق اسمي كاملاً، لم أردّ لأنني سرحت، ضحك جدي مفيقاً إياي: "سرحت برضك!"، فسارعت بالاعتذار: "لا مؤاخدة

يا جدي"، فقال مهونا وقد تجلت طبيته وحكمته: "مؤاخذه على إيه يابني! ياريت إخوانك يتعلموا منك السر حان"، وقبل أن أجيب، قام مكبرا ناويا صلاة المغرب، فأدركت أن الفرصة فاتتني، وعليّ أن أسرع لأصلي وأغتسل استعدادا لموعدي مع البت سمر.

أنهيت الصلاة ولم أع منها شيئا، وارتديت الجلباب المكوي بيد أمي التي أدركت خروجي، فامتعضت راجية: "ما بلاش خروج الساعة دي يا جاد"، قلت وأنا أتأكد من وجاهتي أمام مرآة الصلاة: "انتي بتصدقني الكلام الفارغ ده يوماي؟"، أصدقائي في الكلية يتعجبون من تمسكي بلهجتي النوبية، حتى وأنا أنطق الإنجليزية، وبعضهم يحب كلمة يوماي التي أنادي بها أمي، فأصدقائي خليط بين ماما ومامي وأمي وأما ووالدي والحاجة وست الكل.

أذان العشاء وأنا أخترق طرقات القرية العشوائية التي خلت من المارة، وغلقت الأبواب، كما غلقت الشبابيك رغم حرارة الصيف، لم يكن هناك غيري في الشارع، بل في القرية كلها، حتى القطط والكلاب انزوت وهجعت في الأركان المظلمة حين لم تجد أحدا من الأطفال ليلاعبها أو يحنو عليها بلقمة في تلك الساعة المبكرة من الليل، هممت في سيري حتى أصل قبل البت سمر، فليس من المروءة أن تنتظرنني هي، في العادة تكون تلك الساعة من أزحم الساعات في الشوارع الضيقة إذ تفرش النسوة الحصر العنجري، مطلقين أطفالهن نصف عرايا يمرحون بحرية حولهن

فتتفلطح أقدامهم وتحشن جلودهم ويتوحدون مع طمي التربة التي بنيت منها البيوت، وتركت أشباح القرية ورائي وقد شارفت على سور المدرسة، ودرت حول المبنى متجها إلى الركن المظلم في تكويعة من السور حيث تعودنا اللقاء، لمحت ظلًا يتحرك من بعيد فانتبهت أهى سمر؟ لكنها لم تظهر، فجلست على حجر صوان كان جزءًا من تمثال أثري قديم، لمحت ظلًا جديدًا يتحرك في سرعة الوميض يكسو السور المضيء، لا يمكن أن يكون هذا ظل سمر، فهي ليست بهذه الضخامة، ودق قلبي تلك الدقة التي أعرفها حين أخاف.. ما هذا الظل!

وجدتني ألتفت حولي في توجس، وقد تملكني خوف حقيقي بعد رؤية تلك الظلال الضخمة على سور المدرسة الأبيض، الذي كتب عليه عبارات تعليمية نمطية مثل عبارة العلم نور، وبجوارها عبارة مدرستي نظيفة، لماذا يصبر أهل قريتنا على تشويه كل شيء، لماذا يصرون أن يضعوا شعارًا لكل شيء؟ فهناك شعارات المدرسة، وشعارات للنوادي والفرق الرياضية، وشعارات لكل السلع الاستهلاكية والشركات والمصانع والبنوك، شعارات لتوجهات الحكومة، وشعارات للأحزاب السياسية وأيضًا شعارات للتوجهات الدينية، ولأول مرة ألتفت إلى أن كل ما يحمل شعارًا فهو فاشل، تأخرت البت سمر، يبدو أن رفع الشعار يشعروا بأننا لخصنا الموضوع وأوجزناه في برشامة نظن فيها حين نحتاج، فننام ونحن مطمئنين أننا أنجزنا المهمة، فأني ناظر من الخارج سيري شعار الأمانة موجودًا سيظن أننا أمناء، وسيري شعار الشرف والعمل والحرية والإخاء والمساواة واحترام القانون، إلى آخر الشعارات

التي تسربل كل حياتنا وهي لم تتعدَّ أن تكون شعارات، عناوين على رؤوس صفحات بيضاء لم تكتب، ولن تكتب طالما هي شعارات، وتذكرت مقولة جدي الكبير حين قال: "إحنا بنعيش عيشة شبه العيشة، فعندنا مدرسين لكن ما عندناش تعليم، عندنا لاعبين لكن ما عندناش رياضة، عندنا قضاة لكن ما عندناش عدل، عندنا طب لكن ما عندناش صحة، عندنا شرطة لكن ما عندناش أمن، عندنا مفكرين لكن ما عندناش ثقافة، عندنا سياسة لكن ما عندناش سياسة"، وعاد إلى القلق وركبني الخوف، وحين حاولت الهروب إلى أفكار، غلبني الخوف الذي وصل إلى الرعب حين رأيت ظلاً ضخماً يحجب ضي القمر يتحرك في شيطانية لوحش ذي ثلاث رؤوس تتلوى كالأفاعي على مبنى المدرسة، وصوت فجيج خشن محشرج يجمد الدم في العروق، يا ليلة سودة.. أهو الفجم!!

أثرت السلامة ولم يأخذني الشغف، ولم يدفعني الفضول إلى حماقة أندم بعدها، فانزويت في ظلام الركن، وكطفل صغير يلعب الاستغاية تكورت على نفسي وضممت أطرافي في أضيق حيز ممكن خلف بقايا التمثال الأثري، مراقبا ظلال الوحش الذي تتلوى رؤوسه الثلاث في أفعونية وقد صار على بعد خطوات مني، وتذكرت البت سمر، أسميت سمر لأنها تسامر، أم لأنها سمراء، أحب أن أراها خمرية تميل إلى الغمقان، وأذكر عندما كنا صغار نستحم في النيل عند المعبد الصغير عرايا إلا من نقاء الطفولة وسذاجتها، كان لون جسمها أفتح من وجهها وذراعاها حتى الكتفين، كنت أسخر منها وأغيطها قائلًا: "يا ملونة"، فتثور وتبكي وتظل تدعك جسمها بالطيني

لتغمق جلدها، فأقلدها وقد نسينا خلافتنا، ومع الغروب نعود إلى ديارنا
متشابكي الأصابع، نحمل صنادلنا على أكتافنا، وما جنيناه في يومنا من
زلط ملون، ما زلت أحتفظ به في دولابي.

أين أنت يا سمر؟ وتمنيت ألا تأتي، على الأقل حتى ينصرف هذا الوحش
الخرافي، لكنني سمعت صوت حديث! أي والله.. إنه كلام فأخذتني الشجاعة
بعد أن راودتني الطمأنينة لسماع صوت آدمي، لكن ماذا يفعل هؤلاء
الحمقى في تلك البقعة المقطوعة، والوحش يربط على بعد خطوات منهم!
ألا يرونه أو يشعرون بوجوده! فدفعتني فضولي أن أشب بعنقي ناظرا
تجاه الصوت، فرأيت رجلين يقودان ثلاثة جمال، وقيادة الجمال تتطلب أن
يكون واحدٌ أمامهم، والآخر خلفهم، لذا فهما يتحاوران بصوت مرتفع،
وكانا يحملان كلوبين مضيئين في أيديهم، فألقت الكلوبات ضوءها على
الجمال، فسقط ظلها على حائط المدرسة وهي تسير، فتعلو رؤوسها وتهبط
وتتهائل أعناقها وتستقيم، فترسم تلك الظلال المربعة على الحائط: "أبوكم
على أبو سمر على أبو الحب اللي قطعلي الخلف بسبب ثلاث جمال" هكذا
أسررت لنفسي، وقمت نافضا خوفاً، حامدا الله على السلامة، وعلى أن
البت سمر لم تأت وتشهد الحالة المذرية التي كنت فيها، وقررت العودة
إلى منزلنا: "حاجة تكسف".

3

ما إن دخلت غرفتي حتى فتحت الدولاب، وأخرجت الصندوق الخشبي الذي يحوي الزلط الملون، والذي صنعه لي جدي الصغير من خشب الورد، وتذكرت خوفي وأنا لا بد خلف التمثال الأثري، فابتسمت، ثم قطبت جبيني متذكرا أن ظلال الجمال التي أخافتني لا تعني أني يأسست من معرفة حكاية الفجم تلك، وهل هي خرافة أم حقيقة ويأسست من جدي الذي سيتلاعب بي كعاداته ولا يعطيني إجابة واضحة، فقررت أن أفتح تحقيقا موسعا بين الناس لعلني أصل إلى إجابة شافية.

بغواء الجهال وحماقة المغرور بدأت تحقيقاتي مع عجائز القرية وشيوخها، وكنت أظن أن الأمر سيكون سهلا، لن يتعدى جلسة شاي كحل أو قهوة سوداء مع بعض كبار السن، يقصون عليّ قصة الفجم وتنتهي المسألة، وأنا قادر بما إني متعلم أن أرتب وأفند وأنقي وأصنف وأبواب الحكايات،

ثم أعيد صياغتها لنفسي بالأسلوب العلمي اللائق بعقلي المستنير فأصل للحقيقة، لكن التجربة على أرض الواقع كانت مريرة، وعكس ما توقعت فاستخراج المعلومة من فم أهل قريتنا أصعب من استخراج السمينة من بطن النملة على رأي خالتي سمسة جدة سمر، وخالتي سمسة من عجائز القرية المعمرين، وما أكثرهم في قريتنا، فقريتنا دخلت موسوعة جينيس؛ لأن بها أكبر عدد معمرين في العالم أكبرهم جدي الكبير الذي تخطى القرن ونصفاً، يليه عمي دهب الذي سيحتفل بميلاده المائة والثلاثين بعد أيام، ثم خالتي سمسة التي أتمت المائة والعشرين عاماً من شهور، وحين أقول خالتي وعمي فأنا لا أقصد تلك القرابة المعروفة، ففي قريتنا كل الكبار هم أعمام وأخوال الصغار، وخالتي سمسة كارثة من كوارث الزمن حطت على رؤوس الرجال، فما منهم أحد إلا وذاق مرارة جداولها ومحاوراتها ومنطقها القوي وحجتها الدامغة وفصاحة لسانها وقدرتها على خوض الصراع مع أعنى الرجال حتى جدي نفسه! فيحكى أنها قالت لجدي لا! ويحكى أنها في مرة أخرى قالت له: "انت غلطان"، ويحكى أيضاً أنها تجرأت عليه في نوبة جنون وقالت: "إنت باينك كبرت وخرفت يا آدم"، وهي لا تترك محاورها إلا وقد اقتنع أو تعب من المناقشة، فقررت أن أبدأ بها في تحقيقاتي لمعرفة سر الفجم.

صليت الفجر خلف جدي الكبير، ونحن حين نصلي نفق بترتيب الأعمار من باب الاحترام، ويأتي دوري في الصف العاشر بعد أعمامي السبعة وأخوالي التسعة وأولادهم، ثم أنا، وخلفي مباشرة يبدأ جيل الأحفاد

حتى سن السابعة، أما من هم دون السابعة فينتشرون بيننا و حولنا، لكن مكانهم المفضل فوق ظهر جدي، والشاطر من يظل متعلقا به أطول فترة ممكنة، ولعبة "جدي بيصلي" لعبة قديمة من موروثة العائلة، وتبدأ مع إقامة الصلاة، فيتخلق الأطفال بين الثالثة والخامسة في دائرة حول جدي الإمام، وما إن يركع حتى ينطلق القادرون منهم، وهم طوال القامة إلى القفز على ظهره متسلّقيه ليصلوا إلى أكتافه بسرعة قبل أن يستقيم ظهره ويقول "سمع الله لمن حمد" فإن لم تصل إلى الأكتاف وتثبت بها، سقطت على الأرض "وبقيت طوبة" ثم تسنح الفرصة الذهبية لصغار السن وقصار القامة حين يسجد، ففيها نسمعه يقول: "سبحان ربي الأعلى" ثلاث مرات ثم يدعو كثيرا، فهي مدة أطول من الركوع، ثم إنها متكررة مرتين في الركعة الواحدة، لذلك كنا نحب صلاة الظهر والعصر والعشاء؛ لأنها أربع ركعات، أي ثماني سجدات أي ثماني فرص للقفز والتشعلق، فترى الأكف البضة تتسابق لتلحق لها مسكة أو شعبطة في أي جزء من رأس جدي، فيد تمسك بشعره الطويل البارز أطرافه من تحت العمامة الكبيرة، وأخرى تمسك بالعمامة نفسها وثالثة في أذنه ورابعة في أنفه وعينه وذقنه وشنبه، وهو كالجمل يحمل كل هؤلاء ولا يبالي، بل إنه نهر الأمهات حين حاولن منع أولادهن من مضايقة جدهم الكبير في صلاته، فأصبح هذا إذن يأخذ قوة القانون الواجب تنفيذه، وصارت الأمهات يسألن أبناءهن عند سماع الأذان: "مش حتلعب جدي بيصلي؟"، فيسرع الطفل إلى الاغتسال ويجري إلى السطح ليكون سباقا ليلحق له مكاناً قريباً من جدي، "ما أجمل

حكمتك يا جدي" هكذا أسررت لنفسي وأنا أرى لعبة جدي بيصلي تتكرر قبل وجودي وحتى الآن، فقد تعلمنا كلنا الصلاة وأحببناها بهذه الطريقة العبقريّة، تعلمناها كلعبة، أي متعة، ثم حين كبرت مداركنا فهمناها فصارت ملاذاً لنا من عناء اليوم، تصور طفلاً في الثانية من عمره يلعب لعبة خمس مرات يومياً، ولمدة خمس سنوات حتى يصل السابعة، نكون فيها أقرب مايمكن من فم جدي الكبير، فنسمعه يتمتم أو يجهر بالفاتحة فحفظناها، وما تيسر من السور القصار، فحفظناها، وترسخ في وجداننا أن صوت الأذان هو إعلان للمتعة فاستبشرنا به وأحببناه.

ما إن خلا السطح من المصلين، حتى اقتربت من جدي بنية استئذانه لأبدأ رحلة البحث عن الفجم، وبدأت كلامي بسؤال مباشر: "مش عايز تريحني ليه يا جدي"، قال في أريحية ساخرا: "جل مانا بكرهك ومش طايقك"، فضحكت، وقلت: "بتكلم جد إيه هو الفجم ده؟"، جذبني من أذني بأصابع أقرب إلى الكماشة طابعا قبلة على جبيني وأنا أتلوى من الألم: "أياياياي"، وهمس في أذني: "ياحمار أنا لو جاوبتك مش حتصدق، تاني هام أنا لو جاوبت على كل سؤال يبقى ماחדش حishtغل، ولا حيدور ولا حيبحت"، فهتفت متشجعا بكلامه: "ما هو ده الموضوع الي جايلك فيه"، قال: "حتقابل الولية سمسمة؟"، اندهشت سائلا: "وعرفت منين!!"، قال: "مانا عارف دماغك متستفة، رتبت العواجز حسب السن وحتبتدي بسمايسيب وبعديها ذهب، عموما دي ولية كدابة وبتقول إنها 120 سنة بس دي أكبر مني، ابقى سلم لي عليها".

4

"يا بنت الإله يا خالة سمسة! مخرصة من عمرك 30 سنة!"، هكذا تساءلت مبتسما وأنا أشق شوارع القرية في يوم قائظ من أيام بأونة، وهو شهر يوليو في التقويم الميلادي، وليس له مقابل في التقويم الهجري، وأعتقد أن له مقابلاً في التقويم اليهودي "عجيبة الحكاية دي!" لأول مرة ألتفت أن لدينا أربعة تقويمات! ولماذا نأخذ بالميلادي على جميع المستويات الرسمية والشخصية، لكن أحياناً نكتب الهجري بجوار الميلادي ذرّاً للرماد في العين، مع أن التقويم القبطي هو التقويم الصحيح المناسب والملائم لبلدنا فهو مقسم وفقاً لمواسم الزراعة، وطبيعة المناخ، ويرصد بدقة التغيرات المناخية التي تمر على مصر، وقد صاغوا للأشهر أمثالا شعبية مسجوعة فسهل حفظها وتداولها، فتسمع أن "برد طوبة، خلى الشابة كركوبة"، وتسمع: "برمها، روح الغيط وهات"، وبرمها هو شهر الحصاد، وتسمع: "كهياك،

صباحك مساك"، وفي قول آخر: "كهياك: تخلص فطارك تحضر عشاك"، نظراً لقصر النهار فيه، والناس ينطقونها كياك وقد تم الاستغناء عن الهاء المعطلة للنفس في وسط الكلمة، وكان القرار بالإجماع من كل المصريين، الذين ألوا على أنفسهم سنفرة الحروف والاستغناء عن بعضها وتخوير البعض الآخر من باب التسهيل والتلين، فنطقوا العربية فأفرزوا العامية المصرية وهي في طريقها لتكون لغة مستقلة، وحب قريتنا للسنفرة يرجع لطبيعتهم النباتية، فهم في لين النبات وطراوته ورقته، ورغم صلابه عودهم وقوة نسيجه إلا إنهم يميلون مع الريح ليستمروا في البقاء، ينمون رأسياً وليس أفقياً مثل باقي الأمم وفي سعيهم الدائم للضوء يلتفون ويتشابكون ويتعانقون فيخلق بعضهم البعض، وهم مثمرين معطاءون، ثابتون الجذور في الأرض لا يتتبعون مهما حدث، فالجبتى كائن غير مهاجر، يظل مكانه في الوادي الضيق، وعلى العالم أن يسعى إليه، إما غازياً وإما مهاجراً، وفي كلتا الحالتين هو مبلوع مهضوم متحلل في التربة المصرية، لئلا تمتصه كما يمتص النبات السهاد.

أفقت من خواطري على صوت البت سمر التي بادرني متوجسة غضبي: "صباح الخير يا جاد"، أقبلت عليها مبتسماً: "صباح الورد والنجس"، ارتخت عضلات وجهها واطمأنت أني لست غاضباً سائلة: "يعني مش غضبان مني؟"، قلت: "قلقت عليكى، مش عوايدك تخلفي معاد"، قالت شارحة: "على عيني وربى، أبويا حكم رأيه ماخرجش، وفكرت أهأوده وأنط م الشباك زي كل نوبة، فضل سهران مع الرجالة قدام باب الدار لحد

الفجر، عشان الفجم"، قلت ملامسا يدها: "كويس اني اطمنت عليكي"، سحبت يدها متلفتة في خجل أعشقه فيها: "رايح فين بدري كده؟" قلت: "حعدي على خالة سمسمه.. ما تيجي معايا نفطر عندها"، قالت في طفولتها الجميلة: "لا يا أخويا، جدتي سمسمه رغبة ولتانة ولسانها متبري منها ومجنونة"، ضحكت صائحا: "يا بت ما تقوليش على ستك كده"، ولأنها تعرف أن هذا أيضا رأيي في الخالة سمسمه نظرت لي قائلة: "ابقى خليها تنفعك"، قلت مكسبا كلامي هيبة العلماء وأهمية الباحثين: "أنا رايح لها عشان قررت أعرف أصل وفصل الفجم".

شارفت القرية على الانتهاء وتبدى عن بعد دار خالتي سمسمه، فهي تقطن خارج حدود القرية، وقد كان لها دار وسط القرية التي تشوهت بأيدي أبنائها وتحولت إلى مسخ مدينة، بيوتها ذات طوابق كعلب رصت فوق بعضها، وقد وصل ارتفاع البنايات إلى ستة طوابق، وهو ما يعتبره أهل قريتنا ناطحات سحاب، ويحلوا لأصحابها أن يسموها أبراجا، فترى برج المراغنة نسبة إلى عائلة الميرغني، وبرج الجبيلة نسبة إلى عائلة أبو جبل، وبرج الجبتي نسبة إلى عائلة الجبتي، وهو أعلى الأبراج، إذ يصل ارتفاعه إلى ثمانية طوابق كاملة، ويعد أشهر برج في قريتنا ليس لأنه يحمل اسم الجبتي، لكن لأنه تحول إلى مزار سياحي لسكان القرية، فمنذ إتمام بنائه توافد الفضوليون لرؤية هذا العجب العجيب الذي فاق عماير مصر ارتفاعا وأبهة، فله مدخل واسع مغطى بالزلزلي الأبيض ومُطعم بالأحمر والأصفر، وسالام عريضة بلاط سطوح، وكل دور يحوي أربع شقق،

وحين صعد الناس لأول مرة في حياتهم إلى سطح البرج، شهقوا من هول المنظر، فقد رأوا القرية كلها من جميع النواحي حتى حدود الجبل الشرقية والغربية، وكانت شهقة الفضوليين من الزائرين للبرج أول شرارة سرى أثرها في الناس حين سمعوا عن هول الارتفاع، وأنت لا تستطيع الاقتراب من السور حتى لا تدوخ، فأثار ذلك الشباب المحب للمغامرة، وصعدوا البرج واقتربوا من السور، بل وتباروا فيمن ينظر أطول فترة ممكنة، وصارت مغامرة البرج مجال منافسة لإبهار البنات اللاتي كن يصرخن فزعا عندما يقترب شاب من الحافة، وقد تجرأت مرة البت هجلة مقلدة الشباب واقتربت من السور، فداخت وسقطت مسورقة حتى قبل أن تصل للسور وبالتكرار أصبح اصطحاب البنات ليسورقوا فوق السطوح تقليدا متبعا ومواعيد غرامية تضرب ومزارا سياحيا عاطفي، فبشكل ما صارت مسورقة البنت علامة الإيجاب لبداية قصة الحب، فيحملها الشاب الذي لم يبلغ الخامسة عشر بعد، هابطا بها ثمانية طوابق، وتعلن بذلك العلاقة بين فلان وفلانة، أهل قرينتنا قادرون على تحويل أي فعل أو قول إلى تقليد متبع! فهم سريعو التأثير ببعضهم البعض، وسريعو الألفة مع كل جديد وبالتكرار والمعاشية يصبح تقليداً، ثم عرفاً، ثم قانوناً، ثم يضيفون إليه التحايش مثل: إن أنجح قصص الحب تلك التي تبدأ بمسورقة البنت عند الغروب، وإنه من الشؤم أن تسورق وقت الظهيرة ويجب أن تكون مرتدية جلباباً أبيض حتى يتسخ حين تسقط مسورقة فيعرف الناس أنها سورقت، أي تحب، أي مرتبطة، فيلزم كل حدوده، حتى السقطة نفسها

صار لها شكل وقانون، إذ يجب على المسورقة أن تقع على جنبها الأيسر ويسرع الحبيب إليها ليحملها بين ذراعيه ورأسها ناحية الغروب، ويقول لها "سلامتك يا فلانة"، فلا ترد، طبعاً لأنها مسورقة، ويجب أن تظل مغمضة الأعين حتى يهبط بها إلى الشارع فتفتح عينيها وتقول: "الله يسلمك يا فلان"، فإذا نجحت العلاقة واستمرت وأثمرت خطبة وزواجاً، عزا الناس ذلك إلى دقة وصحة المسورقة، وإذا فشلت أرجع الناس السبب إلى عدم الالتزام بأصول المسورقة، ليس إلى عدم توافق الروحين ولا تنافر الطباع ولا اختلاف الشخصيات، ولا عيوب كل منهما.. عجباً يا قرיתי تسعين إلى الجهل سعيًا.. وأفقت من شرودي على صوت خالتي سمسمة تقف بباب دارها تصيح: "ما لسة بدري يا سرحان يا ابن السرحانين، إنت يا واد مابتحسش على دمك، إنت مش عارف إني بفطر بعد الفجر جايلي ع الضحى، طب حنتغدى إمتى؟ نفسي أعرف بهيم زيك دخل كلية الطب إزاي"، لم أبال بثورة خالتي سمسمة واحتضنتها مقبلاً.

صحبتني خالتي سمسمة داخلين الدار ولم تتوقف عن رغيها وسبابها المتخلل لحديثها طوال الوقت، فبين الشتمة واللعنة والسبة والقذفة تسمع بعض ما تقوله وأنا أسمعها بنصف أذن، فقد تعودت كما تعود أهل قريتنا على أسلوبها الأبيح، وهي في سبابها لا تقترب من المحارم أو الأخلاق أو العورات، فهي شتامة مؤدبة، وبهذا تكون وضعت قانوناً للشتيمة، أوله الشجاعة، فلا تسب أحداً من وراء ظهره، ثانيها أن يستحق الشتمه حين يأتي بفعل منافٍ للعرف أو المنطق، أو يرتكب خطأ، لكن أعجب قاعدة

وضعتها خالتي سمسمة هي استخدامها للشتيمة في المديح، وقد سار على دربها كل أهل القرية فسمع: "فلان ده ابن جنية" أي شاطر، وتسمع "الواد فلان ده قرد مسلسل" يعني حرك ونشيط، وتسمع أن فلانة سوسة، بمعنى ناصحة، وفلان ده حمار شغل، وعِلّان ثور في ساقية، أي حمال للمصاعب، عجيبة أنتِ يا خالة.. أفقت من سرحاني على سؤالها: "عامل إيه مع البت سمر؟"، قلت مصطنعا الخجل: "الحمد لله"، فاعتدلت لي واضعة يدها في وسطها وبنبرة مهددة قالت: "اقعد عوج وكلمني عدل يا وله، الحمد لله ده إيه! ما تحكي ولا حتسوق السهوكة"، أثرت السلامة وقررت أن أحكي لها، بل وجدتها فرصة عليها تكون واسطة خير بيني وبين عمي فراج أبو سمر: "ما بنشوفش بعض إلا صدفه" قطبت جبينها لأن كلامي لم يعجبها: "صدفه ده إيه! إنت صابع وإجازة ما وراکش شغلانة، وهي لا ليها في شغل البيت ولا المطبخ، وراكوا إيه؟"، قلت بعد تردد: "عمي فراج محرج عليها تخرج"، قالت: "من إمتى"، قلت: "من ساعة ما رجعت في الإجازة"، خبطت على فخذها متوعدة: "طيب يا فراج الكلب، يظهر إني ما عرفتش أربيك"، ثم التفتت إليّ فجأة "إنت بتحبها بصحيح يا وله؟"، باغتني السؤال فارتج عليّ، فصرخت في وجهي: "إنت بتفكر؟!"، أسرعت بالجواب قبل أن تفجر: "بحبها.. بحبها يا خالة.. والنعمة الشريفة بحبها"، هدأت قليلا حين لمست صدقي وقالت: "وناوي تتقدم لها إمتى يا حيلة أمك؟"، اكتسى وجهي بسحابة غامقة، وأنا أقول: "عمي فراج شارط الشهادة قبل الجواز.. بيقول عايز يضمن مستقبل بنته الوحيدة"،

وكأني ألقى عود كبريت على صفيحة بنزين تحوي أصابع ديناميت ومادة تي إن تي شديدة الانفجار، فقد صرخت مولولة "ناعااااااا! شهادة! شهادة إيه أبو شهادة الموكوس بن الموكوسين..."، ولم أسمع باقي الموشح لأنني سرحت في عمي فراج وما سيحدث له من جدته خالتي سمسمة، وخفق قلبي خفقة الخوف، إذ إن هذه المرأة المتوحشة من الممكن أن تلتهم حفيدها عم فراج لمجرد شبهة شبّح خيال فكرة أنه يقف في طريق الحب، فتفسد العلاقة بيني وبين حمائي، وفي انشغالي بمأساة عمي فراج التي تسببت له فيها نسيت أم الفجم على اللي جابوه: "أنا إيه اللي كان جابني؟".

تأكل عظم النهار في محاولات يائسة لإقناع خالتي سمسمة بالعدول عن رأيها أن تسارع إلى بيت عمي فراج، ولن تتركه إلا بعد أن يحدد موعد لكتب الكتاب والدخلة، وصمتت فوجدت فرصة لأحول مجرى الحديث إلى الهدف الذي أتيت من أجله، وهو السؤال عن الفجم، فقلت مصطنعا عدم الاهتمام: "ألا إيه حكاية الفجم دي يا خالة؟"، رغم قوتها وشجاعتها إلا أنني لمحت شبّح وجل يختلج في الجفن السفلي للعين: "يقولوا ظهر في الناحية، إنتي شفتيه؟"، غمغمت: "الله يلعنه"، فكررت سؤالاً بمزيد من الشغف: "شفتيه؟"، فهزت رأسها إيجاباً، قلت: "وإيه اللي خلاه يظهر تاني؟"، قالت: "وهو من إمتى مشي.. من ساعة ما حل علينا وهو كل يوم له ضحايا، كل يوم واحد ولا اتنين بيقترسهم، الملعون".

سكتت وكأني أكتشف موضوع الفجم لأول مرة، فمعنى كلامها أنه

موجود بالفعل، وأن له ضحايا، وأنه لم يرغب عن الناحية أبدا منذ أن حل بها، ولماذا لم نسمع عنه إلا اليومين دول وما شكله وكيف يلتهم ضحاياه، وكيف ينتقيهم.. سيل من الأسئلة المؤجلة والحديثة طرحتها كلها في حجر خالتي سمسمه، كأني أخلص من عبء يثقل كاهلي، طال صمتها حتى قالت: "الكلام الي حقولك يا جاد تحفظه وتوعاه زي إسمك، فاهم يا ولة"، وعادت إلى صمتها تبحث عن أفضل نقطة لتبدأ منها، فقررت أن تبدأ من البداية: "زمان.. زمان قوي كان جدودنا عايشين هنا، جدودنا الي انتوا ماتعرفوهمش، حكم إحنا سلسالنا يرجع لجدي يوغوث جد سيدنا نوح".

بدأت خالتي سمسمه في الحكى، وقد اختارت أبعد نقطة لتبدأ منها، فنظرت إلى ظلال الأشياء في فناء الدار، فوجدتها ظللاً قصيرة تتوارى من حرارة الشمس تحت الأجسام الصلبة، فعرفت أنه الظهر، وخالتي مستمرة في الحكى عن أصلنا وفصلنا: "يوغوث جاب سيدنا نوح عليه السلام، ونوح جاب حام، وحام جاب كنعان، وكنعان جاب مصر ايم، وهو ده الي اتسمت البلد باسمه.. مصر"، وحين وصلت إلى جدي مينا موحد القطرين كنت أنا أفرفر من الحر والعطش والجوع، وقد مالت الشمس مطلقة بوق الرحيل، وخالتي سمسمه تقول: "انت ما جعتش يا ولة؟".

أحمت خالتي سمسمه الفرن وأزكته بالخطب قبل أن تدفع بصاج العجين إلى آتون النار ليختفي لحظات وسط اللهب، لكنك تستطيع أن تلمحه

وهو ينضج فيقب وينفش قبل أن تسحب الصاجة بالخرقة المبللة وترشه بالسمنسم وحبّة البركة، ثم تدهنه بالسمنة، وتلحوسه بالمربي، كم أحب جلسة الفرن في دار خالتي سمسة خصوصا في الشتاء، فأسرح في النار المتراقصة وأراهن نفسي ألا أنعس، وفي كل مرة أخسر الرهان، فالتحديق في النار طويلاً مثل التنويم المغناطيسي، يسلبك الإرادة فتثقل جفونك وتنعس وتنام، هل يتعذب الرغبة في النار؟ هل جزيئاته وذراته كانت لبشر أشرار ماتوا وتحللت جثثهم فصاروا ترابا نبت فيه حبات قمح أو ذرة، طحن فصار دقيقا وأنا آكله الآن؟ كم من أجدادي وأسلافي أكلت؟ وصوت الحطب يطرقع في انفجارات عشوائية فيخلق شريط صوت لمنظر النار والخبيز، فترتخي أذناك كما ارتخت عيناك فتسلم نفسك للنعاس.. هببت من نومي على صوت خالتي سمسة تصرخ توقظني وتطفئ النار التي كادت أن تشتعل في ملاسي حين قفزت شرارة أثناء نومي واستقرت في طيات جلبابي وأنا متكور ملاصق للفرن: "يخبيك يا وله أسيبك خمس دقائق ألاقيك نعست! هي عوايدك ولا حتشترها، أنا مش منبهة عليك ميتة مرة ما تنعش قدام الفرن يا وله"، قالت جهلتها الأخيرة وهي تزغندي لأعتدل جالسا، وناولتني سطل اللبن الرايب لأروي عطشي، بعد أكلة البط الدسمة التي ختمناها بفطيرة المربي الطازجة، ثم كوب شاي حبر يتبعه فنجانان من القهوة السوداء تصنعهما خالتي على الكانون الصغير قلت: "والله قعدتك ماتتساب يا خالة"، قالت: "ما بدري"، قلت: "يا دوب على ما أروح، عايز أرجع قبل الليل ما يغمق"، قالت: "انت تخليك

بايت الليلة"، قلت: "هه!"، قالت "يقطع شيطانك وشيطان سرحانك، هلبت ما سرحت مني وانا بحكيك يا وله"، قلت: "عن إيه؟"، قالت: "يخبيك، عن الفجم يا مدهول".

في الحقيقة أنا حين أسرح أترك جزءاً من حواسي متبها، فأترك عيني مفتحلتين فأنظر لكن لا أرى، وأترك أذني مطرطقتين، فأسمع ولا أنصت، وطبياً أعلم أن ما يدخل الأذن أو العين أو أيّاً من الحواس الخمس الظاهرة فهو يسجل، لكنه يظل في هامش الذاكرة حتى يتم استدعاؤه، فأنظر حتى أدخلو نفسي لأسترجع ما سمعت ورأيت، وبما أتي أبيت ليلتي في بيت خالتي سمسمه فقد سنحت لي فرصة لأسترجع ما حكته لي بالأمس، وفي السرير العنجريب تمددت ورحت أفرغ شريط الذاكرة، لقد بدأت خالتي من يوغوث جد سيدنا نوح وختمت بالإسكندر الأكبر، ولم يكن الفجم قد ظهر في بر مصر بعد، حك لي عن جدودي العظماء، ليس هؤلاء الذين ندرسهم في المدارس مثل أمّس ورمسيس، لكن جدودي الذين تسلسل منهم الجبّية مثل سنوحي وبيبي وميوتي وميريت، هؤلاء الناس البسطاء الذين صنعوا التاريخ لكن لم يدخلوه، لم يكونوا قواداً ولا ملوكاً ولا كبار كهنة، بل كانوا فلاحين وفلاحات عاشوا على نفس تلك الأرض زرعوها وسكنوها وعمروها ولم يذكرهم التاريخ، فلا أحد يعلم اسم من اخترع النورج والفأس والشادوف والمنجل والمذراة، لا أحد يعرف من عالج الجروح وطهرها، ولا من داوى المرضى وشفاهم، ولا من اخترع الزجاج، ولا العمليات الجراحية وخياطة الجروح، والعمليات الجراحية

في الجسم والمخ وصناعة العطور والمراهم وكريمات التجميل، من اخترع
 الناي أو الهارب أو العود، من اخترع الرحاية والهون والمقشة، من أول من
 دمس الفول؟ من أول من طهى البامية، من أول من خبز، كيف عرفوا أن
 نبات القمح أو الذرة إذا حصدت وذريت وطحنت وعجنت بالماء واللبن
 والبيض والسكر صارت فطيرة شهية كتلك التي أشم رائحتها الآن مما يعني
 أن خالتي سمسة قد أعدت الفطار، وفي قريتنا نأكل وجبتين في اليوم،
 الإفطار وهو يبدأ من بعد صلاة الفجر حتى الضحى، والوجبة الثانية
 بعد العصر، وجاءني صوت خالتي سمسة مناديا في حنو منغم مغنى،
 ففي قريتنا هكذا نوقظ النائم، وفن إيقاظ النائم مجال للمنافسة بين نساء
 قريتنا، فكلهن في رقة أوراق الشجر وعذوبة ماء النيل، وفي الصباح الباكر
 تسمع زقزقة العصافير وخيرير مياه النيل وحفيف أوراق الشجر متناغما
 مع أناشيد إيقاظ النائم الصادرة من الدور التي تفتحت أبوابها لتبدأ يوم
 جديد، وسمعت خالتي سمسة تغني: "اصحى يا جاد الله، وخذ هدية
 الله.. شمس النهار قوم واحمد، ربك ع الفطار قبل مايرد"، "الله عليكى
 يا خالة صباحك ورد وعصافير"، "صباحك زفت مطين بطين"، "الله الله
 الله!! راحت فين الحنية الي كانت من شوية؟"، سألتها ضاحكا فقالت:
 "مش خلاص صحيت لازم ألطشلك لجل ما تفوق"، وطبعت قبلة على
 جيني وقبلى أنا يدها، ومع الفطار شرعت خالتي سمسة تحكي عن
 الفجم وكيف ظهر بعد رحيل الإسكندر من مصر، بعد أن ترك خليفته
 بطليموس الأول جد كليوباترة "حكم فيه ناس فاكرينها مصرية، لكن

لا، ولا تقربلنا"، هكذا أكدت خالتي سمسمة وهي تسلسل عائلة الجبتي الحديثة حتى جدي كاموس الذي ظهر الفجم في عصره.

"كأت سنين سودة بعيد عنك" هكذا بدأت خالتي سمسمة سرد قصة ظهور الفجم مع نهاية عصر كاموس الذي ورث بلدًا محتلة من قبل الرومان وقبلهم البيزنطيين، "كان همهم يمصوا دم المصريين، سرقوا البلد ولاد الهرمة"، وحكت كيف نقل الرومان كل العلوم والاكتشافات والفنون المصرية إلى بلادهم، وكيف أنهم أفرغوا مكتبة الإسكندرية من بردياتها ومخطوطاتها وبنوا إمبراطوريتهم على أساسها، "وماكفاهمش كده وبس، لا ونفضو أيديهم من مصر وناس مصر، كان جدك كاموس ضعيف وهفية ومالوش شخصية عامل زي جدك آدم"، فقلت متلطفًا: "حرام عليك يا خالة.. ده حتى يبحك"، فلتت منها ومضة غريبة عليها لم أرها في وجهها من قبل وهتفت بلا وعي: "بجدي وله؟"، ثم أدركت اندفاعها في ردة الفعل وتماسكت قائلة: "حبه برص"، لكن على مين، فقد انفضح أمرها وبانت لبثها وأظهرت لهفة لا تصدر إلا من محب مشتاق لأي أمل أو رجاء من المحبوب والحبيبة أمثالنا فقط هم من يدركون تلك اللحظة التي تكسر يأسك وتشع الأمل في روحك أن يكون المحبوب بعيد المنال قد باح بما يفيد حبه، تلك اللحظة التي لم تستغرق ثانية كانت كفيلة أن تكشف لي ما لم أتوقعه، خالتي سمسمة تحب جدي الكبير! يا للعجب! متى بدأت قصة الحب؟ وهل هي قصة حب أم مأساة حب؟ أم هي حب من طرف واحد؟ ووجدتني أنسى الفجم وسنينه وأتوجه

بكل عقلي تجاه هذا الاكتشاف المذهل، فقلت مناوراً: "ده حتى باعتلك
السلامات معايا"، أشاحت بيدها قائلة: "وأعمل إيه بسلاماته، هو مش
قادر يهز طول له ويبجي يطل عليّ وهو عارف إني مابخر جش من داري"،
كلما تكلمت خالتي سمسمه زاد تأكدي أنها تحبه، وما القسوة والخشونة
وطولة اللسان إلا غلالة رقيقة تغطي بها وجدانها حتى لا ينفضح أمرها،
لكنه انفضح يا خالة، فجأة قلت: "يتحبيه يا خالة؟"، هي طبعاً لم تتوقع
السؤال بهذه المباشرة الفجة، فارتج عليها أمرها، وهمت أن تقول كلاماً
لكنها أمسكت، وتلعت في شيء تافه مثل ذبابة مزعجة تهشها بعيداً شاكية،
"يا أختي الدبان ماله بقى رزل كده"، فلما لم أرد، وظللت ناظراً إليها مبتسماً
ابتسامة أدركت بلاقتها حين اضطربت وصرخت في وجهي: "إيه يا وله"،
قلت: "إيه إيه يا خالة"، قامت فجأة هاربة من محاصرتي لها: "أنت قعدت
بقت رزلة قوم غور روح على داركم"، فاشفقت عليها ولحقت بها: "طب
مش حتحكيلي حكاية الفجم؟"، قالت وهي تتجه إلى غرفتها: "بلا فجم
بلا زفت في يومك الأغبر ده"، ورزعت باب الحجرة منهية الحوار والمناقشة
والكلام وضاعت فرصة معرفة حكاية الفجم من خالتي سمسمه، فقامت
خارجاً وحين فتحت باب السكة فتحت باب حجرتها وقالت: "ابقى سلملي
عليه"، لم أسمع خالتي سمسمه تتحدث بتلك الرقة من قبل، بل أكاد أجزم
أنني لمحت دمعة تترقق في مقلتيها، يا بنت الإيه يا خالة! بتحبي؟ أما أنت
يا جدي فلي معك شأن آخر.

5

نحن نعيش وسط أناس لا نعرفهم، أو بالأصح لا نحاول أن نعرفهم، فقط نعرف أسماءهم وقدرهم ومكانتهم والقوانين التي ترسم علاقتنا بهم، لكن لا نعرفهم كأشخاص، والشخصنة ضرورية للمعرفة الحقة، نجعلهم أحياء ملموسين لهم أبعاد وزوايا، فأنا أعرف جدي وخالتي سمسة وباقي أهلي وأهل القرية كلهم لكنني لا أعرفهم، وإلا لماذا أنكر على جدي الكبير أنه كان شاباً ومثل كل الشباب يجب، ولماذا يجب الشباب فقط؟ من وضع قاعدة للحب؟ من قال إن العجائز لا يحبون، وإن كان هناك قانون يحدد سن الحب فما هو؟ ولماذا ننظر إلى كبار السن كحالات انتقضى عمرها الافتراضي وعليهم الجلوس في انتظار الموت؟ أليس من الظلم أن نلغي إنسانيتهم وحقهم في الحياة لمجرد أنهم كبار السن؟ فهذا ضد المنطق، فأنت حين تمارس شيئاً لمدة طويلة يتحول إلى جزء منك وأنت جزء منه، فتصير

واحدًا، ومن ناحية أخرى فإن جدي الكبير وخالتي سمسة وعم دهب وباقي معمرى القرية قد مارسوا الحياة لمدة طويلة جدا حتى صاروا جزءا منها وهي جزء منهم، صاروا هم الحياة، والحياة لا تتوقف ولا تثبت، فلماذا نطالبهم بالثبات؟ الحياة تتطور وتنمو وتتسع وتتسع، الحياة تأخذ وأيضا تعطي، وقد أعطى هؤلاء كثيرا، وأخذوا كثيرا، فلماذا نحكم عليهم بالجمود؟ هذا حكم جائر لا شك، فمن حقهم أن يحبوا فهكذا الحياة، ومن حقهم أن يعطوا فهكذا الحياة، ومن حقهم أن يأخذوا فهكذا الحياة.

سرحت في فلسفتي الكذابة وأنا في طريقي إلى القرية، أكان اعتزال خالتي الناس بسبب فشلها في الحب؟ هي دائما تردد المثل القائل: "البعد عن الناس غنيمة"، وجدي الكبير يقول: "معرفة الناس كنوز"، لا أدري من أصدق فيهم! إنها متناقضان أيكون هذا هو السبب في فشل حبهما؟ ووجدتني أسرح في البت سمر، أعرفها؟ وهل نحن متوافقان أم متعارضان، نحن قليلو الشجار، فغالب الظن أننا متوافقان، ولكن هل سنظل متوافقين إلى الأبد؟ لقد درسنا في كلية الطب أن المرأة تتغير جسديا ونفسيا حين تتزوج، ثم تتغير أكثر حين تلد، وتتغير ثالثا حين ينقطع الحيض، ثم رابعا حين تصبح جدة.. كم هي مسلية حياة المرأة ومتغيرة! ووصلت في سيري إلى مشارف القرية، حين ناداني الواد حامد صديقي المقرب وكاتم أسراري ورفيق الصبا والشباب، كان جالسا على قهوة توشكى الكبرى التي يملكها عم منير التشكاوي، فقررتنا صارت خليطاً من عائلات نوبية متفرقة بعضها من كوم أمبو وبعضها من توشكى وأندادان وفيلة وأبو سنبل وحلايب

وشلاتين وصولاً لأمر درمان جنوب النوبة القديمة، وبادرنى الواد حامد ونحن نحتضن بعضنا ونربت بقوة تصل إلى الضرب على ظهر بعض: "طبعاً جاي سرحان ولا على بالك"، قلت: "خير؟"، قال: "وانت ييجي من ورا سرحانك خير"، خفق قلبي خفقة الخوف واعتراني قلق فألححت في السؤال: "ما تنطق فيه إيه؟"، جلسنا إلى الطاولة وطلب لي شيئاً ووضع ساقاً فوق ساق، فبدت ساقاه المعوجتان الرفيعتان كقرع حطب تفحماً من تحت جلبابه الأبيض، وبلهجة الحكماء الناصحين قال: "مش تسب خبر انك حبيت بره البيت"، هنا أدركت ما حدث، فقد قلقت أمي كعادتها وقلبت الدنيا نواحاً وبكاء وعويلًا ونحيباً من نوع "إبني جواله حاجة"، فوجدتني متعصبا صائحا: "من إمتى بنسب خبر؟ ما طول عمرنا نبنت في أيتها بيت لما ننعم"، ضحك وراح يصب الشاي من الإبريق رافعا بزبوزه لأعلى درجة ممكنة حتى يرغي الشاي، قائلا: "أمك عاملة مناحة وبتقول إن الفجم كلك".

أعادتني كلمة الواد حامد إلى نقطة البداية، الفجم، قلت: "وانت تعرف إيه عن الفجم"، ألقيت كلامي، ولا أقصد السؤال، لكن الواد حامد بما عرف عنه من لبابة وفصاحة وعلم غزير اعتبرني أسأله لأستفيد ومن علمه أستريد، فانقصع في كرسيه رافعا درجة القلاطة ممسكا بكوب الشاي بيد تاركا اليد الأخرى ترسم خطوطاً افتراضية في الهواء، فحب حامد للرسم أكسبه تلك العادة، كأنه يرسم الكلمات ليثبتها في ذهنك رغم أنه يقرأ ويكتب بالعافية، فحامد لم يكمل تعليمه الابتدائي لظروف عائلية اضطرته أن

يترك المدرسة ويساعد أمه في زراعة القيراطين الحيلة، ولا يدري أحد متى وكيف تعلم الرسم والنحت، واكتسب بجدارة لقب فنان القرية، ولوحاته وجدارياته وتماثيله تجدها في كل بيت، وأمتع ساعات حياتي أقضيها في صحبته وهو يرسم أو ينحت، فمنذ الطفولة وأيام الاستحمام عرايا في الجندول الصغير كنا نلعب لعبة حرب الهكسوس، وننقسم فريقين، فريق بقيادة أحس وفريق بقيادة فرعون ملك الهكسوس، وكان السلاح المفضل لدينا هي "كنابل" الطين، نلقيها على بعضنا البعض ونجري وناور ونحاور حتى ينتصر جيش أحس على جيش فرعون، ولا تنتهي اللعبة إلا لو تم النصر، أو تقلب بزعة وقمص وغضب وينسحب فريق منا، لكن الواد حامد بجسمه النحيف كعود خيرزان، وأصابعه الطويلة المعروقة يتعامل مع الطين بمنطق آخر، فهو يقبض على جالوص الطين قبضة غير قبضتنا، فقبضتنا فيها قوة وغلاظة وغشومية، أما قبضته فكانت حنية، فتصبح يده كمهد رضيع يهن ويحن الطين، وتعمل أصابعه وأظافره كأزميل وسكين، ويظل يشكل ويضيف وينقص منها حتى تصير تمثالا وكان يعشق التفاصيل، فالحصان أو السمكة تلمح فيه الرموش وملمس الجلد والشعر، ومع نهاية اليوم يحمل ما نحته ليحرقه في فرن دارهم، فيصير فخارا: "انت سامعني ولا سرحت؟"، ضحكت وأنا أرشف من الشاي: "سرحت طبعاً"، فأعاد كلامه: "بقولك الفجم ده شبه التنين، عارفه؟"، هزرت رأسي إيجاباً وأنا أحاول السيطرة على ابتسامتي، حتى لا تبدو متهمكة من وصلة التخريف التي سيلقيها: "بس الفرق بينه وبين التنين إن له ثلاث دمغة وثلاث رقابي

طويلة زي التعابين، وكل دماغ ليها شكل والعياذ بالله لما تبصلها كإناك شفت بسم الله الرحمن الرحيم"، لم أتحمل هذا الهراء فقلت مستهزئاً والي يحصل يحصل: "يا سلام!"، لكن صديقي الطيب لم يلمح استهزائي، وحتى يستدل على صحة كلامه قال: "ده العضة منه والعياذ بالله تقضي على أئنها تخين بياكل النبي آدم في قطمتين.. في ثلاثة في ثلاثة كل راس تاكل حتة، راس تاكل الجسم ورأس تاكل الرأس والثالثة تاكل الإيديين والرجلين"، لم أسمع باقي الهراء الذي يقوله، وسرحت في سؤال طالما هف على عقلي، ماذا يكون حالك يا حامد لو أكملت تعليمك؟ ماذا لو كنت دخلت كلية فنون جميلة؟ ماذا لو تعلمت وقرأت وتنورت؟ ووجدتني أسأله لا لأخرجه لكن لطفا به ورغبتي ألا ينساق وراء الخرافات وما أكثرها في قريتنا: "إنت شفتة؟"، وهول المفاجأة قال: "طبعاً".

لم أصدق ما قاله الواد حامد، وانهلْتُ عليه بالأسئلة المتلاحقة من نوع فين وإمتى وإزاي؟ مرورا بإننت بتهزر ويا جدع قول كلام تاني، ووصولاً إلى أهم سؤال: "وإزاي أنا ما عرفش؟"، أشاح بيديّة المسلوعتين زاعقاً: "وانت حد بيشوفك؟ قاعد في أسيوط طول السنة والشهر الي بتجيه يا مع البت سمر، يا مع جدي الكبير وخالتي سمسة"، قلت كالمعتذر: "ما أنا... موضوع الفجعم ده واكلي دماغي، بقوم بيه وأنام عليه، لستها امبارح حلما بيه"، قبل أن يرد اقتربت مجموعة من الغلمان لا يقلون عن سبعة يبلغوني أن أمي تستدعيني فوراً، فصرفتهم برسالة تطمئنّها أي بخير، وسألحق بهم أول ما أخلص كوب الشاي، وتعجبت من سرعة انتشار خبر ظهوري

بالسلامة، عجيبة قريتنا في نشر ونقل وذيوخ وشيوخ الأخبار بتلك السرعة، فأنا تركت بيت خالتي سمسة منذ ساعة تقريبا ولم ألتق إلا بالواد حامد جالسا بطوله في القهوة التي تستعد لاستقبال زبائن الظهيرة، ووجدتني أسأل حامد: "هي عرفت منين؟"، بجعصة الفيلسوف ونخعة العارف ببواطن الأمور قال: "يعني مش عارف بلدنا، النفس مرصود والكلمة مسموعة حتى لو في شرك"، فسرحت في كلامه، فهو حقيقي وملموس، فما من حدث أو كلمة تقال في أي مكان إلا وتنتشر انتشار الدخان في الفضاء، فتنتقل الكلمة من فم إلى فم لتصبح كلمتين فثلاثا فعشرا، فحدوتة طويلة عريضة، عجيبة يا بلدنا، من قال إن الفيس بوك والتويتر والإنترنت هي أسرع وسيلة تواصل اجتماعي؟ ففي قريتنا السرعة تفوق راماتها أضخم كمبيوتر، وسعة تخزينها تفوق أجعصها هارد ديسك، بدليل خالتي سمسة التي تحفظ تاريخنا عن ظهر قلب، وليست خالتي سمسة وحدها، بل كل المعمرين والشيوخ حتى جيل جدي الوسيط يحفظون التاريخ، فقد شربوه مع الماء وتنفسوه مع الهواء، فليس من الغريب أن تنتقل الأخبار بتلك السرعة، جرعت آخر بق في كوب الشاي، وقلت لحامد: "قوم بينا"، قال: "على فين؟"، قلت: "على دارنا"، في ندالة رفع ذراعيه المعروقتين هاتفا: "لا يا عم، أروح معاك وأمك ناويالك على نية سودة؟ إنت اتجنيت"، قلت راجيا: "خليك جدع يا حامد، ما تسيينيش في وقعة زي دي"، وحتى أطمئنه أضفت: "أمي بتحبك ولو شافتك معايا حتأجل زعلها، وانت عارفها تطلع تطلع وتنزل على مافيش"، تفكر في كلامي، ثم سأل

مشرطاً: "وان شاطتنا إحنا الاتنين؟"، جذبته من ذراعه أوقفته دافعا إياه: "قوم بقى بلاش ندالة"، فتخلع وتمايل ولف ساقيه حول بعضهما، حتى كاد أن يقع صائحا: "طيب طيب ماتزقش"، فقلت: "واهو بالمرة تحكيلى حكاية الفجم"، وسرنا كما تعودنا أن نسير ونحن صغار متشابكي أصابع اليد، أو أحدهنا يحتضن كتف الآخر ووطدت نفسي أن أسمع الحكاية من فم شاهد عيان، لكن ما لقيناه في طريقنا من القهوة إلى بيتنا، وهي مسافة لا تقل عن ثلاثة كيلومترات، كان أهول وأعظم من الفجم نفسه.

تحر كنا حامد وأنا من القهوة سائرين على مهل في اتجاه بيتنا، وبعد نصف كيلو تقريبا عاد وفد الأطفال السبعة يستعجلني، فلم أعزهم اهتماما، إذ كنت مشتبكا مع الواد حامد في حديثنا الهام عن الفجم، وكان يقول: "أنا مش بس ححكيلك أنا حوريهولك"، فزاد شغفي ونهرت الطفل الرذل الذي يجذب جلبابي: "عمي جاد عمي جاد، جدتي بتستعجلك وبتقولك شهل وبلاش لكاعة"، لم أعزها انتباها سائلا حامد: "شفته فين؟"، أشار إلى رأسه وقال: "هنا"، آه يابن الفرطوس، فأعدت السؤال بصياغة أخرى: "هنا فين؟"، قال ضاحكا: "في دماغى اتصورته ورسمته"، انقضضت عليه ألوي عنقه تحت إبطي وهو يصرخ: "والنعمة الشريفة ما بهزر"، جذبني طفل آخر: "عمي عمي ستي مأكدة علينا مانرجعش إلا بيك"، لكني كنت مشغولا بصديقي الذي يتلوى تحت إبطي: "وانا اللي صدقتك يا مجنون يا ابن المجانين"، وفي حركة لولبية انكمش حامد، فصار أرفع من أن أقبض عليه، وانفلت مني هاربا ضاحكا، ونتيجة الحركة المفاجئة اختل توازني

وسقطت على الأرض، ولسوء حظي ارتطمت رأسي بحجر من أحجار الطريق وخذشاً ذراعي اليمنى خدوشاً دامية، أسرع إليّ حامد يقيمني ملهوفاً فوجدتها فرصة لأنتقم منه فتصنعت الإغماء، فركع بجواري واضعاً رأسي على فخذه الخالي من اللحم ملقياً أوامره إلى الأطفال أن يحضروا ماء، وراح يمسح جرح رأسي بطرف كم جلبابه، وأحضر الأطفال الماء، فخلطه حامد بتراب الأرض فصنع منه كرة طين في حجم كف اليد، وراح يكبس الجرح، هنا أدركت أنني لو تماديت في تمثيلي سأموت جرّاء تلوث جروح رأسي وذراعي، ففتحت عيني فرأيت نظرة اللهفة في وجه حامد الجزع، وهو يقول: "أنا آسف والله ما أقصد أوقعك"، هنا اكتفيت بانتقامي وضحكت: "إنت صدقت"، ترك رأسي وجلس شارباً ما تبقى من الماء، ثم مسح فمه بكم الجلباب متنهداً: "يا ابن الإيه يا جاد، خلعت قلبي"، وانفجرنا ضاحكين في سعادة لا أستشعرها إلا مع صديقي الطيب، جذبني من جديد طفل: "عمي عمي يالا عشان عوقنا"، نهرته في رفق والتفت إلى حامد قائلاً: "عارف وشك وانت مخطوف فكركي بإيه؟"، أطرق أذنيه فأكملت ويا ليتني ما أكملت: "بس ماتجيش سيرة لحد من يومين كنت جنب المدرسة بالليل"، وحكيته له موقعي المذري حين خفت من خيالات الجمل الثلاثة، فضججنا بالضحك من جديد حتى اغرورقت عيوننا وساحت وجوهنا المملوطة بالدم والطين وماء الأعين السعيدة، جذبني نفس الطفل الرذل "عمي عمي.." قبل أن يكمل صرخت فيه صرخة نظرتة من على الأرض، فأطلق ساقيه للريح مبتعداً، وفي أثره باقي الأطفال، قمنا حامد

وأنا ونفضنا التراب عن ملابسنا التي صارت كأنها خارجة من بق الفجم واتجهنا إلى بيتنا، وهو مشوار يستغرق حوالي نصف ساعة بالسير المتمهل، وما إن وصلنا المنطقة المزدهمة من القرية حتى انهال عليّ الناس بالسلامات وسمعت العجب العجائب عن مغامرتي مع الفجم ذي الرؤوس الثلاث، وكيف حاربته وهو يحاول أن يفرسني وقد عقرنى في ذراعي ورأسي وكيف ضربت الرأس الأولى، لكن نبت مكانها رأس ثانية، وكيف استعنت بقوة لا إله إلا الله والله أكبر حتى انتصرت عليه وطرده من الناحية! هنا أدركت خطئي حين حكيت لحامد موقفي المخزي عند سور المدرسة أمام سبعة من الأطفال لا يملكون إلا خيالاً واسعاً وشغفاً بالمغامرة يفوق شغفهم بالعسلية، وما يشغلني الآن كيف سأدخل على أمي وأنا على هذه الحال، وهي قد سمعت أن الفجم هاجمني وأصابني بجروح.

6

ما إن انحرفنا إلى شارعنا، حتى هجم علينا أهل القرية كلهم وقد تجمعوا أمام منزلنا الذي امتلأ من السطح والشقق والسلام والمدخل بالقادمين من كل صوب وحذب بعد أن سمعوا من العيال السبعة قصة هجوم الفجم عليّ "يا ولاد العفاريت"، مال عليّ حامد وقد أدرك هو الآخر ما حدث وهمس: "حد يحكي حكاية زي دي قدام عيال"، كنا نتقدم بصعوبة وسط الحشد الغفير، ومن خلفهم عند باب البيت وقفت أمي وأبي وأعمامي وأخوالي وجدي الصغير والوسيط، وما إن وقعت عيناها عليّ حتى قفزت في حضني أو أنا في حضنها، كانت تبكي وتضحك وتدمع وتكلم وتقبلني في كل جزء من وجهي وأكتافي في نفس الوقت، ثم تبعني عنها تتفحصني لتعود وتضميني، نسيت جروحي وألم رأسي وحرقان ذراعي ولم أشعر إلا بوجع أمي، كانت حين تحضني يلكنني قلبها المتسارع في صدري، وحين

تبعدي تلفني عيناها في فرحة مشوبة بالقلق والحمد والشكر واللوم والعتاب والحب، كم من المشاعر تراحت على عضلات وجهها الدقيق، وخرجت كلها من عينيها الواسعتين محمولة في ماء العين الملهوفة، لم تقل شيئاً سوى كلمة واحدة "يا ضنايا"، وفي حضن أمي سرحت في الكلمة، لأول مرة أنتبه أن كلمة ضنى تنتمي إلى معاني المعاناة والتعب والرهق والنصب والضنى! لماذا يستخدمها الناس للإشارة لأولادهم؟ وأجابني الموقف الذي أنا فيه، فكم كابدت المسكينة وهي تعيش ساعات الليل الطوال لا تدري ماذا حل بي، وكم عانت وهي تتخيل مايمكن أن يحدث لي في تلك الظروف الطارئة بسبب وجود الفجم في الناحية، وكم فزعت حين رأيتني دامي الرأس والذراع فتأكد لها صدق رواية الناس، ألا تنتهي معاناة الأمهات؟ فهي تعاني في الحمل وتعاني في الولادة، وتعاني في الرضاعة والفظام والمشي وشقاوة الطفولة وحماقة الصبي ورهق المراهقة وحمة الفتوة حتى بعد أن يكبر الولد تحمل هم صحته وسهره ومذاكرته ومشاكل أصدقائه وحبه وخطوبته وزواجه وخلفته وخلفة خلفته.. يا الله! كان من المستحيل أن أصد هذا الكم الهائل من المشاعر، ليس من أمي فقط لكن من الناس الطيبين اللذين تكتلوا كل يحاول أن يلامسني من باب الطبطبة، والطبطبة عندنا أقرب للضرب، وهي عادة تكون على الظهر والأكتاف والساعدين، لكن نظراً للزحام الشديد وزخم المشاعر وكثرة الأيدي وعشوائية الطبطبة، فقد تلقيت معظمها على قفاي فاستسلمت لقضاء الله واعتبرته عقاباً "عشان ماعملش كده تاني"، ولم تتركني أمي وظلت متعلقة بذراعي حتى وهي

تسلمني لأبي وأعمامي وباقي طقم العائلة ليعبروا عن مشاعرهم بمزيد من الطبطبة، وحانت مني التفاتة لأعلى فرايته.. جدي الكبير، يقف شاخا على السطح، وأكاد أجزم أني لمحت عينيه دامتعتين، وبإشارة من يده قال "اطلعي"، فسلكت نفسي من الزحام المجنون مخترقا زحاما أكبر عبر السلم مع مزيد من الطبطبة: "يخرب بيت ده حب"، حتى وصلت إلى السطح، فوجدته واقفا بجوار السور فأسرعت إليه، وفي لهفتي لم ألاحظ أنه يقبض على عصاته وإبهامه إلى أسفل: "أي".

لكزني جدي في جانب مؤخرتي بطرف عصاه فلوحتني، فأصبحت في وضع جاهز لتلقي ضربة ثانية سماش ساحقة ماحقة بعرض العصا على مؤخرتي كلها، فأسرعت مقتربا منه مقبلا يده، طبعاً من باب الاحترام والتبجيل، لكن أيضاً لأقرب المسافة بيني وبينه فلا أسمح للعصا أن تنالني بضربة ثالثة، وما إن رفعت رأسي حتى رأيت الحنية كلها تطل من عينيه وهو يحتضني بقوة كاد يعصرني، فتركت نفسي لتلك المعصرة العاطفية مستشعرا لذة الحضان القوي، وحضن جدي يختلف عن حضن أمي عن حضن صديقي عن حضن باقي الناس، والحضن عموماً طقس ولغة صامته تعني التوحد والقرب، لكن حضن الأم يفوق كل الأحضان، ففيه قاموس كامل لكل معاني الأمومة والحب واللهفة والفدا والاحتواء والطمأنينة والراحة وغسل الهموم، حضن عطاء بلا مقابل حضن تعود فيه طفلاً لا تخجل أن تبكي فيه، وتنفس ما في داخلك بلا قيود أو حرج، فقط سيل من المشاعر تنساب انسياب النهر في المجرى، أما حضن جدي ففيه قوة وشدة وحماية،

كأنه يقول لك: "ما تخافش أنا موجود"، وأحضان أهل قريتنا تعلن مبدأ الكل في واحد، أحاطني جدي من كتفي كأنه يتسند عليّ، فتحولت فوراً إلى عكاز وأحطته من خصره وجلسنا في ركن السطح الذي خلا من الناس بإشارة من يده، وكعادتي جلست عند قدميه، لكنه ربت بكفه على المكان الخالي بجواره فقفزت جالساً ملاصقاً له، استند بكفيه على العصا وفوقهم وضع ذقنه، وقال: "احكي لي"، بلا تردد أو تفكير حكيت له ما كان منذ أن تركت المنزل بالأمس وحتى علقه الطبطبة التي سبقت ضربات العصا، فضحك قائلاً: "تستاهل"، ثم ربت على ركبتي قائلاً: "يعني ما شفتوش"، فوجدتها فرصة فقلت مناوراً: "مش لما أعرف هو موجود ولا دي خرافة من خرافات البلد"، صمت قليلاً ثم نطق دون أن يحرك وضعه المتجه إلى الجنوب دائماً: "من جهة موجود هو موجود، وزى ما خالتك سمسمه قالتلك، هو جه مع الكفار لما دخلوا مصر أيام جدنا كاموس، هلبت ما شتمتني أنا وكاموس والكل كليله؟"، باغتني السؤال فارتج عليّ وقلت في عبط: "إيبي آه"، فضحك مجدداً وقال: "الله يسامحك يا سما سيب"، فاجأت نفسي وقلت: "هو انتو كنتو بيتحبو بعض؟"، لم أصدق أني ألقيت السؤال بهذا الغباء والمباشرة، أهذه الدرجة أفقد السيطرة على فضولي؟ ورغم أني أجلس بجواره، إلا أني أجزم أني لمحت ومضة كتلك التي قفشتها في عين خالتي سمسمه، لكن سرعان ما أطفأها، وتبسم قائلاً: "عارف يا جاد الله إيه أكثر حاجة بتعجبني فيك؟ إنك دوغري ما بتعرفش تلف وتدور"، لم أدر أهذه إجابة بالإيجاب أم النفي، واستطرد جدي: "عشان كده بحب

أقعد معاك"، قلت: "طب ما تريجنني وتحكي لي يا جدي"، ناور معي في أريحته المعروفة: "أحكيلك عن أنهي موضوع؟"، قلت: "الفجم.. أصل فيه ناس بتقول إنه شبه التين، وله ثلاث رؤوس وبياكل البني آدمين"، ظل صامتا بلا تعبير فقلت بلهجة الواثق العالم: "كلام تخاريف طبعاً"، التفت إلي بنظرة إشفاق وصدمني: "مين قال إنه تخريف؟"، ظللت فاعراً فمي، أيتكلم جد أم يلاعيني ويناورني فقلت: "بتتكلم جد يا جدي؟"، هز رأسه إيجاباً: "جد الجد"، وقبل أن أنهال عليه بسيل أسئلة قال: "قوم نام الليلة في حضن أمك ونبقى نكمل كلامنا بعدين".

7

نزلت إلى أمي التي آلت على نفسها ألا تتركني إلا بعد أن تشبع مني وأمي مثل كل الأمهات لا تشبع، فتركت لها نفسي تزغطني وتدللني غير عابئة باعتراضات أبي وأجدادي: "افتح بقبك يا جاد وبطل سرحان ع الأكل"، هكذا قالت أمي وهي تلقمني قطعة سمك في فمي وقد تحلقنا حول الطبلية الكبيرة التي لا تنصب إلا في العزايم والمناسبات، وقد دار الحديث حول الحادث الأليم الذي تعرضت له وكيف أن الله سلم ونجاني من الفجم! عجيبة تلك الناس! فرغم شرحي وحكيي وإيضاحي أني لم أتعرض لهجوم الفجم، وأن جروحي نتيجة سقوطي على الأرض، إلا أنهم يصرون على سرد الخرافة كأنها حقيقة واقعة، فياست من إقناعهم بعكس ما يعتقدونه واستسلمت لتوابع ذلك الاعتقاد، إذ إن أهل القرية قرروا الاحتفال بي كبطل مغوار انتصر على الفجم، وهي مناسبة تستحق

الاحتفال، واحتفالات قرينتنا كثيرة وصاخبة، فهم يحتفلون بكل المناسبات الاجتماعية والسياسية والدينية: "أنا كويتلك الجلالية الجديدة لاجل ماتبقى عريس عليه القيمة"، أخبرتني أمي بذلك وهي تلقمني قطعة سمك جديدة في فمي، ثم أضافت: "والعمة خلي أبوك ولا جدك يربطها لك، حكم أنا عارفة ربطتك تفك منك وسط الناس وتبقى فضيحة"، فقلت في محاولة أخيرة أعرف فشلها مقدما: "والله ما أنا عارف لزومه إيه التعب ده كله، الحكاية لا فيها بطولة ولا فجم ولا.."، قاطعني جدي الوسيط: "يعني مستكتر علينا نفرح يا وله؟"، أكد أبي على كلامه بهزة من رأسه؛ لأن فمه كان مشغولا بلوك آخر قطعة سمك، قبل أن ينفص يديه ويقوم قائلاً: "الحمد لله"، فقامت أمي تساعد على غسيل يديه من الإبريق والسطل رغم وجود حنفيات في البيت! عجيبة أنت يا بلدنا! لماذا تبقيين على كل قديم؟ لماذا تحفظين ما كان ولا تعيرين اهتماما لما سيكون!

المحافظة على القديم عادة وطقسًا وتقليدًا واتباعًا وعرفًا وعقيدة عند أهل قرينتنا، فنحن لا نرمي شيئًا، فتحولت القرية إلى مخزن كبير للتاريخ، على الأسطح وفوق الدواليب وأسفل السرير ووراء الباب وخلف الكنب، وفي زوايا العقل وطيات الذاكرة نحفظ كراكيبنا، ففي كثير من البيوت تجد الصنابير الحديثة النيكل، وأيضًا ستجد طلمبات المياة اليدوية والبئر، ستجد الفرن والبوتاجاز العصري، ستجد الثلاجة والزيتر، وإذا خرجت إلى الغيطان ستجد المحراث الحديث وأيضًا ستجد النورج والفأس، ستجد وابور الطحين وأيضًا الرحاية، ستجد طلمبات الري الكهربائية، وأيضًا

الشادوف والطنبور والساقية، ولو صعدت إلى الصحراء التي تحيط وادينا، ستجد تماثيل أجدادي العملاقة ومعابدهم، وتجد البيوت الحديثة بالطوب الأحمر والحديد المسلح مثل قرينتا التي تشوهت وبقينا مسخاً على رأي جدي الكبير، وإذا دخلت نفوس الناس ستجد الفطرة النقية والسرائر الشفافة، كما ستجد الأفكار الاستشارية وأخلاق المستثمرين الحقيرة، وإذا دخلت عقولهم ستجد أحدث علوم الوراثة الجينية وأيضاً الحجامة والفصد وكبس الجروح بالبن أو الطين، وترى أطفالنا يشاهدون أفلام الكرتون الأمريكية والصينية لكن يستمتعون أكثر بحواذيت جداتنا الطبيبات عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال وأمنا الغولة وأبو رجل مسلوخة والشمامة! هكذا نعيش حاملين كم من التراث ينوء به أولي العزم من الأمم، نحن لا نرمي شيئاً، نعيش الماضي كما لو كان حاضراً، نأخذ بالتطور ونحافظ على التخلف، ولكي نفعل ذلك أصبحنا نتقدم إلى الأمام ونحن مولون الظهور له.

"بنمشي لقدام واحنا باصين ورانا"، هكذا قال الواد حامد فنان القرية وهو يطلعني على صورة الفجم في دارهم الذي توجهت إليه بعد أن نامت أمي وبقي أهل البيت، وقفت أتأمل الصورة الجدارية التي رسمها على حائط حجرته لوحش تنيني ذي رؤوس ثلاث، أبشع منظر ممكن أن تراه لوجه مخلوق على الأرض أو في الخيال، فالأعين الميتة مثل أعين الثعابين والقمع الواسع المليء بصفوف من الأنياب والقواطع، ولسان كما الكراباج يلحق السائل اللزج المنسال على الشفاة الحمراء، وأذنان أقرب للقرون الشيطانية يتوسطهما عرف مشعر بلون الدم وصدغ بارز جاف كأنه هيكل عظمي،

ثم رقة طويلة مغطاة بالخراسف الخشنة، يتخللها زوائد مدببة كالسلك الشائك، أدت ظهري للصورة وخرجت إلى الفناء الترابي أستششق نسمات الليل، وأكملنا سهرتنا في مداولة لما سيحدث في الاحتفالية التي تقرر لها يوم الجمعة القادم، صارحته بمدى الحرج الذي أشعره لاضطراري أن أكذب على أهل القرية وأدعي بصدق رواية انتصاري على الفجم، لكن كان لحامد رأي آخر إذ قال: "عشان إحنا ماشيين بضرنا بنشوف كل حاجة مقلوبة، فلو صممت تعدلهم الصورة حتبقى أنت الغلطان.. فهمت يا بهيم؟"، تفكرت في كلامه فوجدته منطقياً، ومع اقتراب الفجر توجهت لأصلي مع جدي الكبير وقد نويت أن أكون عريس الحفل قاهر الفجم.

صلينا الفجر خلف جدي الكبير، وما إن انتهت الصلاة حتى اتخذت موقعي عند قدميه، وظللت أرمقه كقط ينتظر من صاحبه أن يلقي إليه بلقمة، فتحولت ابتسامته إلى ضحكة وقد فهم مبتغاي فبادرني: "كنت بتسأل عن إيه؟"، قلت: "الفجم"، قال: "إنت مش شفته!"، فهمت سخريته فقلت: "أعمل إيه يا جدي بس! غلبت أفهمهم إني لا شفته ولا قابلته، لكن هم مصممين"، هز رأس الحكمة، وقال: "هاودهم يا ابني هاودهم.. الناس محتاجة أمل"، تعجبت لرده وكنت أظنه سيرفض ويلغي الاحتفال المزمع إقامته يوم الجمعة، وأستطرد: "الناس من خوفها من الفجم عايزة تنتصر عليه بأي وسيلة، حتى لو بالخيال"، وجدته كلاماً موزوناً، لكن هل يجدي أن تقضي على مصدر خوفك بالخيال؟ هز رأسه إيجاباً قائلاً: "لولا الخيال، ماكان الواقع جدودنا القدام بنوا حضارتهم عشان كان عندهم خيال، حلم،

رؤية، ويوم ما بطلوا يجلّموا ظهر الفجم"، هنا طرقت أذني وجاهدت ألا أسرح وقد بدأ يحكي عن الفجم فقال: "أنا مش دايا أقولك بحب فيك سرحانك؟ عارف ليه يا جاد الله؟ عشان السرحان يعني التفكير والتدبر والتأمل، يعني تشوف اللي الناس مش شايفاه وتفهم الي مش فاهمينه عشان كده أنا مطمئن عليك من الفجم"، لم أسمع ما قاله جدي بعد ذلك؛ لأنني سرحت وراء خاطر عن لي، ماذا لو جدي كان مخرفاً من المخرفين اللذين يملأون البلد؟ وخجلت من خاطري واعتذرت في سري لاستخدام لفظ مخرف، فأنا أبجل جدي، فهو حافظ للقرآن وفقه في الدين، ويؤمن بالعلم والتقدم، ويتحدث ثلاث لغات بطلاقة، النوبية والإنجليزية والتركية، غير اللغة العربية ويحيد قراءة الهيروغليفيه، وهو موسوعة تاريخية، أفقت على صوت جدي يقول: "عضني العضة الأولى في ذراعي، فجريت وطهرت الجرح، وصممت أني أنتصر عليه، وعشان ده يحصل لازم معايا جيش، كنت لسه شاب عندي ثلاثين سنة فقررت أعمل جيشي من ولادي"، حين وصل جدي لهذه النقطة كان غسق الفجر يسلم مفاتيح النهار للشمس المستيقظة، وشعرت أنه قد أجهد، فأشفقت عليه حين لمحت في وجهه وصوته وهناً نادراً ما تراه، فجدي دائماً قوي، فقمّت قائلاً "مش تقوم تريح شوية يا جدي"، لم يرد وكأنه لم يسمعني، فانسحبت في هدوء.

8

أخذتني قدماي إلى بيت حامد مارا بطرقات القرية وقد تشاغل الكل عني ولم يعيروني إلا تحيات الصباح السريعة، وبعضهم ناداني بالعريس، فقد كانت القرية كلها مشغولة بالتحضير لاحتفالية يوم الجمعة، فالنسوة يطبخن والأطفال يساعدون الشباب في كنس ورش الشوارع، والرجال يهيئون الساحة القديمة، وهي منطقة خلاء خصصت للاحتفالات، فيقام فيها الأفراح والمآتم والأعياد والمناسبات والاجتماعات العامة، يحضرها الكبير والصغير، حين وصلت لبيت الواد حامد وجدت خالتي أم حامد تحبز، فاستقبلتني هاشة باشة: "يا صباح الخير يا عريس"، وسألت عن حامد فأخبرتني أنه في الغيط، فاتجهت إليه، وما إن وصلت وجلت بنظري أبحث عنه حتى وجدته نائماً على طرف القناية، وكان منكباً على وجهه، فصرخت فيه صرخة تفزع العفريت، لكن حامد لم يتحرك، ساورني قلق

ما واقتربت منه أفحصه فلمحت سر سوب دم ينساب من مؤخرته ويلوث سرواله، فأسرعت أعدله ملهوفاً صائحاً "حامد".

ظلمت أصرخ منادياً حامد الواهن وقد شارف الموت، واستحال لونه الأبنوسي إلى رمادي غامق وقد فارقت لمعة الحياة، وفجأة تذكرت أنني طبيب، فأمسكت برسغه أقيس النبض، فوجدته بطيئاً ثقيلاً متباعداً، ونفسه لا يكاد يلحظ، لقد نزت كثيراً يا صديقي، بسرعة قمت إلى جلبابه المعلق على فرع شجرة وكورته صانعا وسادة وضعتها أسفل صدغه وقد قلبته على وجهه توطئة للكشف على الشرح لولا أن جاءني صوت من خلفي متسائلاً: "فيه إيه يا جاد؟"، وجدت بتول بنت عم بسطاويسي حفيدة عمي ذهب تقرب على حمارها المزركش، فحملت حامد وهو خف الريشة ووضعتة على ظهر الحمار مقلوبا على وجهه، وأسرعنا إلى القرية وفي لهفتي وأنا أجري أشد الحمار ليسرع وبجوارتي بتول، لم ألحظ أنها تمسك بيده حامد تدلكها له، لكنني لحظت تلك النظرة القلقة المشفقة في عينيها، فقلت مهونا عليها: "ما تقلقيش، إن شاء الله خير"، في الحقيقة أنا أواسي نفسي وأمنيتها بأنه خير لكن ما أراه بعين العلم يقول عكس ذلك تماماً، وأن حامد محتاج معجزة لترد فيه الروح، وقادت هي الحمار وأنا خلفهم أجري ممسكا بحامد حتى لا يقع، تحركت بتول بقوة وعنقوان وسرعة لا يتناسبان مع حجمها الضخم، فبتول هي أضخم فتاة في القرية، وأقوى من عشرة شباب مجتمعين، والجميع يتحاشون الصدام معها نظرا لقوتها وشراستها في القتال، سواء قتال شفهي، أو قتال بالأذرع واللكمات والأظافر والأسنان، والكل يتعامل معها أنها فتاة

وانشغلت هجلة برص قطع القماش النظيف المقطع لشرائح، وراحت بتول تطحن عشباً ما في هون خشبي، وانشغل عمي ذهب في خلط مزيج مقطر من مواد لها رائحة نفاذة، ثم مستخدماً قمع بدائي وضع من السائل في زجاجة صغيرة، وظل يرجها بقوة مقتربا من حامد مناديا بتول التي قبضت على فك حامد وفشخته، فراح يصب من المحلول في فم حامد حتى انتهى، وبید مدربة أغلقت بتول الفك وظلت ضاغطة عليه بقوة كلايتين من حديد، وفهمت لماذا تطبق عليه تلك القبضة بعد لحظات، فما إن استقر المحلول في جوف صاحبي، حتى انتفض وحاول إخراج ما بلعه، لكن هيهات، فقوة هجلة لا يقهرها أعتى الرجال، فما بالك بالمسكين حامد! ومرت لحظات أخرى خلتها دهرًا، وبدأ حامد يستقر وبدأت الملح مادة الحياة تعود ببطء وتدرّج إلى الوجه الغمض العينين، ثم برش وتحركت مقلته تحت الجفون، فساورني أمل واقتربت، وببطء فتح عينيه، فابتسمت، لكن عمي ذهب أمره أن يظل راقدا ولا يتحرك لمدة ساعة على الأقل ولم أستطع أن أمنع نفسي من السؤال: "هو إيه اللي حصله يا عمي؟"، نظرتي وهو يعيد القوارير إلى الصندوق وبلهجة تهكمية قال: "بلهاري سيّا.. خدتوها في الكلية دي؟"، تغاضيت عن سخريته؛ لأنني فعلا طلعت حمار، ففي لحظة الضغط العصبي والانفعال العاطفي نسيت علمي بمبادئ التشخيص وأعراض الأمراض، وأفقت من سرحاني على صوت ضوضاء أهل القرية الذين تركوا ما في أيديهم وأسرعوا إلى مصدر الصوت ليطمأنوا على حامد.. ما أجمل ناس قريتنا وما أطيبهم، فقد توافدوا إلى دار عمي ذهب في جموع مثل

التي اجتمعت لدى سماع معركتي مع الفجم، وقال قائل: "الفجم عقر حامد ثاني، بس ربنا سلم"، كدت أجن من جهلهم، وددت أن أصبح فيهم "فجم إيه يا بهائم! دي بلهارسيا"، بقوتها الجبارة ومساعدة أختها هجلة تصدت بتول لجموع الزائرين الملهوفين المخضوضين راغبين الاطمئنان على ابنهم حامد، في حين وقف عمي ذهب خلف بناته مستندا إلى عصاه التي تشبه عصا جدي وعصا خالتي سمسمة، فالمعمرون في قرينتنا فقط مسموح لهم حمل هذا النوع من العصي، وهو من نوع فاخر من الأخشاب، زاد الضغط على هجلة وبتول من قلوب مخلوعة خاصة النسوة، وكلهم يقسمون أنهم سيطلون عليه فقط والفتاتان تردان: "جدي مانع الزيارة"، فلا تياس المرأة أو الرجل، فيقول: "يعني ما طمنش على ضنايا"، أو "دانا عمه"، أو "دا أبوه الله يرحمه مو صيني عليه"، ما هذا الزخم من المشاعر الصادقة! لم يأت واحد منهم لتأدية واجب أو إثبات حضور أو تملق، فالاطمئنان على بعضنا البعض ليس واجبا يُقضى، بل هو جزء من تركيبتنا الجينية لا تجدها إلا في قرينتنا.

حين اشتد الضغط على البنات وبدأت النسوة تنتحب، والرجال يضربون كفاً بكف "لا حول ولا قوة إلا بالله"، تتبعها نهنية خفيفة، نعم رجال قرينتنا سيكون لكن في وقار، وهي دموع حقيقية ليست تمثيلاً أو استعطافاً، مما يزيد نحيب النسوة فيتحول إلى عويل، ثم إلى نذب، وإذا تطور يصير إهالة التراب على أم الرأس مصحوب بصوات الحرقعة، وصوات الحرقعة غير صوات الفرقة غير صوات الألم غير صوات العراك، فكما أن للزغاريد

أنواعاً واستخدامات كذلك الصوات، لكن قبل أن يصل الحال إلى درجة الانهيار وصلت أم حامد، فسمحت لها البنات بالدخول، وتحرك عمي ذهب مستقبلاً أم حامد مطمئناً: "ما تتخضيش هو بخير"، والتفت عمي ذهب إلى الجموع المنتحبة ورفع عصاه، وكعصا موسى التفت كل الأحران والأوجاع والدموع، وعم صمت جليل توقير الشيخ المعمر عمنا ذهب، وتوقير للعصا التي إذا رفعها أي معمر تصمت الأفواه وتطرق الآذان، وبصوت جهوري كأنه من بئر عمقه ألف سنة قال: "من الحب ما قتل"، فرأيت السحر بعيني وهم يطرقون الوجوه ويمزقون الرؤوس، وفي هدوء يستديرون منصرفين! ما هذه القوة؟ ما هذه السيطرة؟ ثم ما هذه الحكمة؟ تبتعت عمي ذهب والبنات داخلون إلى حيث وجدنا حامد في حضن أمه المبتسمة، وقامت لدى دخول عمي ذهب شاكراً حامدة، فأجلسها نافياً الفضل عن نفسه ومرجعه إلى صاحب الفضل.. الرب ذي البركة، ثم إلى سرعة تحركي ورعاية الرب التي أوجدت بتول بحمارها في ذلك التوقيت، ونفى كل منا الفضل عن نفسه وأرجعناه إلى صاحب الفضل، الله سبحانه وتعالى أو الرب، واقترح عمي ذهب أن نصلي صلاة شكر للرب على إنقاذ ابننا حامد من الفجم، فقممت وتوضأت وسجدت ركعتين شكر لله وقد صلى ورائي حامد وأمه، أما عمي ذهب فقد أخرج الصليب العتيق من صوانه وركع وخلفه البنات ضامين الأكف أسفل الذقن في خشوع يصلون للرب أن يحمينا من الفجم.

عدت إلى جدي بعد صلاة الفجر، فقد سهرنا أنا وبتول وأم حامد بجواره

تتناوب تغيير كمادات الخل والماء على جبينه لخفض درجة الحرارة، وتولت هجلة سأسأة المحلول ودهن المراهم وكل أعمال التمريض ووجدتني أرقبها بإعجاب، كيف تتعامل مع شرائح القماش فردا وتطبيقا ولفاً وربطاً، كيف تنظف بدقة وعناية الشرج، وتسحب الفتيل الملوث، وتضع غيره نظيف، ثم كيف تعفقه من خلف كتفه وترفعه لتسقيه الدواء، ومع الخيوط الأولى من الفجر استقرت حالته ونام، فقممت مستأذنا وأسرعت إلى بيتنا لعلني ألحق بجدي على السطح، وصلت مع انتهاء اجتماع الصباح وطمأنتهم على حامد، واتخذت مجلسي تحت قدمي جدي، فبادرني: "انت ناوي تشتغل فين بعد ما تتخرج؟"، وضعني أمام السؤال الذي أؤجله من يوم ليوم ومن سنة لسنة، فقلت متهرباً: "إحنا فين والتخرج فين يا جدي، لسه الماجستير والدكتوراه عشان أقدر.."، قاطعني من جديد: "وهي الشهادات دي لازمة لجل ما تتعلم زيادة؟"، هزرت كتفي وقلت: "ضرورية عشان أمارس"، فأعاد صياغة السؤال: "يعني من غيرها ماتقدرش تعالج؟"، هزرت رأسي نفياً، هز رأسه يأساً وغمغم: "اللي حط القانون ده معقور من الفجم هو راخر"، ثم غير مجرى الحديث، ورحنا نتباحث في برنامج يوم الجمعة: "يا نهار أسود ده بكرة"، صحت وقد سرقتني الأحداث فنسيت، وقال جدي: "حتعمل إيه؟"، قلت: "ولا حاجة حبقي عريس"، قال: "مش حيسيبيوك إلا لو حكيتلهم بالتفصيل ع الي حصل"، قلت ضاحكاً: "ما انت عارف إنه ما حصلش حاجة"، قال وهو يقوم معلنا انتهاء الجلسة: "لأ حصل.. فكر كده الفجم هاجمك منين وإزاي وإمتى وفين، حتلاقي إنه حصل".

9

هبطت إلى شقتنا وأنا أفكر في كلمة جدي، فهي لا تعني إلا أنه يريدني أن أصدق بوجود الفجم عن طريق ترديد الكذبة لنفسه، ثم أحكيها لأناس عطشى لأي أسطورة، ودخلت سريري في محاولة للنوم بعد تطبيقه يومين، وبدأت أراجع كل معتقدي وتراثي وتاريخي بل تاريخ قريتنا، أليس من المحتمل، بل هو الأرجح أن كل هذا التاريخ والموروث الشعبي والتراث العتيق، ما هو إلا مجموعة أساطير؟ مجموعة أكاذيب احتاجها الناس فحكوها ونشروها وآمنوا بها؟ والناس في قريتنا حين يتناقلون شيئاً يبدأ بخبر ويكبر إلى موضوع ثم حكاية فحدوتة، ويخرجون منها بحكمة أو مثل، وأنا في سرحاني هذا سمعت صوت خشخشة خلف الشيش المغلق، فتصنت برهة لكن الصوت اختفى، ثم تكرر من جديد، فرفعت رأسي مستطلعاً ومرهفاً السمع، فتكرر الصوت بوضوح، فقممت جالساً على ركبتني، ومددت يدي

إلى شنكل الشيش الملاصق لسريري وفتحته مستطعلا، وما إن فتحت فرجة صغيرة من الشيش، حتى هبت ريح متربة حارة ملهبة مفاجئة، مصحوبة برائحة كريهة نفاذة، فأسرعت لغلق الشيش مشمئزاً، نصف مغمض العينين اتقاء للغبار والسخونة الشديدة، لكن شيئاً صلباً حال دون إغلاق الشيش، وحين حاولت أن أثبت كُنة هذا الجسم الصلب، وجدته مخلباً أسود في حجم مخلب الرخ، ففزعت ما هذا! وقبل أن يتم فزعي تحرك المخلب الحاد وفتح الشيش بقوة حتى خلعه وهجم عليّ من الشباك جسم ضخم لم أثبت ملاحمه بدقة، لكن حجمه كان أكبر من الشباك، لذلك استغرق ثواني ليدلف إلى الحجرة، كانت كافية لأقفز بعيداً صوب الباب صارخاً في فزع، لكنه فرد جناحه الخفاشي وسد عليّ الباب، وراح يتخط بحجمه الضخم في ضربات عشوائية حولي، وكرد فعل تلقائي انكشمت في ركن الغرفة، وهدأت حركة الوحش المرعب وضم جناحية، وفتحت ركن صغير من عيني؛ كي أرى ما يحدث، فرأيت أمامي وجهاً لوجه، إنه الفجم أبشع من التنين وأكبر من الجاموسة، وله جناحان مثل الخفاش، ويقوم على ساقين قويتين يغطيها ريش خشن وجلد مجعد، وفي كل قدم مخلبان في حدة السكين، وحين تجرأت ورفعت بصري لأعلى قليلاً، رأيت الجسم المدهن يتفرع إلى ثلاث رقاب ثعبانية، تغطيها حراشف تشبه صدف السمك لها نهايات مدببة، وأعلى كل رقبة رأس هي رؤوس الشياطين بل ألعن، فبشّرته أقرب ما تكون إلى المجزومين، جلد سميك تنافرت كتله وكثرت نتوءاته كأنها مجموعة دمامل كبيرة، وفم والعياذ بالله أشبه بفم

التمساح وصفان من الأنياب البارزة، ولسان مشقوق مدبب يتلوى باحثاً عني حتى وجدني.. فبدأ يزحف ناحيتي، لكنه توقف حين انفتح الباب فجأة عن أمي التي صرخت لرؤيته وألقت بنفسها فوقى لتحميني فعقرها في كتفها، فصرخت تحثني: "اهرب يا جاد.. قوم يا جاد.. قوم يا جاد"، ففتحت عيني لأجد أمي توقظني من كابوسي باسمة، وناولتني كوب لبن باردًا جرعه في عطش، فقالت: "مالك يا وله جالك كابوس ولا إيه؟".

رغم استيقاظي وإفاقتي تماماً بعد الحمام البارد الذي أخذته، إلا أن أثر الكابوس المرعب الذي رأيته ما زال عالقا بروحي، وتوجهت إلى الجامع لأصلي الجمعة مع باقي القرية، وما إن انتهت الصلاة حتى قام الإمام ناظرا ومشيرا ناحيتي: "النهاردة بعد صلاة المغرب بمشيئة الله حنحتفل بالبطل بتاعنا العريس جاد الله بن آدم، وجدنا الكبير أمر إن الصلاة جماعة في الساحة القديمة موقع الاحتفال عشان كل البلد تصلي سوا ستات ورجالة وعيال، والحاضر يعلم الغائب"، ما إن أنهى الإمام إعلانه، حتى انهالت الأكف على أكتافي وظهري وقفاي مهئين بالمنصب واللقب، "مش فاهم إيه علاقة الضرب بالتهنئة"، هكذا أسررت لنفسي وأنا أتلقي صفعات الرجال، فهربت إلى سرحاني في حالهم، هؤلاء المخدوعون في بطولات زائفة، أهذا تراننا؟ أهذا تاريخنا؟ أهذا عيشنا؟ أكاذيب تلد أكاذيب وأساطير تلد أساطير؟ وانتابتنى نوبة غضب، أنا رجل علم فلن أسلم عقلي لجموع الجهال بما فيهم جدي الكبير، يجب أن أثبت للجميع أن الفجم ما هو إلا خرافة، ابتدعوها ليعلقوا عليها كسلهم وتراخيهم واستسلاهم، يعلقوا

عليها فقرهم وجهلهم ومرضهم، وسألت نفسي السؤال المهم، ما الخطوة التالية؟ فلم يبقَ على الاحتفال سوى ساعات العصر، فقررت الاستعانة بصديقي المريض حامد، فتوجهت من فوري إلى دار عمي دهب متجنباً الطرقات حتى لا ينالني مزيد من التهاني على قفائي، وحتى أهدأ وأرتب أفكارى وخطة هجومي درت حول القرية مخترقاً المزارع، لكن ما إن أصبحت في الخلاء وحيداً، حتى سمعت فحيحاً وصوت خشخشة وشيء يتحرك بين عيدان القصب! ورائحة تننة كتلك التي شممتها في الكابوس، فجمد الدم في عروقي.

رغم خوفي، ظل جزء من عقلي واعياً ومركزاً، ورحت أردد بصوت مسموع "أنا مش نايم" وعبارات تشدني من ظلام الخوف إلى نور الثقة بالنفس، لم أنكمش وقررت المواجهة مهما كانت النتائج، والغريب أن خوفاً تراجع حين تفاءلت بهذا اللقاء الغير مدبر المفاجئ المقتحم المهاجم المحاصر تفاءلت لأنى حسمت السؤال، إنه موجود، ويبدو أن الراحة التي انتابتنى لمعرفة الحقيقة تغلبت وسبقت وجبت شلل الخوف، فبدأ عقلي العلمي يعمل بوضوح، واستخدمت كمية الأدرينالين التي أفرزها جسمي في التحرك السريع والتفكير الفوري، فطالما هو يتخفى ويتحرك دائماً من خلف حاجز قبل أن يهجم فيصيب ضحيته بشلل الخوف، فالأرجح أنه سيهدأ حتى أطمئن فينقض عليّ ويفترسني، وتفتق ذهني عن مغامرة تفسد عليه خطوته، قررت أن أهاجمه وبسرعة التقطت وتد الحديد الذي يحدد حد القيد فصار لي سيفاً، وظللت أتحرّك بمحاذاة غيط القصب بسرعة عالية،

وهو يسرع أيضا ليسبقني، إذن هو ينوي أن يفاجئني قبل نهاية الغيط، فزدت من سرعتي وعدوت عدو العدائين المحترفين، وفجأة انحرفت داخلا الغيط أمامه وهو يقترب ناحيتي فوقفت أنتظره في بقعة مكشوفة، فوجئ بي في انتظاره، وقبل أن يتدرك نفسه ويفيق من المفاجأة هجمت عليه صارخا رافعا سيفي وضربته ضربة جندلته، فتضافرت قوة الضربة مع هول المفاجأة فسقط متكعبلا في نفسه، وساعدت ضخامة جسمه على قوة سقوطه، فانقضضت من جديد وعالجته بثانية وثالثة حتى فصلت الرأس، وكما ظهر فجأة اختفى فجأة.. لاذ بالفرار، فالتقطت الرأس المقطوعة وبدأت أكمل سيري تجاه دار عمي ذهب، سرت خفيها متقافزا في رشاقة لا تناسب مع حالتي المقندلة التي صرت إليها، لكنني كنت في منتهى السعادة والنشاط، إنها طاقة النصر، طاقة إيجابية سربت كياني، وفرحة عارمة ليس فقط لانتصاري على الفجم بل لأنني لدي ما أحكيه لأهل قريتنا دون كذب.

لاقتني هجلة: "يا لهوي يا جاد! إيه اللي جراك؟"، لم أعرها اهتماما، ودخلت في خيلاء وألقيت السيف والرأس المقطوع تحت قدمي حامد، تلفتوا حائرين بيني وبين ما ألقيت، فتوجهت إلى أقرب مقعد وجلست منجعصا جعصة الفاتحين المنتصرين ووجهت كلامي إلى حامد: "خدتلك تارك"، لم يفهم ولم يستوعبوا وظلوا ينقلون البصر بيني وبين السيف والرأس، فقلت: "راس الفجم.. طلعي من القصب"، ورحت أحكي لهم تفاصيل الواقعة بيني وبين الوحش، وحين انتهيت ظلوا مسهمين فأصابوني بالارتباك، ولمست

في نظراتهم شَكًّا فأشرت إلى الرأس المقطوع والسيف الملوث: "الدليل أهو قدامكم"، كانت بتول أول المتحركين، إذ أمسكت الرأس ونظرت إليَّ ساخرة: "ودي بقى عايزني أسلقها لك ولا أشفيها لك م العضم؟"، لم أفهم ونقلت بصري بينهم، أشاح حامد ببصره وخفرت هجلة عينيها كمن يهربان من نظراتي الحائرة، فازداد إبهامي لردة فعلهم! وتحولت حيرتي إلى غضب فصحت مقطبا: "مالكو!"، صاحت بتول: "إنت جاييلنا راس خروف وبتقول انه الفجم؟"، "راس خروف!" صحت متعجبا، وقبل أن تردد قام عمي ذهب خارجا أمرا: "تعالى يا جاد أنا عايزك"، فقممت خلفه وأنا في قمة الحيرة والاضطراب خرجنا إلى الساحة الخلفية للدار وبدأ يشعل الكانون الصغير ليصنع الشاي، ظللت صامتا حتى نطق: "شوف يا جاد، الفجم يتشاف بالبصيرة مش بالبصر، ويتحس بالرؤيا مش بالنظر، ويتحارب بالعقل والحكمة مش بالسيف". رغم وضوح كلامه إلا أنه أغلق عليَّ فهمه، فقلت: "يعني إيه؟"، قال: "إلي انت شفته واتعاركت معاه ده كان في راسك انت"، تعجبت لقوله، فهتفت مدافعا: "والدم والراس والسيف وهدومي المتقطعة والجروح ال..."، قاطعني في رفق: "تهيؤات.. كلها تهيؤات"، كدت أجن، فقممت منفعلا على غير عادتي: "كلام إيه ده يا عمي؟ تهيؤات إزاي وأنا شايفه ولا مسه و.."، راح يصب الشاي أمرا في حزم: "اقعد واشرب الشاي"، فانصعت للأمر، وبعد الرشقة الثالثة بدأت أهدأ فاستطرذ قائلا: "إلي حصل ده خير.. ما دام شفته ولمسته يبقى عرفته.. الفجم يا بني عاقر كل سكان البلد بما فيهم إحنا، جدك الكبير وسمسمه

وانا وكل البلد حتى انت، لكن الي شافوه ولمسوه زيك قليلين"، رحنا
 نرشف الشاي الذي زاد من روقان دمي وهو يقص عليّ لقاءه مع الفجم
 الذي شابه لقائي إلا في بعض التفاصيل، وكيف قطع له رأساً وألقاه أمام
 الجميع، لكن اتضح أنها رأس جاموسة فيما بعد، وقد رأى الحقيقة بعد أن
 عاجله جده بنوع من العطارة خلطها بالشاي مثل تلك التي أجرعها الآن
 وأسرعت بوضع الكوب كأنه مسموم وأنا بين اليقظة والنام، فضحك
 هاتفاً: "ماتتخضش، ده مهدئ يجلي النفس، ماتسمعوش عنه انتويا بتوع
 الطب الحديث"، ثم قام ساحبا إياي من يدي عائدين إلى الحجر، فوجدت
 الرأس والسيف مكانهما، لكن لعجبي كانت رأس خروف.

10

في الساحة القديمة وقف الشيخ منصور يرفع أذان المغرب، فاصطف المسلمون خلف جدي الكبير إماما، كما اصطف المسيحيون وراء عمي دهب، وصلينا كل صلاته، وبعد السلام راح جدي يدعو بصوته الجمهوري، كذلك فعل عمي دهب، قال جدي: "يا رب يا خالق الكون سبحانك يا علي يا قدير"، وقال عمي دهب: "أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك"، قال جدي: "يا قادر يا مدبر الملوك"، وقال عمي: "ليأتي ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض"، "يا حنان يا منان يا عاطي يا وهاب"، "أعطنا اليوم خبزنا كفافنا"، "يا رزاق ارزقنا"، "واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن للمذنبين إلينا"، "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على اللذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به"، "ولا تدخلنا في التجربة"، "واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا"،

"لكن نجنا من الشرير"، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين"، "لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد". وفي صوت واحد وقلب واحد ولسان واحد وإيقاع واحد هتف الجميع آآآمين، وبانتهاء الصلاة تفرقت الصفوف واختلط الناس وتحلقوا في حلقات، ودارت صواني الشاي والجنزيبيل يحملها الغلمان والفتيات، ودعاني جدي لأجالسه في مجلس الكبار، وهي مكانة عالية وشرف لا يناله إلا ذو حظوة، وكانت تضم جدي وعمي ذهب وباقي المعمرين من أهل القرية، كلهم يحملون العصي المصقولة إلا أنا، وبدأت صواني الطعام تنفذ على دفعات، وهي مباراة في الطهي والطبخ والتسبيك والقلي والتحمير والتتبيل والشوي، قامت بها نسوة القرية على مدار الأيام الثلاثة الماضية، ومع كل صينية تُوضع يعلن الغلام أو الفتاة عن مصدرها كأن يقول: "دي فتة خالتي فلانة أو دي ويكا عمتي علانة"، واكتشفت أنني كنت جوعان لدرجة الهفتان، فلم أكتفِ بملعقة واحدة، بل استخدمت ملعقتين في آن واحد، وحانت مني التفاتة فلمحت الواد حامد زانق البت بتول الجبارة، أو بالأصح هي التي زنقته في عامود السقيفة وقد اغرورقا في الضحك، فشمت رائحة جديدة سوف أسأله عنها حين أنفرد به، وقد استغرقت عملية العشاء حوالي الساعة ذقت فيها ما لذ وطاب حتى مرحلة التخمة، وجاء دور الشاي والقهوة لزوم الهضم، وما إن فرغت من كوبي الثاني، حتى مال عليّ جدي وقال: "يالاً"، رغم علمي بمقصده إلا أنني استهبلت وقلت: "يالاً إيه؟"، قال دافعا إياي لأقف: "قوم فز يا وله ماتستهبلش". لقد حان وقت الامتحان، والرهبة التي انتابتني لم تكن

من مواجهة الجماهير فكلهم أهلي وعائلي، لكنني وجدت نفسي في موقف هاملي، أكون أو لا أكون، أكون صادقاً وأقص الحقيقة أم أكذب وأقص الخرافة؟ كان الجميع ينتظرون تلك اللحظة، فعم صمت ثقيل لف المكان، اختفت الهمهمات والضحكات وأصوات شفت الشاي، حتى أصوات نقيق الضفادع وصر صور الليل توقفت، كذلك جمدت أوراق الشجر عن الحفيف، كأن الطبيعة تتحالف معهم لإحراجي، فتوجهت إلى وسط الساحة والأعين ترقبني بابتسامات مشجعة وأعين آملة وأذان مشحودة لسماع مغامراتي مع الفجم.

مرت اللحظات الأولى طويلة، أبحث فيها عن أفضل نقطة لأستهل الحكي.. دائما البدايات صعبة، ونظرت إلى جدي أستنجد به أن يسعفني، لكنه كان مبتسماً في فخر، فبحثت عن حامد عله يأخذ بيدي، لكنه زاد الطين بلة حين صاح: "ما تسييش فتفوتة إلا تحكيها"، "آه يا واطي"، هكذا أبلغته بنظراتي، فقهقه عاليا ضاربا كفاً مع بتول الجبارة، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم وقلت بصوت متقطع هفتان صدمان عدمان: "الحكاية مش مستاهلة، الفجم موجود"، هكذا استهللت كلامي كأني أؤكد لنفسي أولاً، "شفتة أنا وحامد أول نوبة من كام يوم.. طلعلنا من غيطان الدرة ورا القهوة"، فأمن الأطفال السبعة على كلامي: "أيوة إحنا شفناكو"، فأعطاني ذلك شحنة دافعة، فأكملت وقد صار صوتي أوضح: "حجمه أكبر من الجمل، وشكله ولا الشيطان"، دارت بسملات واستعازات بين الحضور اللذين أسلموا لي أعينهم وعقولهم: "صوته شبه شخار الحمار وهو بيطلع

في الروح، هجم علينا فجأة"، وبدأت الأعناق تشرب: "قام حامد صرخ
إجري يا جاد الفجم ورانا"، هنا زاد شوقهم فصاحوا: "ها"، "بصيت
ورايا لقيت بسم الله الحفيظ راسه عند كتفي"، "ها"، "حامد شدي من
دراعي يبعدي عنه"، "ها"، ودون أن أدري خلقت إيقاعاً بيني وبينهم،
أنا أقول جملة وهم يقولون ها، وكلما سخن الحكي، كلما ارتفعت نغمة
الها، ورحت أحكي عن تفاصيل لم تحدث عن شجاعة حامد التي ألهمتني
القوة، فوقفت أواجه الوحش بفرع شجرة، وحامد يدفع عني رؤوسه
الأخرى حتى فر هاربا، كان الشغف والمتعة والإثارة قد أكلت عقولهم
البسيطة وملأت قلوبهم الطيبة وبلغت بهم النشوة كل مبلغ، وأنا أختم
الحكاية الكاذبة بانتصارنا على الفجم، فضج الحضور بالتصفيق وانهالت
عليّ الدعوات بالفتح والنصر، ونظرت إلى جدي استطلع رأيه، فهزلي رأسه
مباركا، وهممت أن أنصرف وقد أنهيت المهمة الثقيلة بنجاح ساحق، لكنهم
تصايحوا مطالبين بحكاية اليوم التي سمعوا عنها، وصاح حامد: "إحكيلنا
موقعة القصب، أظن دي بقى كنت فيها بطولك"، "آه يا واطي"، أمام إلحاح
الجمهير وتصفيقهم ورجاء الصغار وشغف الكبار، ولا أخفيكم سرا إذا
قلت أنني استمتعت بالحكي والسرود وقيادة العقول والأعين، استمتعت
بشهقات الفزع عند المواقف الصعبة، وزفرات الراحة عند النجاة منها،
وبحلقة الأعين وبلع الريق في الأزمات، استمتعت بالاستحواذ والسيطرة،
فرحت أحكي موقعة القصب وأضيف إليها وأنقحها، واندجت لدرجة أنني
صدقت نفسي فصدقوني، فكنت أميل فيميلوا، وألثفت فيلثفتوا، لقد صاروا

ملك يدي وطوع إشارتي فإذا زعقت ينكمشون، وإذا همست يشربون، حتى أنهيت الحكاية وأنا في قمة السعادة وأنا أراهم يهجمون عليّ يقبلونني ويريتون عليّ ويتمسحون تمسح المتباركين بملامستي، ووسط هذا الخضم من النشوة انفجر صوت من أول الساحة: "إنتو بلد عايزة الحرق"، التفت الجميع إلى مصدر الصوت، فإذا هي خالتي سمسة، وقد وقفت ممسكة بعصاها المصقولة، ثم تقدمت مخترقة الصفوف التي أوسعت لها سكة، وحين توسطت الساحة وجهت كلامها إلى جدي: "إنت بتعلم الواد الكذب يا آدم؟ مش بقولك كبرت وخرفت".

تتجلى الحكمة في المواقف الصعبة، ولا أصعب من ذلك الموقف الذي وجد فيه جدي نفسه، فقد ألقت خالتي سمسة قنبلتها العنقودية متعددة الانفجارات، فلم تقف عند حد السباب والتعدي على كبير البلد، بل اندارت إلى الناس تشملهم بسبابها ولعناتها بدءاً من يا شوية بهائم يا قطع مواشي، وانتهاءً بانتو بني آدمين انتو؟! وأفقت من سرحاني على خالتي نجية تهجم عليّ صارخة: "انت الي قتلت كبشي؟"، يا ليلة سوخة! لقد فضحتني خالتي سمسة، وثار الناس عليها لتطاولها على جدي الكبير، كنت مركزاً مع جدي الذي ظل صامتا وسط الحابل الذي اختلط بالنابل، فخالتي سمسة تزعق وتسب، والناس بين ثائر ضدها يزعق بأعلى صوته ليكفها عن تطاولها، وبين متسائل عن الحقيقة، وآخرون تولوا مهمة تهدئة الجميع عن طريق الصريخ فيهم ليهدأوا! وخالتي نجية تزعق فيّ مولولة على كبشها الي اندبح، وقد أدى هذا الموقف المشتعل المتشابك إلى توتر

أعصاب الفتيات الرقيقات فانفجرن باكيات، فانضمت مجاميع الشباب لتهدئتهن بمزيد من الجعير، ووجدها الأطفال فرصة لا تعوض، فراحوا يجرون وسط الأجسام الكبيرة المتناحرة المتقلبة المتدافعة يقلدون الكبار في صرختهم بأصواتهم المرسعة يصرخون بدورهم، حتى الكلاب راحت تنبح مشاركة البشر في جنونهم، ووسط هذا الزخم من الفوضى واللامعقول وجدت بتول الجبارة توليني ظهرها وتقف أمامي كحائط صد في مواجهة خالتي نجيّة، ثم وجدت يداً تسحبني، فانسحبت مع اليد المعروقة كعود حطب ينتشل قطعة لحم سقطت في أتون النار، وما إن ابتعدنا بمسافة آمنة، حتى وجدت حامد يضحك قائلاً: "مش حنعرف نتفرج من هنا"، وسحبني إلى كوم زباله مرتفع من الأكوام التي تحيط بالساحة وفوق نصف تمثال أثري تسلقناه أنا وحامد، ومن تلك البقعة المرتفعة رصدنا المشهد، كانت الساحة أشبه ببقعة مشتعلة ضوءاً وصريخاً وتشويخاً وسط عتمة الليل المحيط، وحانت مني التفاتة لوجه حامد فوجدته مبتسماً في سعادة بالغة، ثم تركني فجأة وقفز مخرجاً من جيبه صباغ فحم ووجد ضالته في جدار حائط منزل عمي حجاج، وفي خلال دقائق تحول الحائط المدهون حديثاً إلى لوحة جدارية تصور ما يحدث في الساحة كما لو كانت فوتوغرافيا لحظية.

قد تعتقد أن الليلة قد عدت على خير، لكن ما بدأناه بصلاة المغرب والدعاء الموحد لم ينتهِ حتى صلاة الفجر، فقد انقسمت القرية الهادئة على نفسها، وتشيعت إلى فرق، فصارت هناك جبهة بزعامه جدي، وجبهة خالتي سمسمه المعارضة بزعامه الخالة المجنونة، ثم جبهة عمي دهب،

وجبهة الشباب بزعامة هجلة، وجبهة الحق والنور بزعامة الشيخ منصور، وجبهة الناس بقيادة خالتي نجية، كل جبهة لها توجهاتها وأولوياتها وأسبابها ومبرراتها ومطالبها، فالانفجار الذي سببته خالتي المجنونة سمسمة لم ينحصر مداه في طولة لسانها، لكن ما باحت به من حقائق واتهامات لكبار القرية وناسها، وضع كل أمام نفسه، كأنها أمسكت لهم مرايا كبيرة لينظروا إلى أنفسهم على حقيقتها، وحامد يسجل ويرسم، ووجدتني وسط هذا الموج المتلاطم أبحث عن البت سمر، لم أرها منذ بداية الليلة، وتعجبت كيف لم تحضر ليلة عرسي، أو بالأصح ليلة جرسي، فقد اعتبرت نفسي أنا المفضوح الأول في تلك الليلة، أين أنت يا سمر؟ وكان ذهني قد احترق من كثرة وسرعة وتراحم الأفكار والاحتمالات والافتراضات، فقررت أن أتجه إلى بيتنا وأنام "وإن شا الله تولع"، وحتى وصلت إلى بيتنا وصعدت إلى حجرتي كان صوت المعركة ما زال دائراً، ولم ينقطع إلا بصوت الشيخ منصور "الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله".

لأول مرة منذ سنوات لم أقم أصلي الفجر، كنت خجلاً من ربي، خجلاً من نفسي ومن الناس، وظللت في سريري يجافيني النوم حتى سمعت باب الشقة يفتح، وصوت عودة أبي وأمي، ومن لكنة أبي عرفت أنها خناقة، فأمي انضمت إلى جبهة خالتي سمسمة ضد جدي الكبير، وأبي يلومها لهذا الانحياز فمن الأولى أن تنصر جبهة جدي، لكن أُمِّي ترى أنها نصرت جبهة الحق بغض النظر عن درجة القرابة.. أهذه الدرجة كان أثر فعلتي! أن ينقسم البيت الواحد على نفسه! يا لي من شقي أين أنت يا سمر؟ ورغم

حرارة الجو التي بدأت تشتد مع شروق الشمس، إلا أني تغطيت بالملاءة واضعا المخدة فوق رأسي؛ لعلني أنعزل عن الدنيا وأنام، لكن هيهات.. أين أنت يا سمر؟ وقررت أن أنتظر ساعة بعد الشروق وأنزل إلى بيت عمي فراج لأسأل عن سمر، وشعرت بثقل في جفوني فاستسلمت له، لكنني مجهد متعب مهود.. آاه، وفجأة قفزت من سريري مفزوعاً، هل أنا أحلم؟ وأطرقت أذناي مرهفا السمع، فقد تناهى إلى مسامعي صوت رفيع حاد شارخ الفضاء والسكون كنصل سكين حاد يشق جسم الصمت ويوقظ الموتى من قبورهم.. إنه صوات لا شك فيه، ومن طول موجة الصوتية تعرف المأساة التي خلفها فهذه صوتية فجعية، ولا تستخدم إلا في حالة الموت.. من مات؟

قفزت من السرير إلى جلبابي ولم أهتم بالصندل، فخرجت حافيا لأجد أبي وأمي على نفس حالي، ثم أرهفت السمع قليلا، فصك أذاننا الموجة الثانية الناقلة للموجة الأولى، صاحت أمي وهي تسرع إلى الباب: "دي صوتية نجية"، فاندفعنا في أثرها بلا وعي وبلا صنادل، وقد بدأت موجات الصوات تتوالى وتتواتر وتتقارب ناشرة الخبر الحزين، من؟ وانفتحت أبواب شقق أعمامي ونسوانهم كنسخ مكررة لحالنا، فهبطنا جميعا مهرولين، قال أبي: "قلبي يقول إن الولية نجية عاملة مناحة ع الفاضي زي عوايدها"، لكن أمي أكدت: "الصوتية الأولانية مش نجية"، اقتربت منها وقد وصلنا إلى نهاية الشارع نتبع مصدر الصوت الذي انتشر وعم وجاب الفضاء "تفتكري مين يوماي؟"، قالت: "الغرب فيه عيلة أعمامك المراغنة وبيوت

الحجاجة الصغير! يارب استر يارب"، كنا قد وصلنا إلى منتصف الطريق وقد سبقنا ناس ولحق بنا ناس، كنا قد أشرفنا على برج المراغة وقد بدأ الزحام يتكاثر فيعيق الحركة والرؤية الواضحة، لمحت وسط الزحام الواد حامد فناديته، وحين اقترب مني سألته وسألني في نفس واحد "عرفت مين؟"، فرددنا في نفس واحد: "لا"، ثم أضاف حامد: "شكله كده حد من المراغة، الرحمة السوداء كثيرة عندهم"، فتفافزت لأعلى لعلني أستوضح الحقيقة من فوق رؤوس الناس الذين تكتلوا فسدوا الطريق فتعذر التقدم، قلت: "دار عمي فراج ورا برج المراغة، نروحله ونطلع فوق السطح نعرف إيه الحكاية"، قال هامسا: "نعرف إيه الحكاية، ولا تطل على حبيبة القلب"، أمسكت بذراعه المسلوحة دافعا إياه ليسلك لنا طريق بين الجثث الملتاعة، كما سلكني بالأمس من وسط الجماهير المتناحرة.. عجيبة قرينتنا.. فمنذ ساعات كانوا يتناحرون ويتشاجرون ويصرخون ولا يطيقون بعضهم البعض، والآن يتجمعون ويتكتلون وينضمون في قلب واحد ولهفة واحدة وهدف واحد وسؤال واحد "من مات؟"، ونجح حامد كعادته ووصلنا لدار عمي فراج، فإذا بالزحام بزيد، والصوات يتحدد مصدره ويتركز في بيت عمي فراج، فخفق قلبي وقلت: "الله يرحمك يا عمي"، قال حامد: "ما يمكن أم سمر مش أبوها"، وبصعوبة دخلنا فوجدت عمي فراج وأم سمر التي ما إن رأنتي حتى ألقى بنفسها في حضني ناحية مولولة: "عروستك ماتت يا جاد".

11

أن تصدمك طوبة، فهذا بالتأكيد أمر مؤلم، لكن أن يصدمك كوكب في حجم الأرض فبالأكيد لن تشعر بشيء؛ لأنك ستتنجذب إليه كحبة رمل بفعل الجاذبية وتدور في فلكه وتصبح جزءاً منه، هكذا هو الأمر إذن، كلما كبر المصاب كلما قل رد الفعل وتضاءل، لهذا لم أنفجع بل لم أشعر بأي ألم، كأن الحديث لغيري ولا يخصني، كأن الفجيعة هي الكوكب الذي جذبني وامتصني فصرت جزءاً منه، لهذا لم أبك، لقد صرت ذرة رمل عالقة بالمصيبة المهولة، فدرت في فلكها وتوحدت معها فلم أشعر بأثرها كما لا نشعر نحن بدوران الأرض رغم تأكيدنا منه.. أين أنتِ ياسمر؟ توجهت من فوري إلى باب حجرتها، فهم حامد أن يمنعي، لكن عمي فراج أمره: "سيبه يا حامد" فتركني، وتحركت أمها ترافقني لكن صوت عمي فراج جاء ثانياً "سيبوه لوحده"، وفتحت باب الحجرة ودلفت، أغلقت الباب

خلفي برفق لأنها كانت نائمة، مسجاة على سريرها النظيف، مثل كل شيء في حياة سمر.. نظيف، ومددت يدي أرفع الملاءة عن وجهها، لأن الدنيا حر، وظللت أنظر إليها مبتسما في دعة وسر بلتني رحمة إلهية لفت كياني، وخرج صوتي طفولي ساذج عفوي: "مش حتقومي نستحمي في الجندول؟"، قالت بصوتها الطفولي: "مش جاية معاك عشان انت بتعايرني بلوني الفاتح"، قلت: "حقك عليّ يا سمر! أنا بس كنت بغيظك"، قالت: "واللي يحب حد يغيظه"، قلت: "آخر نوبة ومش حعملها تاني"، قالت: "يعني مش حتقولي يا ملونة؟"، قلت: "ينقطع لساني إن قلتها تاني". فقامت وجدلت ضفائرها الصغيرة، ثم عقدتها فوق رأسها التي ربطته بمنديل، وتوجهت لدولابها وفتحتة، فوجدت علبة الزلط، كما وجدت قصاصات ورق ملون كنا نلعب به، وبقايا عروسة قماشية كنت أهديتها إياها عندما تمت العاشرة، وفي الرف الثاني وجدت زجاجات الأسانس العطري، وقد لصق عليها ورقة تحمل أرقام جاد 1، جاد 15، جاد 23 عشرات الزجاجات تحمل اسمي "كانت تحلم بفتح محلات عطور جاد، وسلسلة ملابس جاد، تبيع الجلابيب المطرزة ماركة جاد، كانت حياتها كلها تدور حولي، أما أنا فكنت مشغولاً عنها بالدراسة والكلية، لم تعترض أو تتذمر أو تشعرني لحظة أي مقصر، حتى في إجازاتي القصيرة التي أفضيها في القرية، كانت تترك لي مطلق الحرية لأجالس عائلتي وأصدقائي، وحين كنت أعتذر لها كانت تقول: "بكرة نتجوز وأزهق منك"، أو "بكرة تتخرج وتفتح عيادة ولا مستوصف هنا في البلد"، كان هذا حلمها، كانت تحلم لي ولها، لكن بكرة لم يأت يا سمر فهل أستطيع العيش من دونك بكرة؟

خرجت من دار عمي فراج كالمنوم مغناطيسيًا وخلفي سار حامد، لم أره بعيني لكنني رأيته بروحي، رأيت حبه وإخلاصه يحيطان بي كظل وفي مستعد أن يمد يديه المعروقتين في أي لحظة ليسندك إذا ترنحت أو يلقفك إذا وقعت، واخترقت جموع المعزين المكتظين في الطرقات من دار عمي فراج حتى منزلنا، لم أرَ وجوهاً، لكنني رأيت نفوسًا طيبة تفرش لخطواتي وسادة من الحب والتعاطف، لم أسمع إلا لماً مثل "ربنا يصبر قلبك يا ضنايا"، أو "شد حيلك يا جاد"، والعجيب أنه لم يلمسني أحد، لم يطبطب عليّ أحد لكنني أحسست بأعينهم تحتضني، يرتبون على ظهري برموشهم المبتلة، يهددونني في تجويف جفونهم المتورمة من أثر البكاء، توقفت وقلت لحامد "سيبني لوحدي يا حامد"، لم ينبث بينت شفة وظل واقفا بعيدا، واتجهت أنا إلى شاطئ النيل حيث الجندول الصغير، في نفس الموقع الذي كنا نلعب فيه، وخلعت ملابسني فصرت عاريا كما ولدتني أمي، وهبطت إلى الماء حتى غمرني.. لماذا تبكون؟ فسمر لم تمت، وهل مات من قبلها؟ هل مات جدي الأكبر الجبتي الأول؟ هل مات مينا ورمسيس وأحمس وحشيسوت ونفرتيتي؟ الجبتيّة لا يموتون، سمر لم تمت فستظل حية فينا، سيتحلل الجسد الفاني ويصير ترابا لزرعة مستقبلية نأكلها فستمر حياتها فينا، وتظللت بشجرة توت عتيقة كان يحلو لسمر أن تجمع دود القز وتفرش له صندوق من ورق التوت، وبعد أيام تفتح الصندوق فتجد الدودة المثمرة تفرز حريرا من ثغرها، ثم تلف نفسها وتشرق، وبعد أيام تفتح الشرنقة وتخرج منها فراشة، تتزاوج وتضع البيض فيصير دودًا وتكتمل الدائرة،

هكذا الحياة والموت، نحيا كالودودة، ثم نتشرنق في القبر، ثم نبعث فيما لا نعلم، فالودودة لا يخطر على بالها أنه سيكون لها جناحان وتطير في يوم من الأيام، والفراشة لن تصدق أنها كانت تزحف على بطنها منذ أيام.. سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.. ما أروع حكمتك وما أطف شأنك، تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي، اللهم ارحمها وثبني وصبرني حتى أصير فراشة أحلق معها في جنات الخلد، وشعرت بهاء النهر البارد يسخن على وجنتي، إنها الدموع، لأول مرة أبكي منذ تلقيت الخبر الحزين، وانسابت دموعي غزيرة تختلط بهاء النهر المنساب إلى الشمال، سيشرب منه آلاف البشر فيكون، إنها دموع إيزيس التي تجمعت فكان النيل، ظلمت أبكي لساعات طوال، وحامد الذي لم يتركني لوحدني كما طلبت، بل تبعني من بعيد حتى لا يضايقني ظل جالساً القرفصاء كتمثال أثري على التبة المشرفة على الجندول تحت أشعة شمس بأونة.

مرت أيام الحداد الثلاثة وأنا في حالة اللا وعي، تلقيت العزاء في الفقيدة بصفتي الاعتبارية وليس بصفتي الرسمية، وقد أصر عمي فراج أن أسبقه في ترتيب الوقوف لتلقي العزاء، ثلاثة أيام مروا من دون سمر، ثلاثة أيام كانت كافية أن أنضج عشرات السنين، الموت أكبر درس ينضج الأرواح الحية، فإن لم تتعظ منه فأنت جثة تسير على قدمين، وما أكثر الجثث التي التقيت بها في حياتي الشابة والتي أعلن نهايتها منذ ثلاثة أيام لأبدأ حياة الرجولة، وأكبر دليل على ذلك ما حدث في اليوم الرابع، إذ استدعاني جدي الكبير، فجلست تحت قدميه على السطح فبادرني: "الحي أبقى من الميت يا

جاء الله"، كان يتحدث بلهجة ناصحة لكن حازمة، أفهمني جدي بما أني كنت على رأس العزاء، فصار واجبا على أهل القرية أن يستأذنوني ليكملوا حياتهم المتوقفة منذ ثلاثة أيام، فقلت: "الأصول برضه يستأذنوا أبوها"، قال: "يا بهيم يا تور، الراجل بدّاك على روحه في العزاء، فبقيت انت ولي الأمر، الي مالحقش يعمله وهي عايشة عمله بعد وفاتها"، فقررت عمل ليلة على روحها تكون نهاية الحزن.

الساحة من جديد، والعشاء من جديد والكلوبات واللمة والهيصة، مع بعض الفوارق النوعية، ففي الليلة الأولى كنا شيعاً متناحرة، أما اليوم فالألفة والمودة والمواساة، في الليلة الأولى كنت شاباً غراً، أما الليلة فأنا رجل ناضج، لي مكانتي المرموقة بين الناس ترى تقديرهم لك في لفات صغيرة لا تراها إلا عين عاشرت القوم وحفظت لغة الأعين ولغة الأيدي ولغة الجسد، الإيحاءات والانحناءات وكل ماهو غير منطوق، فمثلا كنت أتجول مرحباً بالناس، وفي التجوال وسط الزحام تلتقي برجل يريد أن يمر من نفس النقطة التي ستمر منها أنت، فيقف ينتظرك، ويقسم أيماناً للمسلمين ألا يتتبع حتى تمر أنت أولاً، قاموس كامل يضم بين ضفتيه تراث أمة راقية متحضرة سامية شائخة، أمة صنعت مفرداتها بنفسها ولنفسها، وعجبت كل العجب، كيف نلقي بثقافتنا الفريدة المتكاملة ونرتدي عباءة ثقافة أخرى؟ كيف طاو عنا قلبنا أن ننسى ماضينا ونسترجع ماضياً ليس لنا؟ متى تم هذا التحول، متى تغيرنا؟ قال جدي الكبير: "من يوم ما ظهر الفجم"، كنت قد نسيت المدعوق المسمى بالفجم، وفجأة ظهرت خالتي

سمسمة، ران على الحضور توجس لحضورها، ووجدتني أنقل بصري بسرعة تجاه جدي، فوجدته معلقاً بصره بالمحجوبة، لكنه سرعان ما تدارك متذكراً الإهانة التي لحقت به فأكفهر وجهه، استغلت خالتي سمسمة لحظة الصمت وصاحت محادثة جدي الكبير: "غضبان مني؟"، لم يرد وأشاح بوجهه بعيداً، فاستطردت بصوتها الجمهوري الذي يشبه صوت الرجال "إيهي! لا كده تبقى غضبان بجد وانا ما يخلصنيش زعلك"، وتقدمت تجاهه تدب بنبتها دببات ثابتة، ووقفت أمام جدي الذي لم يولها وجهه، وفجأة انقضت عليه تريد تقبيل رأسه: "وادي راسك أبوسها"، تراجع جدي جافلاً من الهجمة، فأمسكت خالتي سمسمة الهواء، فاختل توازنها فسقطت فوق جدي، وراحت تمطره بالقبلات رغماً عنه، وهو يتصايح ويفر فرحت تحت ثقل جسمها الضخم، وبدا المشهد هزلياً، وكأن الناس كانوا في انتظار تلك الإشارة، فضجوا ضاحكين وتحولت الساحة إلى مباراة في الضحك بما في ذلك عمي فراج وخالتي أم سمر، لقد صدر الإذن إذن، فلتعد الحياة وليضج الناس بالسعادة، والتف الناس حول جدي الذي يرفس بقدميه وقد اغرورقت عيناه بالدموع ضحكا، وراح يصرخ: "خلاص ساحتك.. الحقوني يا خلق من الولية المجنونة دي"، وهي لم تتوقف عن التقبيل، أنا الوحيد الذي أعرف خلفية تلك القبل إنها تعوض سنوات الحرمان من حبيبها، أما هو فكان في قمة سعادته، وما فرفرته وترفيسه إلا مرأى ظاهراً، لكن الودوده لو تستمر تقبله، وفجأة وقفت خالتي سمسمة وقالت: "سيدي آدم.. عايزة أسورق".

ضحكت القرية كما لم تضحك من قبل، أو منذ سنوات طوال، ولكن ضحكتنا الأخيرة على طلب خالتي سمسمة أن تسورق لم يكن ضحكاً خالصاً، بل مشوباً بالتعجب والتساؤل أتمزح أم تتكلم جدّاً! نعم هم يعرفون خالتي سمسمة أنها جريئة ومقتحمة ولا تهاب ولا تستحي، لكن أن تصل جرأتها لأن تقف وتعلن حبها لجدي آدم على الملأ، فهذا والله شيء عجيب! لم يستطع جدي أن يدفن حبه أكثر من ذلك، فقام ممسكاً يدها زاعقاً مسمعا الجميع: "سماسيب يا بنت أور بن واوا بن زمران بن الجبتي الكبير تقبلي تتجوزيني؟" قالت وهي تتفافز مكانها كصبية وتمزج يديها في طفولة: "أقبل بس بشرط"، طرقت آذان واشرابت أعناق فقالت: "تعوضني عن المية وعشرين سنة الي فاتوا"، حار جدي سائلاً: "عايزاني أعمل إيه"، قالت في حزم لا راد له: "أسورق وتنزلني من ع السطح العالي".

على السطح العالي وقف جدي على مسافة مترين من الحافة، وخالتي سمسمة تتقدم ناحية السور تتبختر في دلع خجول وبعض النسوة يغششنها "ما تنسش تشهقي"، وأخرى تهمس بصوت يسمعه الجميع: "تقعي على جنبك الشمال"، وصوت الدفوف يرج المكان وتقرب خالتي من السور، الخطوة تبدو رشيقة رغم الوزن المهل، حتى صارت على بعد متر من السور، فصمتت الدفوف وحبست الأنفاس، وترددت خالتي قليلاً ملقية نظرة على جدي تحمل تساؤل: "حتقدر تشيلني"، فهز لها رأسه مؤكدا قدرته، وبيطء دنت سمسمة من حافة السور ونظرت، فإذا بها تصرخ: "يا لهوي ده عالي بجد" وقفزت مبتعدة همست امرأة منبهة: "اشهقي اشهقي قبل الخضة

ما تروح"، فشهقت وسقطت على جنبها اليمين، لكن النسوة أسرعن بعدها على الشمال، وبدأ جدي يقترب منها متخليا عن عصاه، ووفقا للطقس قال: "سلامتك يا ساسيب"، وشمر عن ساعديه وثنى ركبتيه كوضعية لاعبي حمل الأثقال، ومد جدي ذراعيه خلف الرقبة والعجيزتين، وزم شفتيه مستعينا بقوة لا إله إلا الله، وفي نظرة جبارة رفعها إلى صدره، ثم بدأ يفرد ركبته ليقوم بها ثم بدأت المرحلة الثانية، أن يسير بها حتى السلم، وبدأ جدي يتقدم في ثبات وقوة وعزم يبدو أنه اختزنهم سنوات عمره المديد لتلك اللحظة، وخالتي سمسمه عايشة الدور ومسورقة، وبدت خطوات جدي الونش ثقيلة طبعاً، ووقف جدي وقفة استراحة المحارب، يستجمع فيها نفسه ويجدد عزمه، وقد نجحت الخطة فكانت الخطوات التالية أكثر ثباتاً وأقل اهتزازاً، حتى وصل إلى باب السلم وهي المرحلة الأخيرة والخطيرة، فهبوط السلم أصعب من السير على أرض منبسطة، كانت الحشود على السلم قد انتفشت وملأت الفراغ بينها وبين الونش وحمله، فجعلوه كتلة واحدة متلاصقة صمدية لا انشقاق ولا ثغرات بينها فلا مجال للسقوط، مما ساعد جدي الذي بدأ يتحرك، لكن حركته هذه المرة كانت أسرع وأخف بسبب ذلك التلاحم، وحمل معه الناس الجزء الأكبر من الحمل الثقيل، فكانت أقدام جدي لا تكاد تلمس الأرض، واختفى الاحتقان والازدحام من وجهه فعادت الابتسامة إليه، لقد حمل الناس عنه فلم يشعر بمعاناة، وظللنا نهبط حتى وصلنا الدور الأرضي، وأخيراً وضع جدي المسكين حمله ساند رأسها على فخذه، ففتحت خالتي سمسمه عينيها متمادية في التمثيلية،

وقالت في وهن هو أقرب للدلع: "الله يسلمك يا آدم"، من جديد لعلت الزغاريد، والتف الناس حول العصفورين الجالسين على الأرض، وهذا ليس من الطقس، لكن لاجدي ولا خالتي كان فيهم حيل يقفوا، فظلوا على جلستهم، وأسرع البعض بأكواب اللبن وقلل المياه وبصوت لاهث صاح جدي: "فين الشيخ منصور؟"، تردد النداء عبر مئات الأصوات، حتى ظهر الشيخ المطلوب فنظر إليه جدي آمرا: "اجري هات دفترك لجل ما تكتب علينا دلوقتي"، صاح الجميع مذهولين: "دلوقتي!"، قال جدي: "أنا ما ضمنش أعيش لبكره"، فأسرع الشيخ منصور إلى الجامع القريب، وانطلقت موجة جديدة من الزغاريد، ودقت الدفوف وهاص الناس، وبحث بنظري أبحث عن حامد، فلمحته يقفز من فوق التمثال يجري إلى جدارياته يسجل الحدث، فانسحبت في هدوء وسط الزحام واتجهت إليه، فوجدت الجداريات تعكس تفاصيل الحدث من أوله حتى لحظة عقد القران، وفي الخلفية البعيدة ظهر وحش ذو ثلاثة رؤوس ينتظر أن ينقض على القرية الباحثة عن السعادة في أي فرصة، فقلت: "لزومه إيه الفجم في اللوحة؟"، دون أن يتوقف عن الرسم قال: "عشان موجود، بس لا بد في الضلمة"، وأشار بيده فوق رؤوس الناس عبر أنوار الكلوبات والساحة والنخيل والزروع، فنظرت مدققا حيث أشار، فرأيت شبحا أسود يتحرك في الظلام.. إنه الفجم.

12

ظل الفرح مقاما والدفوف تدق والأكف تصفق والغناء والزغاريد حتى صلاة الفجر، فقام جدي العريس بالكاد وصلى بالناس، ثم انتقل بعروسته إلى مقعديهما في الساحة، وقد ألقت خالتي سمسة رأسها على كتف جدي الذي أحاطها بذراعه، ورحنا نشهد جميعا عملية إيلاج الليل في النهار، وما إن تمت وكأنها صلاة أخرى، حتى انفض الناس ليناموا نهارهم حتى الظهيرة، لكنني لا أريد أن أنام، وبحث عن حامد فوجدته متجها إلى بيت عمي دهب، فقلت: "رايح فين؟"، قال: "حتغدى عند عمي دهب ما تيجي معايا"، قلت: "إشمعنى"، قال: "بتول عاملا لي أكلة كوارع"، فضحكت متذكرا فقلت: "إيه الحكاية؟ من إمتى بتخبي عليّ؟"، قال: "الظروف حكمت، أديك شايف". وأخذ يسترسل في تفاصيل كيف أحبها من يوم أنقاذاها له من البلهارسيا اللعينة التي تنهش في أحشائه،

"واليومين الي قضيتهم في بيتهم قربونا من بعض أكثر" وسرحت في تلك الحالة، فبتول ليست بالفتاة الجميلة على الإطلاق، بل هي أقرب للدمامة، فماذا رأى حامد فيها ليحبها؟ وهو ليس بالشاب الوسيم القوي فماذا رأت فيه؟ عجيب أنت أيها الحب!! وأفقت من سرحاني على تنهيدة حارة منه فقلت: "ومالك شایل طاجن ستك ليه؟ ما الحكاية ماشية زي الفل"، قال كمن يشكوهم ثقيل: "بتول عايزة تسورق"، يا قوة الله! "يا عيني يا ابني"، هكذا صحت بعفوية فنظر إليّ ضاحكا: "شفت الهم التقليل الي مضايقني.. مش بقولك عملالي كوارع".

"وهو جدي آدم أجدع منك؟"، هكذا ردت بتول الجبارة بضم محشو بالطعام حين حاول المسكين حامد أن يثنىها عن طلب المسورقة، فمنذ أن حمل جدي خالتي سمسمة حتى ذاعت موضة مسورقة السمان، وكان قبل ذلك يستحون من سمنتهم؛ فعود المرأة في قريتنا فارع كما عود القصب، لين كما الخيزران، رشيق دقيق إلا من بعض الاستثناءات مثل بتول الجبارة وبعض الفتيات اللاتي عفتهم الطبيعة من الجسم الريان، راحت بتول تطعم حامد في فمه وهو يزلط، فملت على عمي ذهب هامسا: "عندك مهضم أو ملين؟"، قال: "عندي، ليه؟"، قلت: "صاحبنا حيقع من عسر الهضم"، ضحك عمي وصاح منبها بتول: "بالراحة يا بتول مش كده، ده مش لاحق يعضغ"، لكن الجبارة لم تتوقف عن ترغيطة جائرة: "خليه يتقوى بدل ما هو مسفرت كده.. أمال حيشيلني إزاي؟".

بعد الغداء خرجنا إلى فناء الدار، وقد بدأ العصر يتلطف بنا، وشرع عمي ذهب في صنع القهوة ودار الحديث حول الفجم قال عمي: "هو اتولد قبل جدنا كاموس بسنين، أيام البيزنطيين، والبيزنطيين سلمونا للرومان، والرومان سلمونا للعرب، والعرب سلمونا للترك، والترك سلمونا للمماليك، اللي سلمونا للفرنساوية، وبعدهم الإنجليز، واللي يفرسك يا أخي إن كل واحد محتلك يقولك إنه جاي يخلصك من ظلم اللي قبله.. أنا مش فاهم كرم الأخلاق اللي نزل على دماغنا ده!"، قلت: "والفجم كان موجود طول الفترة دي؟"، قالت هجلة وهي ترشف الشاي: "الفجم لازم لوجودهم، لما تنسرق علومك وتنقل مدارسك وتنذل وتبقى عامل سخرة، لازمًا حتفتقر وتبقى جاهل فتمرض وتموت"، قلت: "بس إحنا مامتناش"، قالت: "إحنا مين؟"، قلت: "إحنا المصريين"، قالت: "ماتبصش لقريتنا ولا للنوبة كلها دول الحبة اللي عايشين، بص لباقي البلد، لا ده إحنا ولا دي عاداتنا ولا تقاليدنا ولا حتى لغتنا".

سرحت منبهراً بتلك الفتاة التي لم تتجاوز التاسعة عشر، وتحدث بهذا العلم الغزير! فتمتمت: "بسم الله ما شاء الله عليكم"، فانتفخت أوداج عمي ذهب زهواً بابتته، لكن قطع سلاسة الجلسة صوت شخير بتول التي غفت جالسة واضعة رأس حامد في حجرها وقد راحا في سبات عميق يعزفان دويتو شخير من مقام خا كبير، أكملت هجلة وعمي ذهب سلسال تاريخ الفجم من مولده حتى كبر وترعرع في ظل احتلال طويل تسبب في

فقر وجهل ومرض مصر، لم ينجو منه إلا مَنْ هاجروا بعلمهم وتاريخهم إلى الجنوب.. أقصى الجنوب، وسرحتْ منهم قليلاً متأملاً علاقة الأصول بالجنوب؟ أي جنوب في أي بلد تجده هو الأصول والعراقة والموروث الشعبي ومخزن التاريخ غير المكتوب "لحد ما جاء العرب"، عدت من سرحاني على هذه الجملة قلت كأني متابع: "أبوة الفتح الإسلامي"، شخر حامد شخرة استيقاظ، وقام معتدلاً داخلًا في الحديث ويصب لنفسه كوب شاي: "انت برضك بتسميه فتح إسلامي؟"، قلت: "خدناها كده في المدرسة عمرو بن العاص فتح مصر و..."، قاطعني حامد: "وهو الي جاي ينشر دين بيعي بجيش مسلح ولا بدعاة؟"، لأول مرة أنتبه لهذه المعلومة، فقد درسنا أن عمرو جاء بجيش قوامه أربعة آلاف مقاتل، لكن من باب المقابحة قلت: "بس الإسلام مانتشرش بحد السيف"، قال عمي ذهب مؤكداً: "ده حقيقي، الإسلام مانتشرش بحد السيف، وناس مصر فضلوا على دينهم بحرية أكثر من أيام الرومان، لكن المصيبة الكبيرة إن عمرو بن العاص خلى اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلد، فالناس اتعلمت العربي عشان تعرف تعيش وتتعامل مع نظام الحكم والحكومة، وياريتها رسيت على كده وبس، الناس حبت عمرو وجيشه لأنه جاه يخلصهم من الرومان، وحبوا الدين الإسلامي فابتدوا يؤمنوا بيه لأنه شبه دينهم، كان في مصر وقتها حوالي عشر تلاف يهودي، والمسيحيين كنا حوالي 10 % من السكان والأكثرية كانوا على الديانة الجبئية القديمة، ديانة التوحيد، لكن الناس

بطبيعتهم أخذوا الدين ومعاه العادات والتقاليد البدوية وفاكرينها إنها من الدين، هي دي الضربة الي ضربها لنا الفجم في مقتل"، قلت مستوضحا: "عادات وتقاليد إيه؟"، قالت هجلة: "التار مثلا"، فتفكرت في ردها فوجدته معقولا، فالأخذ بالتأثر منتشر في الصعيد، لكنه غير موجود عندنا، ولأول مرة أنتبه لحقيقة أعرفها منذ الصغر كما يعرفها كل أهل القرية، أننا لسنا صعايدة ولا علاقة لنا بالصعيد وناسه، ولا نحب أن نتشبه بهم، فهم ليسوا جبتيه، بل خليط من أمشاج مختلفة يغلب عليهم العرق العربي، فنحن ليس لدينا تلك الخشونة الصحراوية ولسنا غلاظا، ولسنا منغلقيين، ولا توجد لدينا تلك النزعة القبلية المنتشرة في الصعيد، فالجبتي انتمأؤه الوحيد لله والوطن الكبير مصر، وليس لدينا تفرقة بين الرجل والمرأة ولا نحتقرها ولا نسجنها ولا نوئدها، بل نجلها ونقدسها..

أفقت من خواطري على صوت بتول تتفض مفنجلة صائحة: "فيه مصيبة حصلت"، التفتنا إليها كلنا جزعين، فقامت مرهفة السمع، قال حامد: "في إيه يا.."، أسكتته بإشارة من يدها وقد راحت تتشمم الهواء، وقد استنفرت كل قرون استشعارها، ثم قالت: "سامعين؟"، أطرقنا السمع فلم نسمع شيئا في البداية، لكن مع التركيز الشديد بدأ صوت صويت متقطع يصل آذاننا، بدأ ضعيفا وراح يقوى مع اتساع موجته وكثرة ناقله، لم يكن صويت فجيعه ولا مصاب، بل صوات تحذيري، والصوات التحذيري متقطع سريع يخرج من اللغد وليس من الصدر؛ "يبي يبي يبي"، وكان عمي

ذهب أول الواقفين مردداً طارداً خوفه وخوفنا: "إن سرت في الوادي..
وادي ظلال الموت، فلا أخاف أبداً.. أنت معي بدوت".

13

خرجنا مندفعين نحو مركز الصوت، ونحن نأمل أن يكون مجرد تحذير مبالغ فيه أو بلاغ كاذب، لكن خروج باقي الدور في اتجاه وسط القرية ألغى ذلك الأمل، وما إن انعطفنا وأصبحت منازل وسط القرية واضحة على مرمى البصر، حتى جمدنا من هول ما رأينا، فقد رأينا برج الجبئية أعلى برج في القرية وقد مال حوالي 40 درجة على جانبه الأيسر، ولولا أنه استند على برج المراغنة القريب منه لأكمل ميله وسقط كلوح العجين، صاحت بتول: "انتو حتنكو مبحلين كده؟ ماتهمو"، أفقنا من ذهولنا، وبدأنا نعدو نحو البرج المائل، وقد وضع صريخ واستغاثة الناس، اخترقت الزحام الشديد وقلبي يسبقني أريد الاطمئنان على أبي وأمي وبقية العائلة خاصة جدي القاطن بالدور الأخير، وحين وصلت لمركز الحدث كان الناس يخرجون أعمامي وزوجاتهم وأولادهم من النوافذ والبلكونات التي صارت مواجهة

للأرض، مستخدمين السلام الخشبية والحبال وكل ما يصلح لحمل ونقل السكان عبر أي فتحة، وصرخت سائلا: "أبويا وأمي أين؟"، جاءني صوتها من خلفي مناديا باكيا: "جاد"، التفت فوجدت أُمي وأبي يجلسان على الأرض بجوار حائط، فارتميت عليهما أحتضنهما معا وأبللهما بدموع فرحة النجاة: "إيه اللي حصل؟"، وقبل أن تجيب سمعنا صوت قرقة تصك الأذان، وزعق زاعق: "ابعدو العمارة بتقع"، لم يحتج الأمر لترديد المعلومة؛ إذ وجدتني أحمل أُمي على كتفي وأمسك بذراع أبي وهرعنا مبتعدين إلى أقصى مسافة ممكنة، وصوت القرقة يتكرر أضخم من سابقه، وعلى مسافة أكثر من مائتي متر وضعت حملي، والتفت فرأيت الرجال والشبان يحملون من طالتهم أيديهم مبتعدين بهم ليلقوهم في الأمان ويعودون فعدت مع العائدين، ورحلت أحمل أطفالاً وعجائز وشيوخاً في رحلات مكوكية اشترك فيها كل قادر، ووسط الزحام المجنون رأيت حامد بساقيه المعروقتين يحمل أربعة أطفال باكين وخلفه بتول تحمل عجوزاً مشلولة وزوجها وأربعة أطفال وتعدو بهم كما الجمل، ألقيت ما معي وعدوت إلى حامد صارخا: "جدي يا حامد"، دون تردد انطلق داخلا العمارة التي زاد ميلها فكسرت قوائم برج المراغنة وهو يصيح: "خليك انت أنا أخف منك"، واختفى داخل المبنى، وما إن اختفى، حتى تحولت القرقة إلى قرقة حديد أساس ينخلع من مكانه، فصرخت: "حامد"، لكن صرختي ضاعت في صوت السقوط المدوي للعمارة بكاملها آخذة معها جزءاً كبيراً من برج المراغنة، زلزلت الأرض تحت أقدامنا وسحابة غبار إسمنتية تنفجر في وجوهنا رغم المسافة البعيدة

فتعمي الأبصار، وكتمنا الأنفاس غير مصدقين هول الفاجعة.. "حامد.. جدي.. خالتي"، وكتمت هجلة صرخة صغيرة بيدها على فمها مرددة اسم أختها: "بتول"، هممت أن أتحرك مخترقا الغيمة البيضاء لكن يد عمي ذهب أوقفني بقوة فولاذية: "أربعة راحوا مش لازم يبقوا خمسة".

مرت الدقائق والثواني ثقيلة ونحن نرقب سحابة الغبار التي ظلت تتصاعد وتكبر، وأصوات انهيارات فرعية تأتي من داخلها، وقد حط علينا سهم الله بما يتناسب مع حجم المصاب جدي وخالتي سمسة وحامد وبتول، ما أعجب اختيارات القدر، اللهم لا راد لقضائك ولا اعتراض، وسقطت جالسا واضعا رأسي بين كفي متمنيا أن يغمى عليّ أو أموت، ما هذا الألم؟ ولماذا هؤلاء الأربعة في ضربة واحدة؟ ما الدرس؟ ما الحكمة؟ ألا أنهم أحبوا؟ ألا أنهم مخلصون أنقياء ففضلتهم بجوارك قبل أن يلوثوا؟ أنا أعلم أنه لا عشوائية في تصاريك، لكني لا أفهم "ليه دول بالذات؟"، خرج السؤال غصبا عني، فسمعه عمي ذهب فقال: "الفجم أكلهم.. ملعون"، ونظرت إلى الرجل الذي خسر ابنته تواء، فرأيت وجهًا أقوى من الزمن، أقوى من الصخر الصوان، أي إيمان يعمر قلبه! أي روح تملكته ليصبر ويحتسب؟ كنا جميعا جلوسًا إلا هو وهجلة، ظلا واقفين شاخصين إلى السحابة التي بدأت تهبط، واختفت أصوات القرقعات، وبدأ أن الأمر استقر داخل السحابة، لكن لم يقوَ أحد أن يقترب ليستطلع الأمر، خاصة أن برج المراغنة صار مهددا بالسقوط في أي لحظة، فرحنا نرقب السحابة وهي تهبط حتى صارت على ارتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار فقط، وإذا بخيال شبح ظل شيء

يتحرك وسط السحابة، فقامت واقفا مدققا، ولم أكن بمفردي الذي رأى، فقد قام معي بعض الرجال، وتبادلنا نظرات سريعة نؤكد لبعضنا البعض أن ما رأيناه حقيقة، ومررت ثوان ثقيلة حتى رأينا بتول الجبارة تحمل حامد المسلوع على ذراعها خارجة به من وسط السحابة القاتلة وقد غطاها الغبار الإسمنتي، فصارا في بياض حائط مدهون حديثا، أسرعت هجلة وخلفها الرجال يحملون عنها حامد الذي نظر إليّ من تحت رموشه البيضاء: "جدك مش في البيت"، ضحكت وضحكت وبكيت واحتضنته واحتضنت بتول وهجلة وعمي ذهب الذي انهارت قوته وبكى بدموع حارة وسقط جالسا لأول مرة منذ بداية الأزمة وهو يتمتم ترانيم الشكر راسما الصليب، لكن جدي الوسيط قال "دورت عليهم كويس يا حامد؟"، قال حامد بعد أن جرع كوز الماء الذي في يده: "وصلت شقته بالعافية، دخلت من خرم في حيلة، قعدت أنادي عليه وعلى خالتي سمسة، لكن ماحدث رد، قلت يمكن منصابين، قعدت افتش تحت الحجارة لكن البيت اتطريق فوق دماغني، عامود مال فوقني كان حيفطسني، شوية ولقيت بتول رفعته بإيد وشدتني بالتانية، قعدنا ندور، لكن الغبار كان ثقيل ومش شايفين حاجة، بعديا جاه الوقوع الثاني فبقينا لا عارفين ندور ولا نخرج، لولا بتول ضربت الحيلة بكتفها جابتها أرض وشالتي وخرجنا"، صاح أبي: "يعني مش متأكدين إن كان جدي جوه ولا لأ"، كلام معقول طبعاً، فما حكاها حامد لا يقطع بعدم وجود جدي وخالتي سمسة، فكان القرار بأن يبدأ البحث من جديد، وتطوع الجميع للمساهمة في البحث.

انطلقت الفرقة الأولى والثانية تتكون كل منهما من خمسة صبية، كانت مهمتهم جمع صغار الحجر وفتات الإسمنت وتكويمه بعيدا عن الخطام، يتلوهم الفرقتان الثالثة والرابعة يكملون المهمة، تكون الفرق الأولى قد استراحت فتعود لتكمل العمل، وفي خلال ساعتين كان الطريق ممهدًا لسلاح المهندسين، وهم فرقتان من الشباب الماهرين، أقامو الأوناش والروافع الهرمية بعروق الخشب على خط مستقيم من الخطام الكبير إلى مكان التشوين، وما إن انتهوا، حتى بدأت قوات العضلات من الشباب بتحميل الكتل الإسمنتية الكبيرة تعلقها في الروافع بالخيال، وبدأت الكتل تنتقل معلقة من رافعة إلى الأخرى كتلفريك صغير حتى تصل إلى مكان التشوين، وهكذا دواليك حتى نقلنا أنقاض العمارة بالكامل، وقد شارفت الشمس على المغيب، وقد تولت بتول وهجلة قيادة سلاح التمريض وتطبيب الجروح، كما قادت خالتي نجية وأمي سلاح التموين والغذاء، فكلفت كل امرأة بنصيبها في الطهي للجنود، وتوزعت البنات الصبايا بين السقاية وإطعام الفرق العاملة، ومع مقدم الليل بدأت فرق الإنارة من حاملي الكلوبات والمشاعل تضيء الطريق أمام فرق البحث والتنقيب، لم نترك حجرًا أو طوبة أو دبشة أو صخرة إلا وقلبناها لكن لا أثر لجدي وخالتي سمسة! ومع انتصاف الليل كنا قد تأكدنا من خلو المكان من أي أثر لهما، فأصابنا ارتياح.

كان ارتياحنا مصحوبًا بقلق وتساؤل، أين هما؟ هنا تدخل حكماء وكبار القرية بقيادة عمي ذهب بإنهاء عملية البحث، وتأجيل التساؤل حتى الغد،

وكان هذا هو القرار الأمثل خاصة أن الإنهاك والنصب قد نالنا منا كل منال، فحططنا في أماكننا، نامت القرية كلها في العراء حتى أصحاب الدور السليمة، ليس فقط تعباً وإرهاقاً، بل أيضاً مشاركة منهم لسكان برج الجبتيّة وبرج المراغنة.. أين أنت يا جدي؟ ظل هذا السؤال يراود عقلي المنهك وجهازي العصبي المحطم وأنا مستلقٍ على ظهري عاقداً يديّ خلف رأسي مواجهاً صفحة السماء السوداء تتحلى بجواهرها النجمية، وبحث عن نجمة الجنوب، نجمة جدي، كانت تقف في مكانها الأبدي يحيطها فراغ خاص بها فبدت أكبر وأميز، أتراك تعرفين مستقره؟ أتراك تريه فتخبريه عن قلوب هلعت وأرواح ضنيت قلقاً عليه، وسرحت عيناى الكليلتان في تلاؤلؤ النجمة العتيّدة، كانت تخبرني عن مكان جدي، لكنني كنت منهكا لدرجة لم أسمع حديثها، فأسلمت نفسي لسلطان النوم.

استيقظت القرية على صوت ديوك الفجر، فأسرع الشيخ منصور برفع الأذان وصليت بنصف عقلي، ووقف الشيخ منصور خاطباً في الناس حامداً الله على عدم وجود خسائر في الأرواح، وفسر ما حدث بأنه غضب من الله؛ لأننا بعدنا عن الصراط المستقيم، لكنه لم يقل بعدنا إلى أين؟ واكتفي بأن يذكرنا بأن أي مصيبة تحمل علينا فهي غضب من الله! ما علاقة غضب الله بسقوط عمارة بنيت بلا أساسات؟ وتذكرت كلمة عمي ذهب حين ادعى أن الفجم أكلهم الملعون! أي هراء يلجأ إليه الكبار ليجدوا تفسيراً لما يحدث! ومتى اختلطت الخرافة بالدين؟ وإذا كان المستعمر هو الذي خلق الفجم ليقضي علينا، فما هو المستعمر قد رحل، فمن يرفع الفجم؟

وأفقت من تساؤلاتي البيزنطية على بتول الجبارة التي كانت تسير تدب الأرض بقدمين مفلطحتين لا يفوقهما كبر إلا قلبها العامر بالخير وحب الناس خاصة حامد، ولمحته يسير بجوارها محزوناً مهموماً، فدنوت منه سائلاً: "مالك يا وله؟"، تأخر قليلاً حتى لا تسمعه وهمس: "بتول متضايقة، زعلانة إكمن البرج وقع فمش حتسورق".

اجتمع أهل القرية يتباحثون فيما يفعلون في حياتهم، ولأول مرة، أكتشف أن قرينتنا جسم وجدي الكبير رأسه، لأول مرة ألس مكانة جدي الفعلية وليس المعنوية، فقد كان من برجه العالي يصرف أمور القرية بهدوء ودون أن يشعر أحد، كان يضع المبدأ وعلى الناس تفسيره واتباعه بما يتناسب مع ظروفهم، فمن يريد الزواج ولا يملك المال كان جدي يتكفل به، ومن يريد سكناً أو أرض يزرعها أو ماشية يربيها، كان جدي يسد ويمد ولا يعد، ولا عجب فجدي هو صاحب الأرض، والقرية كلها أولاده وأحفاده، فما له هو مالهم وإرثهم، ولا يقتصر الأمر على المال والأرض، بل الحكمة والتعاليم والتعليمات والتوجيهات اليومية التي كان يمررها لأولاده اللذين ينقلونها إلى الأحفاد وأحفاد الأحفاد كان هو المنبع والمصدر.. أين أنت يا جدي؟ لم يكن هذا سؤالاً، بل سؤال الناس جميعاً، ولفنا شعور واحد باليتم، ومر اليوم حزينا، فأهملت الحقول، وتوقفت الأعمال وجهدت الأحوال، فصمتت الأفواه وحارت الأعين وكثرت الصلوات والدعوات بعودة الغائبين.

14

مر أسبوع قبل أن ينبري الشيخ منصور مخاطبا الناس: "أيها الناس، إن كانت إرادة الله أن يخفي عنا سر جدنا الكبير، فإن إرادته تأمرنا أن تستمر الحياة، فإن عاد الغائب فما خسرنا شيئاً، ولكن حتى يعود علينا أن نعمل". قال قائل: "نحنعمل إزاي من غير راس يا شيخنا؟"، قال في ثقة: "العمل عمل ربنا، والرزق رزق ربنا، ارجعوا الغيطان ازرعوا واقلعوا، الورش والمحلات والأفران تشتغل". صاح صاحب محل: "أجيب بضاعة إيه؟ جدي الكبير هو الي كان عارف البلد محتاجة إيه فيقول أجيها"، وقال زارع: "وأنا أزرع إيه؟ جدي الكبير هو الي كان عارف البلد محتاجة إيه فازرعه". نظر إليهم مبتسماً في سخرية: "بالزمة مش مكسوفين من روحكو؟ ما حدش عارف يعمل إيه! هو الي خلق جدنا الكبير ما خلقش غيره؟". أي جراءة وأي تطاول؟ هب جدي الوسيط زاعقا: "حافظ على كلامك

يا سيدنا". في دبلو ماسية ودهاء تراجع الرجل بسرعة، واختفت لكنة السخرية من كلامه، وحل محلها لهجة الوعظ: "أنا قصدي لغاية ما يرجع جدنا الكبير نصر ف أمورنا بنفسنا"، قالت خالتي نجية: "دبرنا إزاي؟"، قال: "نحط لنا راس"، ثم مستدركا: "ولو موقت". تبادل الناس النظرات، وبدأ الانقسام بين مؤيد ومتشكك وحائر ورافض، ومن مكانه في الركن القصي للساحة خرج عمي ذهب عن صمته سائلا: "وتفتكر مين ينفع يا شيخ منصور؟"، شعرت أن وراء السؤال فخا، فأنا لا أتوه عن ذكاء عمي ذهب، فقد استشعر كما استشعرت أنا أن وراء خطبة الرجل غاية وهدفاً، والشيخ منصور ليس جبتيا لكنه وفد إلينا من سوهاج بتكليف من وزارة الأوقاف كحارس للجامع منذ سنوات طوال عاش معنا فصار مننا وعلينا وتطور به الأمر بعد وفاة الشيخ عثمان إمام الجامع النبوي، أصبح هو إمام القرية وشيخها والقللة المتعلمة منا تأخذ عليه هفواته وسقطاته وغلطاته وخرافاته التي ينشرها بين بسطاء الناس في خطب الجمعة، لكننا تعودنا أن نحترم ونبجل رجال الدين كما كان أجدادنا يبجلون كهنة آمون.. وأفقت من سر حاني على صوت الشيخ منصور يقول: "خلاص يبقى نعمل انتخابات"، ورأيت الفجم يطل من عل، يفرد جناحيه الخفاشين ليظلل الشيخ منصور من أشعة شمس الضحى كأنه يراعه.. أم ترى الشيخ هو الذي يراعى الفجم؟

تقدم الشيخ منصور مرشحا نفسه! مؤكدا أنه لا يسعى إليها إلا لصالح الناس ولوجه الله تعالى ومن دون مقابل، فغمغم البسطاء كلمات من نوع

الله يفتح عليك، والله يجازيك عنا خير، وربنا يخليك لنا يا شيخنا، كان هذا مؤشراً واضحاً لنوايا الشيخ منصور، وكانت الحركة مفاجأة، فالتف المعمرون والجبتية حول عمي ذهب يدفعون به كمرشح منافس، والحق يقال إن الرجل ترفع وأبى في البداية، لكن تحت إلحاحنا وإصرارنا: "ما هو مش معقول نسيب راجل جاهل مخرف زي ده يحكم البلد"، هكذا صغنا حجتنا حتى وافق، وتم الاتفاق على مهلة أسبوع لكل مرشح أن يضع برنامجه الانتخابي ليتم مناقشته فيه، ثم التصويت عليه في مؤتمر عام لكل سكان القرية.

جندت نفسي لخدمة حزب الجبتية، وعقدنا أول اجتماع لنا في دار عمي ذهب، كان اجتماعاً موسعاً تم فيه انتخاب اللجنة المركزية للحزب وتكونت من ممثلين للأطراف الموجودة، وهم عمي ذهب رئيساً وممثلاً للمعمرين وكبار السن، ثم جدي الوسيط نائباً للرئيس وممثلاً عن الجبتية، ثم عمي ميرغني ممثلاً عن المراغنة، وعمي حجاج ممثلاً عن الحجاجية، وأنا ممثلاً عن الشباب.

في الصباح الباكر اجتمعنا مجدداً بعد الإفطار، وكان السؤال الأول الذي طرحه عمي ذهب: "إحنا عددنا كام؟"، انبرى أبي مجيباً: "كنت سمعت جدي الكبير يقول إن إحنا داخلين على ربع مليون تقريباً"، قال عمي ذهب: "مش عايز تقريبا، عايز أعرف العدد بالظبط"، صاح عمي حجاج: "بسيطة، نقسم البلد مربعات، والشباب ينزلوا يعدوا الناس"، سألت خالتي نجية:

"وحيفيد بإيه؟"، قال عمي دهب: "لجل ما نعرف إحنا محتاجين نزرع إيه ونجيب إيه"، ثم ملتفتا إلى الشباب سائلا: "مين فيكو عنده كمبيوتر؟"، أجبنا جميعا بالإيجاب، فقال: "اعملوا نظام يبين العدد، كام راجل وكام ست وكام عيل، مين قادر على العمل، مين بيعول ومتزوج ومين عازب.. كل ما عرفنا عن روحنا، كل ما البرنامج كان أوضح"، وكجندي قمت أنفذ المهمة، وكلفت مجموعات الشباب بمهام محددة، كلاً في منطقة، فانطلقوا مليون، واستمر الاجتماع حتى صلاة الظهر، تطرقنا إلى سبل جذب مؤيدين لنا، وما المنافع التي نستطيع الوفاء بها للناس، ورفض عمي دهب اقتراحاً بضرب الخصم وكشف عيوبه، وقبيل الانتهاء من الاجتماع ظهر حامد صائحا: "جبتلكم الخبر اليقين"، وقبل أن يتكلم وضعت بتول نايه من الطعام الذي حاشته له سائلة في رقة: "كنت مخفي فين؟"، فحكى كيف اندس وسط صفوف الدهماء من أنصار الشيخ منصور، وكيف لبد وراء عامود الجامع الذي اتخذ الشيخ مقرا لاجتماعاته، قاطعه جدي الصغير: "وهو ينفع بيوت الله تشتغل في السياسة؟"، أسكته عمي دهب بإشارة تمهل من يده فأكمل حامد: "الراجل داخل عليهم بالخنجل والمنجل ومصورهم الحكاية حرب إسلامية، حرب بين العلمانيين الكفرة وربنا أستغفر الله العظيم، وفهمهم إن الي حينضم لنا يبقى كافر زينا، والي ينضم له يبقى بتاع ربنا والحق"، لاحظت أن حامد يتحاشى النظر لعمي دهب "ماعملش لجنة لحزبه؟"، سأله عمي ميرغني، فأشاح بيده وفمه مملوء: "لجنة مين يا عمي هو اللجنة وهو الحزب وهو الكل كليلة"، قال ابي: "ما تكلموش

عن البرنامج الانتخابي؟"، بلع حامد ما في فمه بجرعة ماء، وقال: "يا عم آدم الله يرضى عليك، هود ده بتاع برنامج وكلام من ده، هو عمال يقول الخير حيعم لو التزمنا بحبل الله، وإن ربنا لا يضيع أجر من أحسن عملا، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.. حرب مش برنامج". هزنا رؤوسنا وقد تكشف لنا أسلوب الخصم الوضع، فاجأه عمي ذهب سائلا: "ما جابش سيرتي؟"، ارتج على حامد لكنه تماسك: "لا.. لا ما يقدرش"، وكان حامد يكذب.

لم أستطع الانفراد بحامد إلا بعد منتصف الليل ونحن نتوجه لننام، وقد انقضى اليوم وجزء من الليل في مداولات ومناقشات وجمع بيانات وإحصاءات وطرح أفكار، وما إن انفردت بالواد حامد، حتى أقر بحقيقة كذبه المفصوح فقال: "يعني عايزني أجرح الرجل! لا أنا قلبي ماجانبش فكذبت"، قلت هامسا: "قال إيه؟"، خفض صوته لتحت الهمس ملقيا عبئا ثقيلا يخلص منه: "قال إننا ولينا أمورنا لكافر"، وسكت، قلت: "والناس عملوا إيه؟"، قال: "الصراحة الناس اتخضت من كلامه، شوية منهم قاموا مشيوا بيير طموا: الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، قام ابن اللثيمة قال إنه بيحب عمي ذهب، لكن فيه أمور مش حيعرف يتعامل معاها"، قلت: "أمور إيه؟"، قال: "الزكاة والصدقات وصندوق النذور والجواز والطلاق والمواريث لازم اللي يتولى البلد مسلم"، أسندت ظهري على جزع النخلة مجاورا لحامد ولقنا صمت ثقيل، فسر حنا في السماء باحثين عن نجمة الجنوب، لكن سحابة سوداء مرت راسمة شكل الفجعم يطل علينا برأس الجهل مخفيا النجمة.

بعد صلاة الفجر والإفطار اجتمع بنا عمي ذهب نكمل برنامجنا، وفقا لما توفر لدينا من معلومات ناقصة حتى الآن، وقضيت النهار أفرغ البيانات على اللاب توب وأصنفها وأبويبها، كنت أجلس في قاعة القرن القديم، وقد سرحت في هذا التناقض المضحك لمنظر الكمبيوتر قمة التكنولوجيا بجوار قمة البدائية من حطب وفحم، ما أبعد المسافة بينهما! وقطع الاجتماع عودة الشباب من عملية جرد السكان مبكرين، وقد تملكهم فزع وحيرة، إذ إن الشيخ منصور وأعوانه أقنعوا الناس أن عمي ذهب يعمل لهم عملاً سفلياً، من أجل هذا هو يجمع بياناتهم، ويريد أن يعرف كم فرد في كل بيت وكم طفل وطفلة، وصرخ الشيخ منصور متألماً باكياً: "خافوا على عيالكو"، فخاف الناس من الحسد والعين وشر المستخبي، وأغلقوا الأبواب في وجه الشباب، بل وتناول البعض عليهم بالسباب، ووصل ببعضهم إلى محاولة الاعتداء.

تلقى عمي ذهب التقارير وقرر المواجهة، فأرسل جدي الصغير بطلب عقد مناظرة الليلة السابقة للانتخابات أي بعد يومين، قضيناها في مقابلات واجتماعات مع الناس، وجولات لقاء مباشر وسماع الآراء، وقد نجح عمي ذهب في اجتذاب عدد لا بأس به من هؤلاء المترددين الحائرين بين الكفتين، وعلى الجانب الآخر صعد الشيخ منصور نبرة الكلام، واعد بالجنة الموعودة للمجاهدين المعدمين والغلبة والمساكين اللذين من أجلهم خلق الله الأرض والسموات، لقد فتح الرجل باباً من أبواب جهنم حين أدخل في عقولهم أن الأرض أرض الله وليست أرض جدي الكبير، والمال مال الله

وليس مال الجبتي ولا المراغنة ولا الحجاجية، وأنه حين يقود البلد سعيد
توزيع الأرزاق بشرع الله وحقه، فنام الناس في حضنه وأسلموا له زمامهم
وباعوه قائدا وزعيما ومخلصا من الظلم، وبات كل رجل يحلم بالأرض
التي سيمتلكها يزرع نصفها ويبنى لنفسه برجا، وباتت النسوة تحلم بالراحة
والبغدة، والبنات يحلمن بالعريس الثري والشباب يحور العين ومن تحلو
لهم من بنات البلد مثنى وثلاثا ورباعا، وفي خضم الأحلام والنوايا السيئة
والانشغال بالانتخابات أهملت الحقول وغلقت المحال والورش والأفران،
وبدأت مؤن القرية تعاني من نقص في الدقيق والسكر والأرز والخضروات
والسمن والزيت، فلم تحصد المحاصيل فأكلتها الغربان التي تكاثرت
بشكل غير مسبوق في الغيطان التي لم تُرَو منذ أكثر من أسبوعين فجفت
وماتت وتعفن ما نضج منها، وحين لجأوا إلى الشيخ منصور لينجدهم،
كسر صندوق النذور بالجامع وأخرج من تحت البلاطة ما كان يدخره، ولم
ينس إسهاد الشهود على تضحيته، وأرسل وفداً إلى القرى المجاورة لشراء
ما يلزم أنصاره من طعام، وفي اليوم التالي وقف بنفسه يوزع زجاجات
الزيت وكراتين البيض وأكياس الأرز والسكر على الناس الداعين له بطولة
العمر والنصر على الكفرة، ومع كل دعوة قبله على يده الكريمة التي كان
يسحبها مستغفرا، لكن ليست سحبة كاملة بحيث يعطي لشاركه الفرصة
للتعبير عن امتنانه.

توجهنا بعد منتصف الليل إلى دار عمي ذهب بعد جولة انتخابية ناجحة،
كنا أنا وحامد وهجلة وبتول وبعض الشباب نسير يملؤنا الأمل، وإذا

بالأرض تهتز تحت أقدامنا، فتلفتنا مدعورين.. أزلزال؟ لكن ظل ثقيل غطى نور القمر وصحبت مروره ربيع عاتية، هبت أطفأت الكلوبات في أيدينا فبتنا في ظلام دامس، وفي الظلام يكمن الخطر، وصوت فحيح سمعناه ورائحة نفاذة منفرة أعرفها من قبل تزكم أنوفنا، وصاحت هجلة: "أف إيه ده؟"، في صوت واحد قلت أنا وحامد: "الفجم".

لم يكن خيالاً ولا حلماً ولا تهوئات، لقد صار ملموساً جلياً، بدليل أني لا أراه وأشعره بمفردي، صرخت زاعقاً: "اعملو دائرة"، فصنع الشباب دائرة مغلقة، ووجوههم للخارج وفي القلب كانت بتول وهجلة، لم نكن مسلحين ولا نحمل في أيدينا إلا أجهزة اللاب توب وأقلاماً جافة، هجم علينا هجمة يقيس بها قوتنا، فهي المرة الأولى له يهاجم مجموعة، صرخ شاب زاعقاً: "حطوا اللي في إيديكو واستخدمو الأقلام خناجر"، وفي لمح البصر أخرج كل منا ما معه من أقلاماً ووزعناها على بعضنا البعض، وتأهبنا لهجمته التالية، فاجأنا اللعين بهجوم ثلاثي برؤوسه الثلاثة دفعة واحدة، فعملت أقلامنا طعنا وغزا في رؤوسه وأعينه وآذانه ورقبته، طعنات صغيرة لكن متوالية متتابعة سريعة متلاحقة، ولم نتخيل أن تلك الطعنات تؤثر هذا التأثير في هذا الوحش، فراح يئن متوجعاً، فرادنا ذلك حماساً وقوة، فتسارعت ضرباتنا كمدافع رشاشة ترشق الرؤوس والأعناق بوابل من الطعنات حتى غطى الدم أعينه وسال من رقبته فانسحب مهزوماً مدحوراً، ظللنا على وضع الدائرة بضع دقائق حتى نتأكد أنه غار وحين اطمأننا وعاد القمر يضيء الظلام، أشعلنا الكلوبات وأكملنا سيرنا حذرين حتى دار عمي دهب.

ما إن دخلنا، حتى توقفنا مشدوهين، إذ إن البيت كان حطامًا، الأبواب مغلقة والشبابيك مكسرة والكلوبات محطمة والمفروشات مبعثرة وقد التف الناس حول عمي ذهب يواسونه في مصابه الكبير.. المعمل الذي تحول إلى حطام وتبعثرت الزجاجات والقوارير والسحاحات محطمة، وتمزقت أوراق قضى فيها سنين عمره، وما إن رأنا، حتى هب محتضنا حفيدتيه سعيدا بسلامتنا، ولم يحتج الأمر إلى ذكاء لنعرف أن الفجم هاجمهم كما هاجمنا، ومن دون أوامر أو توجيهات بدأنا نعيد ترتيب وإصلاح وإزالة آثار العدوان، وفي إيمانه المعهود قال عمي ذهب بوجه بشوش: "طول ما احنا طيبين، كل شيء يتعوض". ومع آذان الفجر كنا قد أعدنا البيت إلى ما كان عليه تقريبا.

15

توجهنا مبكرين لنشهد عملية إيلاج النهار في الليل، كم أفتقدك يا جدي.. وصلينا المغرب في الساحة، وما إن انتهى الشيخ منصور من الصلاة في الجامع حتى حضر في لفيف غفير من الأتباع، يكادون يكنسون الطريق أمامه بألستهم، اتخذ عمي ذهب جانب المنصة، واتخذ الشيخ منصور الجانب الآخر مبادرا بالكلام: "يعلم الله أني لا أريد مصلحة، وليس لي منفعة وراء هذا الترشح، فهي مسؤولية لو تعلمون عظيمة، عايز أقف قدام ربنا وأقوله إني أقيمت العدل وأفشيت السلام ونشرت السلام والخير بين الناس، وعشان.."، قاطعه عمي ذهب: "إحنا جايين نعمل مناظرة مش خطب يا مولانا"، قال ساخرا: "والله كويس إنك معترف إني مولاك"، لقد بدأ الوغد الهجوم، فقال عمي متجاوزا التفاهات: "تجبتندي تسأل ولا أسأل أنا؟"، قال الشيخ: "عايز أسألك إنت رشحت روحك ليه؟"،

قال عمي: "أنا مارشحتش نفسي، الناس هي الي رشحتني، بس خليني أسألك ما معنى كلمة أرشح؟"، تلجلج قليلا قبل أن يجيب: "يعني انتقي وأصفي"، قال عمي: "طب بالذمة ينفع حد يصفي نفسه؟ يتتقي روحه؟"، كانت ضربة موفقة من عمي لاقت استحسان الناس، حتى من بعض أنصار الشيخ، لكن اللعين هرب صائحا مشوحا بيده: "إحنا جايين ناخذ دروس عربي! خلينا في صلب الموضوع"، قال عمي: "الي هو إيه؟"، قال الشيخ: "الانتخابات الديموقراطية".

ابتسم عمي كأنه أوقع خصمه في فخ، فأسرع سائلا: "انت تعرف إيه عن الديموقراطية؟"، ارتج عليه القول وقال متلجلجا: "يعني اننا نختار الي يحكمونا، الي يراعو ربنا فينا"، قال عمي: "يعني الناس تختار الي يقودهم؟ لفين؟"، قال: "لي فيه الصالح"، "والصالح ده من وجهة نظر مين؟"، "الي تشوفه الناس.. الأغلبية"، قال عمي: "يعني لو ألف شافو إننا نزرع قطن في موسم القمح، وواحد بس قال ماينفعش يبقى الألف معاهم حق؟"، الله عليك يا عمي، زنقه وكعادته خرج من المأزق بصراخه زاعقا: "ربنا ادانا عقل نميز بيه وماحدش حيقول نزرع قطن بدل القمح، وبعدين انت واخدنا في سكك مالهش لازمة ليه، بتوهنا وراك عشان ما تواجهش الحقيقة"، قال عمي: "أنهي حقيقة؟"، في قحة صاح الشيخ: "ماينفعش نصراني يحكم مسلمين"، هنا جمدت الساحة، فقد ألقى الرجل ما كتم في الصدور وأشفق الناس على أنفسهم منه، لعن الله مَن أيقظها، لكن عمي ابتسم قائلا: "وإيه علاقة الإدارة والتخطيط بالدين؟".

كأن الرجل لدغته عقربة، صاح صارخا رافعا يديه مواجهها الناس: "سامعين، الكفر طلع من بقه، شاهدين يقول إيه؟"، ثم ملتفتا إلى عمي ذهب: "الدين في كل حاجة يا مقدس"، قال كلمة مقدس بنبرة خاصة، ثم التفت للناس صارخا: "عايزنا نبعد عن ربنا عايزنا ننسى ربنا"، ثم زعق حتى انشخ صوته مولولا: "لأااااا وألف لا.. الله موجود في كل شيء، الله القيوم القادر المدبر"، وبدأ يبكي في حرقة: "عايزين تتحكموا بعيد عن شرع الله؟ عايزين الكفر يتفشى؟ عايزين إدارة علمانية تفصل الدولة عن الدين؟"، كان يلقي السؤال ويتنظر همهمات الإجابة الصاعدة من صدور البسطاء السذج الجهلة، نجح اللعين في استمالتهم ناحيته وهو لا يدري أي باب من أبواب جهنم فتح، ولا بأي رأس من رؤوس الفجم عقر، إنها رأس الجهل، وبعد انحسار موجة الدروشة التي أشعلها الشيخ قال عمي في هدوء: "خلصت؟"، قال اللعين: "هات ما عندك فيأذن الله حجتك مردودة"، ضحك عمي سائلا: "ألا كلمة ديموقراطية معناها إيه؟"، فقال الشيخ: "إحنا مش جايين ناخذ درس في الإنجليزية"، فضحك العامة والغوغاء وقال عمي: "طب نشأت إمتى وفين؟"، قال الشيخ: "علم لا ينفع وجهل لا يضر"، قال عمي: "يعني انت مؤمن بمبدأ لا انت عارف معناه ولا أصله ولا فصله؟" عاد الشيخ إلى أسلوب الدروشة لكن عمي قاطعه: "قولي يا شيخ منصور، عندكو في الإسلام حاصل ضرب اتنين في اتنين بكام؟"، قال: "أربعة"، قال عمي: "واحنا كمان عندنا في المسيحية نفس النتيجة"، صاح الشيخ: "وإيه دخل الدين في الحساب؟"، هنا ضحك عمي

عاليا: "ما هو ده اللي بقوله"، لم يتوقع الشيخ تلك الضربة، فامتصها منهياً المناظرة: "عموما الصناديق بيننا"، وترك الساحة وخلفه الرعاع والغاغة والسوقة والدهماء من البسطاء المخدوعين.. بات من الواضح أن كفتي الميزان متعادلتان تقريبا، إذ نجحت المناظرة في اكتساب بعض الوسطيين من البسطاء المستنيرين ليقربوا الفجوة بين حزب الجبئية الأصليين وحزب التقوى والإيمان.

كان الحضور في الساحة مخيفاً، فرغم تعودنا للهمة والزحام والاجتماعات الضخمة، لكن لمة اليوم ليست لمة، بل دعوة للفرقة، جئنا لنختلف! فرقة صامته تضعها في ورقة مطوية لتلقيها في صندوق مغلق، كأنك تخاف أن يطلع على رأيك أحد حتى لا تتهم بتحيزك مع طرف! عجيبة تلك الخدعة المدعوة بالديموقراطية! كلما تأملت فيها أجدها مليئة بالتناقضات، ونظرا لأن نسبة الأمية في قريتنا تتعدى 90% فقد اتفق على أن لكل مرشح صندوقاً، في الحقيقة هو ليس صندوقاً بل زلعة ضخمة، وكانت زلعة عمي ذهب باللون الأبيض، وزلعة الشيخ منصور باللون الأخضر مرسوم عليها سيفان وكلمة التوحيد، وما على الناخب إلا أن يلقي بورقة في أي من الزلعتين، وقد أقيمت دروة حول الزلعتين، وقام عليهما مندوبان عن المرشحين، وكنت أنا مندوب عمي ذهب لمراقبة نزاهة التصويت وبدأت عملية الاقتراع، فوقف الناس طابوراً طويلاً يتلوى وفقا لما تسمح به تضاريس المكان، ومرت أول نصف ساعة وقد مالت الكفة تجاه الشيخ منصور، فابتسم مندوب الشيخ ويُدعى تاج، ثم بدأ الميزان يميل ناحية عمي ذهب، فبدأ القلق على

وجه تاج، فطلب استراحة خمس دقائق، فتوقفت العملية الانتخابية حتى يعود، ولمحته يتجه نحو الشيخ ويسري إليه بشيء انعكس على وجهه الذي اكفهر، ثم همس في أذن الشاب شيئاً فعاد حاملاً كوين شاي "لا مؤاخذه يا جاد حكم الوقفة حثطول اشرب"، رحنا نرشف صامتين وأنا أجاهد نفسي حتى لا أسرح فيتم أي تلاعب، لكن عند نصف الكوب وجدتني مثقل الرأس مضرب الرؤية، فجلست على حجر "مالك؟"، سألني تاج، بنصف وعي قلت: "لا ولا حاجة بريح رجلي"، ظل يرقبني حتى غبت عن الوعي، وحين أفقت كانت الانتخابات قد انتهت، وحكى لي الناس ما حدث، إذ يبدو أن الحر الشديد داخل الدروة ضربني في رأسي فأغمى عليّ، فخرج تاج وطلب من يملك ووضعنا مندوب آخر بدلاً منك، لم أكن أحتاج إلى السؤال عن النتيجة، فقد وضحت في وجوه أجدادي وأعمامي وأبي وأمي وبتول وهجلة وحامد، اللذين تشاغلوا بهمي هرباً من الهم الأكبر الذي ركبهم، وأصوات الزغاريد المملعة والاحتفالات التي يقيمها أعوان الشيخ منصور.. كيف حدث هذا؟! لقد كانت زلعتنا مليئة حتى المنتصف قبل الإغماء، وبقياس من تبقى من الناخين لا يمكن أن تكون هذه النتيجة، وبدأ الفأر يلعب في عبي، فأسرعت خارجاً.

وجدت تاج اللعين يرقص طرباً، هجمت عليه مبادراً: "عملتها يا تاج"، كان رد فعله أكبر دليل على جرمه، إذ صاح مبتعداً عني خائفاً محتيمياً بالشيخ منصور: "ما عملتش حاجة، إنت اللي وقعت لوحدك"، أمسكت بتلابيه "تحدرنى يا جبان يا..". لم أكمل جملتي، إذ انهالت عليّ الأكف والأرجل

والنباييت، فتكورت على نفسي أحمي رأسي، ولولا بقايا عقل في بعضهم لكننت قضيت نحبي، وأفلت عائدا نازفا من الوجه والجسم والقلب، وحكيت ما كان.

وسر حنا كلنا في خضم واحد من الإحباط، ووجدتني أتساءل: لماذا العدالة عمياء؟ مَنْ وضع تلك العصاة فوق عينيها وأمسكها ميزاناً في يدها؟ ولماذا كفتا الميزان متعادلتان؟ هل العدل أن يتساوى الظلم مع الحق؟ هل العدل هو القانون؟ ماذا لو فتحت العدالة عينيها؟ ثم هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ هذا ليس سؤالاً بل سؤاله عز وجل، وهو سؤال استنكاري، وقطع حبل أفكار صوته عمي ذهب ينادينا لنصلي، فصلينا خلف جدي الوسيط وصلى عمي بأهله وذويه، ثم التفت إلينا قائلاً: "إلي حصل حصل، ما قدمناش غير إننا نزرع أرضنا بإيدينا، حنربي مواشيننا ونعمر الغيطان، حنصد رمل الصحرا بخضرة الوادي"، تفكر الشباب في كلامه فوجدوه معقولاً وممكنًا، فقلت: "أنا من النجمة في الغيط"، فتبعني كل الشباب والرجال مؤمنين، لكن عمي ذهب قال: "إنت يا جاد من بكرة، ترجع جامعتك"، حاولت أن أعترض، لكنه قال: "جدك الكبير لو هنا كان قال نفس الكلام"، فأمن الكبار على كلامه، ووجدتني مضطراً أن أرحل عن بلدي في وقت الشدة، أنصت لهم أم أصمم وأبقى؟

الحقيقة أن قرار عودتي للجامعة أصابني بنوع من الراحة المستترة،

مستترة حتى عن نفسي، لا أريد أن أعترف أني مرتاح للبعد عن تلك المشاكل والصراعات المتخلفة، أريد أن أخرج منها بأي ثمن، حتى لو كان الثمن تأنيب ضميري لتركي البلد وناسها في تلك المحنة، حاولت أن أسوق الحجج لأقنع نفسي أنها ليست نذالة أو هروب من المسؤولية، فأولا كان القرار قرارهم وليس قرارى، ثانيا أنا ملتزم بمواعيد دراسة خصوصا أنى طالب امتياز وعلى أن أعبّر البوابة الأخيرة في التعليم لأخرج إلى الحياة العملية، ورحت أبرر لنفسي هروبي وتركي لقريتي في شدتها، وأفقت على صوت حامد يقول: "يا لالا جاد القطر حيتحرك"، فسلمت عليه في حضن طويل صاحبه الدموع دموع المعتذر، وكأنه قرأ أفكارى ولمس ما في قلبي قال: "ما تقلقش، إحنا مقدرين ظروفك، شد حيلك انت وارجع لنا بالشهادة كفاياك علام بقى"، وركبت القطار الذي تحرك بي مبتعدا عن عالم متكامل قديم متهالك متداع مصاب مفتت مهدد بالانقراض، أترانى أجد قريتي حين أعود العام المقبل؟ بالطبع سأجد مباني وأرضا وناسا، لكن هل هي نفس المباني ونفس الأرض ونفس الناس؟ وبعد نصف ساعة أفقت من تفكيرى في القرية وشجونها، وبدأت أنأهب روجى للعودة إلى العالم الآخر، عالم الجامعة الذي نسيته، ويبدو أن للقرية نطاق جاذبية معيناً إذا تخطيته تحررت من استحوازها عليك، وفعلاً بدت لي أحداث الأمس القريب كأنها ذكرى بعيدة.. عجيب هذا الإنسان، تتساقط عنك أوراق الذكريات والأحداث كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف لتهدى نفسك لربيع قادم تزهرفيه وتثمر.

16

المدينة من جديد.. الزحام ورائحة عادم السيارات.. الوجوه المكفهره والنفوس المتلهية عن بعضها، المباني الشاهقة والشقق الضيقة والأسقف الواطئة، تطورت مدينة أسيوط كثيرا في الفترة الأخيرة، أم هي تخلفت؟ فبعد أن كانت بلدة صغيرة تحيطها المزارع والغيطان من كل جانب، توسعت وجرفت الأرض الزراعية وبنيت مساكن أشبه بالقبور الرأسية، لم يكن في أسيوط ملمح من ملامح المدينة سوى اسمها على الخريطة ومعمل التكرير الذي أنشأه جمال عبد الناصر على أطراف الجبل، وقصور الباشوات المتناثرة من العصر البائد كما علمونا في المدارس.

كنت أخترق مدينة أسيوط بالتاكسي من المحطة إلى بيت الطلبة بجوار المستشفى الجامعي، كان أول من لاقاني هو ضرغام حارس أمن بوابة بيت الطلبة وهو من أبناء أسيوط، لم يتلقَ أي نوع من التعليم في حياته،

يعمل في شركة أمن تمتلكها حرم مدير أمن المدينة، طوله متران وبعض السنتيمترات، حجم كفه كما خف الجمل عريض الفك والرقبة وتضيق حجمته إلى أعلى، شاربه الضخم رمز رجولته لم يخف ضخامة شفتيه ويتمتع بغباء منقطع النظير وذاكرة سمكة، فبادرته حاملا متاعي: "سلام عليكم يا ضرغام"، نظر إلي بعينه الضيقتين قائلا: "عايز إيه؟"، قلت مازحا وقد بدأ أثقل متاعي يؤلمني: "يا عم رد السلام لول"، قال غاضبا بلا مبرر: "سلا.. رح.. تالله وبركا"، هكذا ينطق رد السلام مردفا: "عايز إيه؟"، وضعت حقيبتي وبدأت المسرحية السنوية التي تتكرر مع كل عودة من إجازة قلت: "أنا جاد الجبتي ساكن في بيت الطلبة"، قال: "حو خلجا ع نه لج ماتس الب"، يقصد حط خلعجاتك على جنب لجل ماتسدش الباب، فانصعت للأمر وأخرجت له الكارنيه، فنظر فيه وأنا متأكد أنه لا يقرأ بل يفقد الصورة، وأعاده لي: "جديم مايح..."، قلت له: "أنا لسه راجع من الإجازة وحستلم الكارنيه الجديد من.." قاطعني: "جل مايصوحش"، وطالما قال مايصوحش بتلك النبرة، فمن الأسلم أن تنصاع للأمر وتركن على جنب ولا تحاول تذكيره بأنك نفس الشخص الذي يراه منذ سبع سنوات أحد عشر شهرا في السنة، فركنت في عز الشمس حتى يظهر صديق أو دكتور ينتشلني من محنتي الضرغامية، واضعا كتابا فوق رأسي جلست على الحقيبة، ورحت أراهن نفسي من سيكون منقذي؟ أهو دكتور سعيد مشرف البيت، أم دكتور عصام نائب مدير الجامعة في إحدى دوراته التفيتشية، أم أحد الزملاء المغتربين المقيمين في البيت، حتى ظهر

تامر عبد النعيم داخلا بسيارته الفارهة، فانتفض ضرغام فاتحا له البوابة، فلقطني ضاحكا: "برضه عملها معاك الحيوان ده؟"، قفزت بجواره ملقيا متاعي في الخلف: "كويس انك جيت دلوقتي، الشمس كلت نافوخي"، وكنت محظوظا إذ كان تامر هو منقذي، فتامر هذا حدوتة ثانية.

تامر عبد النعيم هو ابن الدكتور حسين عبد النعيم، وحفيد الدكتور عبد النعيم شورا، واحد من أساطين الطب في مصر والعالم في جراحة المخ والأعصاب، وتامر هو الحفيد والوريث الوحيد لثروة الجد، وهو شاب أوربي الملامح والتصرفات، لا يعتل للعالم ههنا، فقد ولد في فمه ملعقة ذهب وما زالت الملعقة في فمه حتى اليوم، فتامر طفل في السابعة والعشرين، نقي السريرة ولا يضمّر شرا لأحد، لم يرد أن يكون طبيبا مثل أبيه وأمه وجده، مجموعته أدخله طب أسويط بناء على أمر العائلة، ولأنه لا يحب الصراعات والمشاكل فقد نزل على رغبتهم لكنه لا يعيش في أسويط، هو يأتي زائرا كلما تطلبت الظروف لذلك سألته: "قاعد قد إيه؟"، قال: "يومين ثلاثة أخلص شوية ورق وارجع"، قلت: "يا جدع انت الواحد ما يبلححقش يشبع منك"، قال: "عندي ارتباطات في مصر، وبعدين طالع لندن، ما تيجي معايا"، لم تكن عزومة مراكية، فمعرفتي بكرم تامر تؤكد أنه يعينها لكني قلت: "أجي معاك مصر ولا لندن"، قال: "انت بتقول فيها! تيجي معايا لندن أشهيك وأوريك اللي عمرك ما شفته"، قلت: "والجامعة؟ والامتياز؟"، قال: "يا أخي أنا بحب فيك كل حاجة إلا تقفيلتك الصعيدي دي؟"، قلت: "أنا نوبي مش صعيدي.. صعيدي دي عندنا سبه"،

قال في طفولة: "بجد! سوري جاد"، ثم أردف شارحا: "قصدي انك واخذ الحكاية جد قوي ولازم تحضر كل المحاضرات والسكاشن، الدنيا مش جد قوي كده، فيها حاجات تانية نتعلمها غير الطب والدم والقرف". أشفقت على نفسي من مجادلتة وقمت إلى متاعي أعلق ملابسي في الدولاب فوجدت فطيرة مربى لفتها أُمِّي بعناية حتى لا تنشع على الهدوم، ما إن تذوقها تامر، حتى صاح: "هو أبوك عايش؟"، أجبته متعجبا: "آه"، قال: "خسارة، كان نفسي أتجوز أُمك عشان عملي جام باي من دي كل يوم"، فناولته إياها: "حدها بحالها كلها في أوضتك، أنا تعبان وعالز أناام". خرج يلتهم الفطيرة مؤكدا أنه سيتركني أناام ثلاث ساعات، نلتقي بعدها لنسهر سويا. فأغلقت الباب وألقيت نفسي على السرير متخذًا وضع السرحان والتأمل، لكن ثقل جفوني وهددان جسمي ووش رأسي غلبوني فنمت، نمت بعمق لم أنمه في قريتي مسقط رأسي وملعب طفولتي، وفي منامي لعبت مع سمر عرايا في النيل وجريت أسابق حامد في الزروع، وهونا فوق كوم الدريس وقال حامد: "خد شهادتك وكفاياك علام"، وقال عمي ذهب: "حززع أرضنا بإيدينا"، وقال الشيخ منصور: "وإسلاماه"، وقال تامر: "جاد.. جاد اصحى يا جاد"، فتحت عيني فوجدته فوق رأسي يوقظني: "يخرب عقلك ده انت كنت نايم جوه قوي"، فدعكت وجهي سائلا عن الساعة فقال: "تسعة"، ياه!! نمت ثلاث ساعات! فقامت وتحممت وارتديت قميصًا وبنطلونًا لم أرتهما طوال شهر الإجازة وخرجنا، ركبت بجواره لا أدري إلى أين، وخرج بالسيارة من البوابة، ولم ينس أن ينفخ ضرغام

خمسة جنيهاً ويذكره بضرورة غسل السيارة في الصباح الباكر وانطلقنا إلى كورنيش المدينة، وقال تامر: "نفسى أشوف توم وجيري"، قلت: "اشمعنى"، قال: "المرّة الي فاتت عزموني، وما جاتش فرصة أردلهم العزومة"، وراح يثرثر في كلام فاضي وصوت كاسيت السيارة يلعلع في جو المدينة الصاخب المزدهم بالأضواء والكهرب واللافتات والإعلانات والكلاكسات.. تَبَّأً لليل المدينة، قلت "أف.. اطلع يا عم على توم وجيري".

مدحت وبهجت الورداني توأمان متطابقان في الشكل، لكن متنافران في كل شيء، وقد أسماهم تامر توم وجيري، فمدحت أهلاوي وبهجت زملكاوي، مدحت سكري وبهجت حشاش، مدحت بخيل وبهجت كريم، مدحت ليسانس حقوق لثالث مرة وبهجت بكالوريوس هندسة لثالث مرة أيضاً، وهما كقطبي المغناطيس، سالب وموجب، لذلك تجدهما متلاصقين ببعضهما بشكل مرضي، حتى إن سقوط مدحت في الحقوق أجبر بهجت أن يسقط في الهندسة ليظل مع توأمه، هما من المنصورة ولا يعيشان في بيت الطلبة، بل يستأجران شقة في أحد أبراج المدينة، وشقة توم وجيري ملتقى السهرات والمذاكرة الجماعية أيام الامتحانات، أما باقي أيام السنة فهي ماخور وبار وغرزة وملجأ للمشردين والمشرذات من الطلبة.. ركن تامر سيارته، وصعدنا إلى الشقة في الدور الأول، وما إن اقتربنا من الباب حتى انفتح عن رجل ملتج قصير الجلباب وزبيبة صلاة شبه الوحمة في جبينه يخرج، والتوأمان يودعان له لدى الباب، فرحبوا بنا وأدخلونا بسرعة والرجل يقول رافعا سبابة التحذير: "دي آخر مرة حتكلم معاكم، بعد

كده فيه تصرف تاني، سلام عليكم"، انغلق الباب والتفت إلينا الأخوان بادين الهم فصاح تامر: "إيه المقابلة اللي زي وشكو دي؟"، قال بهجت محتضنا إيانا: "لامؤاخذه يا جماعة، الراجل الضلم ده عكنن علينا"، أكمل مدحت: "ده جارنا في التاسع مش عاجبه السهر والمزيكا كل ليلة"، صاح تامر: "وهو مال أمه"، قال مدحت: "أخو مراته يبقى صاحب العمارة"، أكمل بهجت: "واحنا مأجرين مفروش"، أكمل مدحت: "يعني نلاقي روحنا في الشارع"، قلت: "مش لازم مزيكة عالية يا جماعة بدام بتضايق الجيران"، أوضح لي توم وجيري باقي الصورة، ففي السنوات الأخيرة ظهرت في البلد موجة تدين مفاجئ، ونشطت الجوامع والزوايا نشاطا غير مسبوق، وطفأ على السطح لون غامق من الرجال والنساء الذين آلوا على أنفسهم نشر الإسلام في ربوع البلد، فكثرت دروس العلم وتحفيظ وتفسير القرآن والسنة والشرع والحلال والحرام بين النساء، أما الرجال فقصروا الجلباب الصعيدي وأطلقوا اللحى وعفوا الشارب، وتفننوا في رسم الزبيبة وتكبيرها، وتواجدوا في الجوامع والزوايا بدلا من المقاهي، وانصرف الشباب عن القراءة والرياضة إلى تحصيل العلم من مشايخ البلد، وطالت أوقات الصلاة، فبعد أن كانت لا تتعدى العشر دقائق وصلت إلى ساعة، والصلوات الخمس في الجامع، وانتشرت كاسيتات وأسطوانات المقرئين العرب والوعاظ السلفيين، وعرف الناس ابن تيمية وابن ماجه وابن عبد الوهاب، فقلت في سذاجة: "طب ودي فيها إيه؟ الناس رجعت لربها عقبالكو"، قال توم: "ما هو اللي ما يعرفش يقول عدس"، أضاف

جيري: "وانت حتعرف مين ما انت يا في بلدكم يا مدفون في المعمل والكلية والمحاضرات"، أمن تامر على كلامه: "لسه كنت بقوله، بقاله سبع سنين لا بيخرج ولا بيشوف الدنيا، البلد اتغيرت قوي يا جاد، حتى مصر اتغيرت وحصل فيها نفس اللي حصل في أسبوط"، لماذا نقول مصر ونحن نقصد القاهرة؟ عنّي السؤال فسقطت منهم، لماذا تسمع شخص يقول أنا نازل مصر، يعني رايح القاهرة! ولماذا لا تسمع أمريكيًا يقول أنا رايح أمريكا، وهو يقصد واشنطن العاصمة؟ ولا إنجليزيًا يقول أنا رايح إنجلترا قاصدًا لندن؟ كيف اختصرنا واختزلنا مصر الدولة في مدينة واحدة، وحين تأملت وجدت أن تاريخ مصر كله هو تاريخ العاصمة، سواء كانت منف أو طيبة أو الفسطاط أو القاهرة، التاريخ لا يذكر إلا أخبار العاصمة وأحداث العاصمة وناس العاصمة، حتى المحتلون الذين توالوا علينا، احتلوا مصر كلها باحتلالهم العاصمة، ما هذه المركزية! وأفقت على صوت تامر يقول: "قوم يا ابني نشوف لنا حتة نروحها".

17

انطلقت سيارة تامر تقلنا نحن الأربعة، ومد يده أسفل كرسيه، وأخرج زجاجة ويسكي بلاك ليبل لثراً ونصفاً، فصفق مدحت مهللاً وصاح بهجت: "بدام كده يبقى نعدي على البت هبة نجيبها معانا"، فقلت: "هي لسة عايشة؟"، قال بهجت: "هي الي معاها البولوييف" يقصد الحشيش، فهبة تشرب وتدخن وتبلع وتشم وتتعاطى أي شيء في أي وقت، إنسانة مثال الضياع، هي طالبة في معهد دار المعلميات بأسسيوط، وهي أصلاً قاهرية وتقيم في شقة مع مجموعة من الطالبات، ويبدو أن أهلها يأسوا منها بعد هروبها المتكرر من مراكز علاج المدمنين، فتخلصوا منها بإرسالها أسويوط، وهي تعيد سنة ثانية للمرة الثالثة والأخيرة، ولم ينقذها من الرشد سوى ثراء ونفوذ أبيها يونس القاضي عضو مجلس الشعب وصاحب مصانع القاضي للمفروشات، تزوج فتاة تصغره بثلاثين عاماً بعد أن طلق أمها،

التي تزوجت شاباً يصغرها بعشرين عاماً، فكانت هبة هي الضحية، أم تراها مذنبه؟ لماذا أُحيط نفسي بهؤلاء الفشلة؟ لماذا أنجذب إلى قاع الشباب؟ رغم أنني لا أشرب ولا أدخن ولا أرتكب المعاصي، بل أصلي بانتظام وأصوم وأتركى، لعله انجذاب الأضداد! لعله شغف الاضطلاع على الجانب الآخر من الحياة، لكن بالتأكيد حبهم لي هو السبب الرئيس، وأنا لا أستطيع أن أقابل حبهم بكره أو نفور، فقد علمني جدي الكبير أن أبادل الحب بالحب رغم الاختلاف، وأفقت على صوت هبة: "إزيك يا..". نسيت اسمي كالعادة، فهبة لا تكمل جملة أو سؤالاً أبداً، وقد تعودنا منها ذلك فقلت: "الحمد لله يا هبة انتي عاملة إيه؟" فهزت رأسها وكانت تلك آخر كلمات لها في السهرة، البعض يرونها حالة ميؤوساً منها، والبعض يرونها إنسانة مسكينة، أما أنا فلا أراها مطلقاً فهي أولاً رفيعة كما الفتلة، جافة كما الحطب، لعلها الوحيدة الأرفع من الواد حامد! محنية الظهر تتحرك بصعوبة ورعشة مستمرة في كل مفاصلها وأطرافها، يعرفها كل صيادلة البلد ويمدوها بالأقراص والبلايغ في أيام القحط، وهي أيضاً مشهورة في المستشفى الجامعي لتكرار نقلها بين الحياة والموت، لدرجة أننا أطلقنا اسمها على الحالة فنقول: "حالة هبهبة" أي تعاطي جرعة زائدة "أوفر دوز"، وقد أجمع وأجزم الأطباء بأن نهايتها ستكون في واحدة من تلك النوبات.. توجهنا إلى أحد مراسي المراكب السياحية المنتشرة على ضفاف النيل، وقد تعودنا أن نستأجر منه مركب نقضي فيه سهرتنا، إلا أن صاحب المرسى ويدعى المعلم بُرعي رفض وتقريباً طردنا، وقد لاحظت تغير هيأته بعد أن

أطلق لحيته وقصر جلبابه وظهرت له الزبيبة رمز التقوى، وهو الذي كان يمدنا في الأمس القريب بزجاجات البيرة والمعسل ومستلزمات السهرة، والعجيب أن الموقف تكرر معنا عند أول ثلاث مراسٍ، حتى عثرنا على صياد يمتلك فلوكة كبيرة بشراع صغير يُدعى أبا أدهم، وقد وافق أن يؤجرنا المركب مقابل عشرين جنيها للساعة، وهو رقم فلكي إذا عرفت أننا كنا نستأجرها بثلاثة جنيهات للساعة، ماذا حدث؟ متى تغيرت أحوال الناس؟ فقصروا الجلاب وأطلقوا اللحى وضربوا الزبيبة؟ لماذا نقول زبيبة وليس بلحة أو زيتونة، وبعضها يشبه الدوم، وقد عبر بهجت عن تساؤلنا: "هو إيه اللي حصل؟"، فخرجت إجابات متنوعة من أفواهنا مثل تخلف وموجة ووهابية وسلفية، لكن هبة قالت كلمة خربت أذني فأفزعني، وهبة لا تقول بل تغغم وأكاد أجزم أنها غمغمت: "الفجم".

كأنها لسعتني بكلمتها، فانتفضت موليتها كل اهتمامي، حتى إن المركب اهتزت، فتصايح مدحت: "بالراحة يا عم جاد، مالك بتتفظظ ليه؟"، فرد تامر: "بلاش تطلع فوقانك دلوقتي"، وتساءل بهجت: "مش فاهم إحنا إيه اللي جابرنا نصاحب واحد فايق كده"، لم أعرفهم اهتماما، ولم أسمع ضحكاتهم وقفشاتهم حول فوقاني، فقد كان كل كياني منصبا على هبة: "إنتي قلتي إيه؟!"، فحتى هذه اللحظة لم أتصور أن موضوع الفجم له وجود خارج نطاق قرينتنا، فإذا بهذه الهبة القاهرية التي تعيش في أسيوط تعرف الفجم، أو على الأقل تعرف الاسم! أعدت سؤالي: "قلتي إيه يا هبة؟"، لكنها ظلت على تنبئتها ولم يأتني منها ردا أو إيلاء أو إشارة أو

خلجة، وجه جامد مستسلم لعالم ليس عالمنا، عالم موازٍ لنا، فهي موجودة وغير موجودة، حاضرة غائبة، ولم أستسلم بل كررت السؤال محاولاً أن أحصل على رد، لكن بهجت قطع محاولاتي باديا السطل: "ما تحاولش.. هي كده خلاص". صرخ مدحت مفزوعاً رافعا زجاجة الويسكي أمام عينيه: "يخرب بيت عقلك يا هبة، ضربتي نص القزاة! بتشري كازوزة؟"، لا رد من هبة راحت تنفث دخان الجوزة من فمها وأنفها في كثافة رهيبة، فغلقتها سحابة ثقيلة كأنها تخرج من كل رأسها وشعرها وأذنيها، فصاح تامر ضاحكا: "البت هبة شاطت"، ضجينا جميعا ضاحكين، فمنظرها فعلا كأنها خارجة من الفرن حالا، وكلما نظرنا إليها وهي كالتمثال المدخن زاد ضحكنا، وقال مدحت: "طب حد يطفئها"، زاد الضحك وقلب إلى كريمة، أمسكنا لها البطون وسالت الدموع، فقلت بدوري: "هبة إلهة السطل"، فكانت القاضية التي ألقت بهم يتمرغون في أرضية المركب التي زاد اهتزازها بشدة، فسقطت الأكواب والزجاجات وأحجار المعسل، وانقلب منقد الفحم وتطاير شرره فأصابنا جميعا فاختلط الضحك بالصوات وتقافزنا ننفض النار عنا، وصرخ تامر "البت بتولع بجد"، فالتفتنا بسرعة لنجد بعض قطع الفحم المتطاير استقرت في شعر وطيات ملابس هبة، أسرع بهجت وقد كان أقربنا لصفحة في ركن المركب بها ماء وألقاها عليها، فإذا بالنار تزداد اشتعالا وتمسك فيها كلها، صرخ تامر: "يخرب مخك ده جاز مش مية"، فجأة قفز مدحت ودفع بهبة من فوق حافة المركب فسقطت في النيل وانطفأت النار، لكن هبة اختفت. يا ليلة سودة! أسرنا إلى الحافة

كلنا دفعة واحدة، فهالت المركب ميلاً شديدة ونحن نطبخ بأيدينا باحثين عن هبة، وفجأة انقلبت المركب وسقطنا جميعاً في الماء، كانت الثواني تمر كأنها دهور، ولأني الفايق الوحيد فقد استدعيت خبرتي السابقة من أيام الطفولة وغطست في اتجاه التيار أتحسس طريقي في ظلام ماء النيل الثقيل، وأنا أعتبر من الغطاسين المهرة في قريتنا، حتى لامست يدي شيئاً يشبه القماش، فأمسكت به وجذبه وكان نفسي على وشك النفاذ، فقيببت على السطح، ونظرت إلى ما أمسكت فكانت هبة، مثل فأر احترق وتبلل، مفتحة العينين مستسلمة استسلام الخساية، فقاومت التيار جاذباً إياها حتى عدنا إلى المركب المقلوب، وقد تشبث به الرفاق ناهجين لاهثين مفزوعين، وما إن رأونا حتى تصايحوا حامدين شاكرين، ومرت دقيقة استجمعنا فيها قوانا وعقولنا، فاكشفنا أننا نبعد عن الشاطئ مسافة لا تقل عن ثلثائة متر، وتساءل بهجت: "والعمل؟"، قال مدحت: "العمل عمل ربنا"، قال تامر: "ربنا مش حينزل ينقذنا، ما فيش غير إننا نعووم"، صاح مدحت البخيل: "والمركب! أنا مش حدفع حاجة..."، قاطعه تامر: "وده وقته يا مدحت! أنا حشيل الليلة"، وتناوبنا حمل جثة هبة التي ظلت على تننيحتها، كأن ما جرى كان لشخص آخر غيرها، وما إن اقتربنا من الشاطئ حتى جذبني شيء بقوة لأغطس فرأيت.. الفجم.

لف اللعين ذيله حول ساقي وراح يجذبني لأسفل، وأنا أقاوم بكل قوتي فتأخرت عن باقي الرفاق اللذين وصلوا الشاطئ، التفت تامر فوجدني أقب وأغطس، فقفز في الماء وسبح بمهارة وسرعة نحوي، جذبني من

ذراعي الممدودة تبحث عن قشة أتعلق بها، وسحبني تامر بقوة تجاه الشاطئ وهو يصرخ في: "ما تغرقنيش معاك"، وهو لا يدري أنه لست أنا الذي أجذبه لأسفل، ألقى بهجت عوامة فلين مربوطة بحبل كانت على المرسى، فتعلق بها تامر، جذبنا بهجت حتى لامست قدمي طمي القاع، لكنني ظللت متشبثا بذراع تامر القوية حتى خرجنا إلى اليابسة، فألقينا جسدنا ناهجين ومن بين أنفاسه المبهورة، قال تامر: "آخر مرة حنقذك يا ابن الكلب، كنت حتغرقنا"، لم يكن في نفس ولا صحة أرد، وحتى لو رديت، هل سيصدق أنه الفجم الذي يجذبنا؟ بالتأكيد سيقول إني مجنون، وتذكرت هبة فرفعت رأسي أستطلع حالتها، فوجدتها جالسة على سلم المرسى الحجري بنفس التنيحة تتفرج علينا من عالمها الموازي، وقطع حالة الاسترخاء التي تصيبنا بعد شد عصبي وعضلي شديد صوت أبو أدهم المراكبي يقول: "فين المركب؟"، أشاح له بهجت: "إحنا كنا حنغرق، وانت اللي همك المركب"، جأر الرجل جأرة تنم عن بداية غباوة: "انتوا تولعو بجاز، فين المركب يا ض انت وهو"، في قرف أشاح تامر بيده: "ششش بس يا حمار انت، بكام المركب دي"، وجدها الوغد فرصة للاصطياد في الماء العكر فهرش في قفاه وقال: "ب.. خمسين ألف جنيه"، أصدر تامر شجرة إسكندرائية وقام واقفا: "خمسين ألف عفريت لما يركبوك"، فجأة تحول ابن الزوات إلى عربي، وتامر حين يقف وينفش عضلات صدره وينفخ الباي والترابيس يبدو أضخم من حجمه مرتين خصوصا في التيشيرت الضيق الذي يرتديه والذي زاده البلل التصاقا بجسمه، فراجع أبو أدهم نصف

خطوة، فاستطرد تامر بصوت لا شك في جده: "هم خمستلاف جنيه، ولا تحب نروح القسم؟"، حين سمع كلمة القسم اهتز، مما شجع مدحت: "انت مأجرلنا مركب مضروبة ومش مرخصة، وكنت حتموتنا يعني إهمال كاد يودي لوفاة، ومزاولة نشاط من دون ترخيص"، تقافز الرجل وكاد يبكي: "يعني يرضي مين ده؟" حاصره تامر: "حتاخذ الخمسة، ولا نلبسك قضية تعويض؟"، جلس الرجل مقرصاً يهيل تراب الرصيف على رأسه: "يا خراب بيتك يا أبو أدهم"، صاح مدحت: "اللولولة مش حتجيب نتيجة، قلت إيه؟"، ضرب كفاً بكف وقال متمسكاً بأكيا: "طب هزهم شوية"، وتركهم ينهون صفقة المركب وسرحت في المصيبة التي كنت فيها، هل جاء ورائي بطاردني، أم أن لكل بلد فجمها؟ ولماذا أنا بالذات دوناً عن باقي الرفاق؟ وانحصر تفكيري في هبة، شيء ما يدفعني للبحث في أغوار تلك الفتاة الضائعة التي تعيش في العالم الموازي، عليها تطلعتني على سر الفجم، فاقتربت منها مطمئناً: "عاملة إيه يا هبة؟"، ويبدو أن حمام الماء البارد الذي كانت فيه أفاقها بعض الشيء، فهزت رأسها إيجاباً وغمغمت: "حم لله"، فتشجعت وسألتها: "إنتي شفتي الفجم؟"، هزت رأسها إيجاباً فسألتها: "فين احكي لي أصل أنا شفته"، لكنها ظلت تهز رأسها في تزايد مطرد، ثم راحت تهز جزعاً للأمام والخلف عاقدة ذراعيها على بطنها، وهي تخمغم: "فجم فجم فجم فجم"، وبحاستي الطبية استشعرت بوادر أزمة، فصحت منادياً: "يا جماعة هبة تعبانة، لازم نقلها المستشفى".

18

وصلنا المستشفى الجامعي، ونحن في حالة يُرثى لها، وتوجهت من فوري أستدعي فريق الاستقبال: "يا ربيع يا هاشم" الذين أسرعوا إليها، وما إن لمسها الممرض ربيع، حتى صرخت وجريت منه مذعورة صارخة، لكنهم حاصروها عند شباك الكوريدور، فاستدارت متخذة وضعا دفاعيا ناصبة ذراعيها أمامها مشهرة أظافرها كحيوان مفترس، وقد اتسعت حدقتا عينيها في جنون لا شك فيه، ولأن ربيع وهاشم مدربان فقد نجحا في الانقضاض عليها وتكبيّلها وهي تصرخ محاولة التخلص من الكلابات الحديدية التي تقيدها وبسرعة أقبل دكتور منير وأعطاهما حقنة مهدئ قوي فوري المفعول، فهدأت واسترخت عضلاتها المتشنجة، فوضعوها على الترولي وأسرعوا بها إلى غرفة الكشف فدخلت معهم، بادرني دكتور منير: "الحالة الدور ده غير كل مرة، هي واخدة إيه؟"، قلت: "خمرة وحشيش"، ثم أضفت: "متهيا لي

كانت مبلّعة حاجة قبلهم"، زفر زفرة طويلة مستغفرا، وراح يفحص قاع العين طالبا عينة دم من ربيع، فأسرع بجهز الحقنة، لكنه توقف مشيرا إلى ساقِي: "إيه الدم ده يا دكتور جاد"، نظرت إلى ساقِي التي كان ذيل الفجم ممسكا بها، فوجدت دماء غزيرة تنزف وقد تمزق البنطلون طوليا، كأنها شقت بمخالب، فاتجهت إلى دولاب الأدوات وأخرجت مطهرا، لكن الممرض هاشم قال: "اقعد انت يا دكتور"، وكشف عن ساقِي وبدأ ينظف الجروح كالخرايش بطول الساق فقال: "هي خربشتك؟"، قلت: "هه.. لا أنا يظهر حكيت في سلك ولا حاجة"، وتركته يضمّد الجرح، ونظرت إلى هبة المستقلية في استسلام وقد سحبوا منها عينة الدم، وأسرع بها ربيع إلى المعمل

كم أنت مسكينة يا صديقتي.. هل نحن فعلا أصدقاء؟ عنّي السؤال وكبر، هل تامر وتوم وجيري أصدقاؤني؟ وما المعيار؟ زمالة الجامعة؟ ما الشيء المشترك بيننا يجمعنا؟ يقول جدي الكبير: "صديقك من صدقك"، وهل أنا أصدقهم؟ لو كنت أصدقهم لصدقتهم النصيحة، أو ابتعدت عنهم، لكنني أنجذب إلى فسادهم لأوازن مثاليّتي، وهل أنا مثالي؟ وما المثالية؟ وراحت الأسئلة تتوالد من بعضها البعض، أقف عند كل كلمة وأحلّلها، وأفقت وأنا في سرير استراحة الأطباء، ودكتور عويس عميد الكلية يجلس على طرف سريري، كرد فعل لتلقائي اعتدلت جالسا، فقام وجلس على السرير المجاور: "حمد الله السلامة"، شكرته متسائلا عن سر تلك الزيارة،

فدكتور عويس لا يخرج من مكتبه إلا ليمر على الأقسام: "ده شرف كبير يا دكت..."، قاطعني معدلا من وضع نظارته: "أنا عايز أفهم واحد زيك إيه اللي يلمه على شوية الفشة دول.. دول ولا واحد فيهم حيفلح، حتى لو أخذو شهاداتهم" لم أجد إجابة أغبى من: "صاحبك من بختك"، قال: "لا لا سيبك من الكلام اللي يودي في داهية ده. إنت راجل متعلم، ما تاخذش بالخرافات، بخت إيه وكلام هجص إيه..". وراح يعظني شارحا أن اختيار الأصدقاء يكون بإرادة وعقل مستنير، وليس بختًا وصدفة وحظًا، لكني لم أسمع بالضبط ما قاله، لأنني تخيلت لو عرف موضوع الفجم! بالتأكيد سيتهمني بالجنون، وأفقت على جملة: "أول يوم ليك في الامتياز مايبشرش بالخير يا جاد"، ثم مال إلى الأمام ناصحا: "يا ابني إنت قدامك مستقبل كبير، لو ضيعته ماحدث من المقاطيع دول حينفعك"، قام واقفا، فحاولت النهوض، لكنه وضع يده على كتفي أبقاني في السرير: "شد حيلك وركز في الامتياز، أنا مراهن عليك"، قبل أن ينصرف قلت: "ممكن أتابع حالة هبة بنفسي؟"، قال: "لو شغل ممكن، لكن لو صداقة لا".

قسم الصحة النفسية هو أقل الأقسام حظًا، وهو يقبع في مبنى صغير متهالك في أحد أركان الكلية، تخطيطه خرابة كانت حديقة، فهو قسم لا يقبل عليه أحد دارسًا أو معلمًا أو ممارسًا، وهو القسم الذي أودعت فيه هبة حتى ينظر في أمرها، وقد أرسلت إدارة المستشفى إلى ذويها لتخلي مسئوليتها عنها، وهو إجراء نصحت به الشئون القانونية لتجنب أي عواقب

لتدهور حالتها، وقد أرفقت الإدارة المالية مطالبة بمصروفات العلاج مع الإخطار، وقد أكدت إدارة العلاقات العامة وشئون المرضى على ضرورة إرسال الإخطار بالبريد الحكومي بعلم الوصول، ورغم وجود تليفونات أهلها في استمارتها، إلا أن الشئون القانونية لا تعترف بالتليفونات، وبين الإدارة والشئون القانونية والمالية وشئون المرضى، نسوا الشئون الإنسانية، وتغاضوا عن الشئون الأخلاقية و قدسية مهنة الطب، نسوا قسَم أبيقراط، نسوا أن مهمتنا الأساسية رفع المعاناة عن الإنسان.

من خلف الزجاج الحاجز وقفتُ أقرب هبة في الغرفة المبطنة، وهي غرفة حجز بطنت حوائطها بألحفة سميكة ناعمة للحالات التي يُخشى أن تأذي نفسها، فتقلّم أظافرها وتوضع تحت الإشراف المباشر على مدار الساعة، لكنني حين حضرت لم أجد أي إشراف أو مشرف، وكانت هبة تقف في ركن الحجرة تدفع عن نفسها شيئاً يهاجمها فتخفي وجهها تارة وتظهره تارة، وانعكست صورتها على الزجاج، فإذا بي أرى الفجم يستفرد بها في سجنها المبطن، أسرعرت أحاول فتح الباب لكنه كان موصداً بالفتاح، فأسرعت خارجاً منادياً المشرف الذي استيقظ لتوه قائلاً في قرف: "في إيه؟"، قلت في لهفة: "في حيوان بيهاجم هبة"، قفز مفزوعاً وجرينا نحو الغرفة وهو يقول: "يا نهار اسود حيوان! وده دخل إزاي؟"، وما إن وصلنا، حتى نظر من خلال الزجاج، فرآها تصارع الهواء صارخة: "ابعدوه عني.. كفاية"، فالتفت إليّ سائلاً في حنق: "حيوان إيه اللي بتقول عليه؟"، قلت وأنا أشير

للفجم: "مانتش شايف!"، قال: "دي بتصارع حاجة في مخها يا دكتور، وبعدين انت إيه اللي جابك هنا؟"، قلت: "أنا واخذ تصريح من دكتور عويس أتابع حالتها"، قال: "إنت امتياز؟"، قلت وقد بدأ صبري ينفذ: "مش مهم أنا إيه، افتح الباب"، في عناد الموظفين اتجه إلى كرسي وجلس واضعا ساق فوق ساق: "هاتلي الكلام ده مكتوب ومختوم من دكتور عويس"، لم أتحمل بروده، فانقضضت عليه أوسعه ضربا، ونجحت في استخلاص المفاتيح منه، وأفلت مني هاربا وقد فاجأه هجومى: "وديني لأبلغ عنك، أنا تضربني! طب حوريك"، خرج فأغلقت باب القسم الخارجي بالمفتاح، وفتحت باب هبة ودخلت، ما إن رأيتي المسكينة، حتى ارتمت في حضني باكية: "حوشه عني، بيعضني.. كفاية"، أمسكت بالقلم وطعنته كما طعنته من قبل ففر هاربا، وما إن اختفى حتى هدأت هبة واستكانت وجلست مرتعشة في ركن الحجرة، اقتربت منها وجلست بجوارها، وقلت: "ما تخافيش أنا مش حسيك"، أشارت إلى القلم بعينها فقلت: "ده قلم بحارب بيه الفجم"، ترددت قبل أن تمد يدها تمسك بالقلم تتأمل ذلك السلاح الصغير الذي يقهر الوحش، فقلت مطبقا يدها لتحفظ بالقلم: "خليه معاكى"، لأول مرة تبسم واحتضنت القلم بكلتا يديها كأعز شيء في حياتها، لاحظت أن طعامها لم يمس، فقلت: "مش حتاكي؟"، هزت رأسها نفيا فقلت: "بس أنا جعان"، زحفت على ركبتيها وأحضرت الطعام وناولته

لي، فقلت: "مش حاكل إلا لو كلتي معايا"، فمدت يدها وراحت تأكل قطعاً صغيرة، فشاركها كأني أكل معها، وفجأة سمعنا خبطاً على الباب الخارجى الذي نسيته مغلقاً.

عادت هبة تنكمش في ركن الحجرة لدى سماع صوت الخبط، قمت متجهاً للباب الذي زاد الخبط عليه بأكثر من كف ثقيل، ظل يتصاعد حتى تحول إلى محاولة اقتحام، لدرجة أني ترددت، لكنني قررت المواجهة، فمن يقف في وجه الفجم لا يخاف من مواجهة بعض الرعاع، وكما توقعت وجدت المشرف الغبي ومعه ثلاثة من أمن الكلية لا يقلون حجماً ولا غباوة عن ضرغام، فأعدت النظر في مقارنتهم بالفجم، وما إن انفرج الباب حتى دفعه أحدهم فكاد يوقعني أرضاً، فتراجعت في رشاقة متفادياً خبطة الباب، وفي ثوان كنت مكبلاً من يميني ويساري مشلول الحركة من اثنين من الشيران المطيعة لأوامر البيه المشرف، الذي تقدم نحوي في ثقة وابتسامة تشفي تكسو وجهه، وقال: "بقى بتضر بني"، قلت ولا أدري كيف واتتني الشجاعة: "ماهو من غباوتك"، يبدو أن اليأس مرتبط بالشجاعة، وقد قال جدي الكبير مرة: "ما تحاربش حد ماعدوش حاجة يخسرها"، قال في برود لزج: "طب وريني بقى زكاوتك حتنجيك مني إزاي، بس قبل ما أفرمك بدي أسألك.. كل ده عشان البت المقفعة دي؟"، قلت: "دي مريضة وعازية عناية"، فضحك عن أسنان مثرمة وقال: "لا ناصح يا مفتح"، ثم انقلبت سحنته مكفهرًا صارخاً: "إنت فاكرنا بقرون؟"، اندهشت حقيقة

من تفكيره، فابتسمت مستهزئاً من حقارة الفكرة، وقلت: "مش بقولك غبي"، ثم نظرت ناحية المسكينة المتكورة في ركن الحجرة فنظروا معي: "ده منظر واحدة تتعاشر ولا حتى يتبص لها"، ويبدو أن منطقي كان قويا لدرجة أنني اكتسبت تعاطف الثيران، لكن الوغد صاح: "الكلام ده مش حينجيك من إيدي"، ثم ملتفتا إلى الثيران آمرا: "نيموه"، وبضغطة واحدة نيموني، ووقف فوق رأسي ثم رفع قدمه وتلذذ وضع حذائه فوق صدغي، وقال من بين أسنانه: "بقى عاملي فيها دكتور، طب إيه قولك إني بعد ما أكسر لك عظامك، حقدم فيك بلاغ بالاعتداء عليّ أثناء تأدية وظيفتي، والشهود أهم".

قبل أن أرد جاءني صوت أعرفه بعث الأمل في دمي، وقبل أن أقف كان تامر وتوم وجيري يهجمون على الحرس هجمة رجل واحد أربكتهم، وظهرت قدرات تامر الرياضية خصوصا في الملاكمة حين عالج أقرب الحرس بقاضية خطافية أسقطته أرضا، وحاول جناح الحرس الأيمن شن هجوم مضاد، لكن قوات المشاة المترجلة المكونة من بهجت ومدحت تصدت لهم وحاصرتهم، حتى تمكن تامر باعتباره المدفعية الثقيلة أن يدك حصونهم بضربات المستقيمة، فبدأت قوات العدو تتراجع، ومن موقعي على الأرض تدرجت فصرت خلفهم فتكعبلوا في ووقعوا، انقضَّ عليهم تامر وبهجت ومدحت ولم يتركوهم إلا سطيحة، أما الوغد فقد انزوى في ركن مذعور، اقتربت منه في خطي النمر قبل الانقضاض فقال بصوت رعيد: "يا دكتور

أنا ماضر بتكش"، فلم أرد، لكنني أشرت إلى الأرض فركع، فدفعته بقدمي فاستلقي، فوضعت حذائي فوق وجهه وقلت: "أعمل فيك إيه؟"، بدأ يتشحتف باكيا وقال: "والله العظيم والله العظيم ما عملتلك حاجة"، لشدة اشمئزاي منه تركته، ورفضت أي محاولة للمساس به، لكن تامر لم يخلصه ذلك، فأوقفه ولطشه قلماً من باب الإهانة: "ماتعملش كده تاني يا حيوان"، وما إن سمحنا لهم بالرحيل، حتى خرجوا عدواً، والتفتنا إلى هبة.. أين هبة؟ لقد اختفت!

19

بحثنا عنها في كل مكان، وتبادلنا الآراء حول احتمالات أماكن وجودها، فاستقر الرأي أن نسأل عنها في الشقة التي تقطنها، فتوجهنا من فورنا إليها، لاقانا صاحب العمارة الجالس أمام بابها يستمع لكاسيت مزعج لواعظ بدوي يصرخ بلا مبرر، سائلا: "عايزينها في إيه؟"، أخبرناه أنها اختفت من المستشفى، وأننا قلقون عليها، فقال: "وانتو تقربوها؟"، قلنا: "زمايل"، قال مستهجنا: "نعم يا أخويا! زمايل!"، قلت وقد بدأ صبري ينفذ: "هو لازم نقربلها عشان نسأل عليها؟"، فلم يعجبه نبرة صوتي، فوقف مواجهها مبديا استعدادده للغباوة: "ورينا عرض كتافك، ولو حد منك هوّب ناحية البيت هنا، مش حيحصله طيب"، فتبادلنا النظرات نقيم الموقف فنحن أربعة، وهو وراءه عمال المحلات أسفل عمارته والشارع والحى، فقررنا الانسحاب.

ماذا حل بالناس؟ فمنذ أن حللت وأنا لا أرى سوى الكره والبغض والحقْد والنفور، أين كنت من هذا كله؟ كيف نما وترعرع بين الناس؟ يبدو أنني استغرقت كثيرا في دروسي ومذاكري ومستقبلي طوال السنوات الماضية، فلم أرَ الفجم وهو ينهش البلد ويث سمه في أجساد وأرواح الناس، وأفقت على صوت بهجت: "تفتكرو بتوع الأمن اللي ضربناهم حيثكو؟"، أكد مدحت: "ويفضحوا أنفسهم ويطلعوا انضربو من شوية عيال؟"، ارتحت لهذا التفسير، فهم صعايدة أكثر منهم رجال أمن وقانون، ولن يضحوا بسمعتهم، وقطع جلستنا صوت الواد عجينة وهو فراش بيت الطلبة يطرق الباب زاعقا: "يا دكتور جاد، الباشا دكتور عويس عايزك تروحله مكتبه"، توترت الأعصاب وتوجسنا وقمت أغتسل وأغير ملابسي وأنا كلي حيرة وقلق، فهذه أول مرة يرسل دكتور عويس في طلبي، أكون المشرف الوغد اشتكاني؟

لم يقل كثيرا، فقط سألني "إيه اللي حصل؟"، فحكيت له كل ما جرى من ضربي للمشرف الغبي حتى جلستنا في غرفتي، الصراحة راحة، فتفكر قليلا وفي هدوء، قال: "يعني لا سألت عن جدولك ولا تكاليفك ولا دراستك من ساعة ما رجعت"، قالها تقريرية ثم أكمل: "يظهر النصيحة الشفهية مش حتجيب نتيجة معاك.. إنت حتيجي تشتغل معايا"، لم أصدق نفسي! فالدكتور عويس ليس فقط عميد الكلية، بل له عيادته الخاصة والتي تعد أكبر وأشهر عيادة في مدينة أسيوط والمحافظة كلها، بالإضافة

إلى عمله في المستشفى الجامعي كجراح عام، وكم سمعنا عن أطباء كبار بدأوا معه في سنة الامتياز، واليوم يمتلكون "خمسة عين"، عيادة وعربية وعقار وعروسة وعزبة، وهو حلم أي شاب يدرس الطب، وانتشلي من انتشائي سؤال الدكتور عويس: "قلت إيه؟"، قلت ما يجب أن يقال في تلك الظروف التي لا تسنح إلا لمحظوظ ابن محظوظين، لكنني أردت: "بس موضوع هبة اللي..."، قاطعني رافعا كف الاشتراط: "الي يشتغل معايا ما يعملش حاجة تانية أبدا شوف يا جاد، فيه حالات ما تضعش فيها مجهودك ووقتك؛ لأنها تعدت مرحلة العلاج، ثانيا إنت حتخصص جراحة عامة مالكش دعوة بالطب النفسي"، ثم قام واقفا: "مستنيك في العيادة الساعة سبعة"، وصرفني.

أهكذا! فجأة تبدأ حياتي العملية! دون إذن مني أو سؤال إن كنت مستعداً أم لا؟ كثيرون يمرون بتلك اللحظة، لكن قليلون من يقفون عندها، وفي غرفتي استلقيت على ظهري عاقدا يدي خلف رأسي في انتظار الموعد المرتقب ورحت أتلذذ بتفصيل اللحظة، وفكرت أن أدون يومياتي كطبيب يبدأ حياته العملية، ولأستمر في كتابتها حتى تصير كتابا يستفيد منه الأجيال القادمة بعد أن أكون شبت وأثقلنتني وأصقلنتني التجارب، انتهت من سرحاني على صوت واهن يناديني، فأرهفت السمع، وفجأة سمعت نقرا على شيش الشباك فأسرعت بفتحه، فإذا هي هبة متسلقة ماسورة الصرف بجوار شبكي في الدور الرابع من المبنى: "إيه الي جابك هنا يخرب بيتك"، قالت بوهن ينبى عن ضعفها: "الحقني"، وأمام استغاثة مثل تلك لا تملك

إلا أن تغيثها، ففتحت الشباك عن آخره ومددت لها يدي، فأمسكت بها وقفزت فصارت داخل الحجرة، نسيت الخطر الذي يتهددني لو اكتشف أحد وجودها، وحررت ماذا أفعل بها، لكنها بادرتني وهي تسقط جالسة على السرير: "جعانة"، أسرع بإخراج علبة المنين التي تزودني بها أمي، ورحت أبحث عن غموس، لكنني لم أجد، وحين التفت إليها كانت قد التهمت عدة وحدات وانقلبت على جنبها وجفونها تثقل، صحت هامسا: "بتعملي إيه؟"، لكنها راحت في سبات عميق، نظرت في ساعتي فوجدتها السادسة والنصف، فقررت اللحاق بموعدي وليكن ما يكون، وخرجت وأغلقت الباب بالمفتاح آملا أن تظل نائمة حتى أعود.

20

قطعت المسافة من بيت الطلبة للعيادة في نصف ساعة، وهي لا تتحمل إلا عشر دقائق بالخطوة العسكرية، كنت سرحان في تلك المصيبة الموقوتة التي تركتها في غرفتي، وصل الأسانسير إلى الدور العشرين، وما إن خرجت حتى هالني ما أرى، فالعيادة تحتل الدور بالكامل، أي ما يساوي مساحة أربع شقق كبيرة "بسم الله ما شاء الله"، هكذا علمني جدي أن أقول حين أنبهر بملك غيري، لم يتوقف ذهني عن الفلسفة الكدابة وفكي مدلى وعيناي مفنجلتان لما أرى من نصاعة بياض الحوائط وأناقة مقاعد وكنب الاستقبال، ثم اللوحات المزينة لتلك الحوائط، كلها تبعث للتفاؤل والراحة بألوانها الهادئة الرقيقة ومناظرها الطبيعية، بالتأكيد المريض الذي يدخل هذا المدخل سيشفى من أي علة، ثم رائحة العطر الذي ينتشر شذاه في جو المكان، وصوت الموسيقى الذي بالكاد يلامس أذنيك فتراجع نفسك

إن هممت بالكلام، فيخرج صوتك همساً، كل هذا في كوريدور السلم،
فماذا يوجد في الداخل؟

ويخطوات شغوفة حاولت أن تكون وأودة توجهت إلى باب زجاجي
معتم يحمل لافتة "الإدارة"، ويهدوء فتحته ودلفت إلى حجرة السكرتارية،
وهي صالة كبيرة تضم ثلاثة مكاتب أنيقة مزودة بشاشات كمبيوتر خلفها
تجلس ثلاث حسناوات بين الأسمر والخمري والأبيض، والخميرية تسألني:
"أي خدمة؟"، قلت: "الدكتور عويس من فضلك"، قالت مبتسمة: "حضرتك
الدكتور جاد؟"، هزرت رأسي في بلاهة فرحاً لأنها عرفتي، وقامت مرحبة
مشيرة لي أن أجلس لحظة ودخلت من باب جانبي لاحظت رشاقة عودها،
لكنني غصضت الطرف كما علمني جدي الكبير، وحين جلست أصبحت
في مستوى الفتاتين الجالستين والمكاتب مفتوحة عن سيقان مرمية لا
تتوخى صاحباتها الحرص على إخفائها: "اتفضل يا دكتور جاد"، هكذا
أمرتني الخميرية، فقممت داخلا، وهول ما رأيت.

مدينة أسيوط كلها تقبع تحت قدميك، هذا أول انطباع يصدمك من المنظر
البانورامي المفتوح الكاشف للمدينة كلها، ونهر النيل ينساب في رسوخ يشق
الأرض الزراعية، فشهقت شهقة البنات قبل المسورقة، ويبدو أن الدكتور
عويس تعود هذا الانطباع، فهتف ضاحكا: "تعالى ما تخافش مش حتقع"،
اقتربت مصافحا: "ماتأخذنيش يا دكتور مش واخدع الارتفاع ده"، قال
وهو يجلسني: "أمال لو رحت أمريكا وطلعت ناطحات السحاب"، قلت

بلا وعي: "حسورق" .. هنا تذكرت المصيبة النائمة في غرفتي والتي لا أدري ماذا أفعل إذا استيقظت قبل أن أعود، وانتبهت على الدكتور عويس يقول: "قلت إيه؟"، قلت بابتسامة بلهاء: "آه طبعاً جميل"، قال: "يبقى على بركة الله"، وضغط زرا، أقبلت على إثره الفتاة البيضاء، فقام مصافحاً إياي مخاطباً الفتاة: "خدي دكتور جاد، سلميه الشغل في عنبر واحد"، فهتفت متسائلاً: "هو إيه عنبر واحد ده؟"، قال: "ما أنا لسه شارحك إنت سرحت مني برضه؟"، قلت: "هه لا بس .. عن إذنك".

تبعَت الفتاة البيضاء وعينيَّاي على ساقَيْها وحذاءها العالي تدب به دبات منتظمة في خطوات عسكرية، وتعجبت من اجتماع تلك الليونة والمؤخرة المتأرجحة مع هذا الانضباط العسكري المستقيم!، "يارب هبة ما تصحاً"، هكذا أسررت لنفسِي وأنا أدخل الأسانسير خلف الغادة البيضاء، ولا أدري لماذا أصاب بالاضطراب كلما جمعني بأثنى مكان واحد، فرغم ادعائي التفتيح وإيماني بالمساواة بين الجنسين وكل مبادئ العصر الحديث، إلا أن هناك جزءاً مني ما زال يختلج بالهلاوس الجنسية، خاصة إذا انغلق عليَّ باب مع أنثى من ذلك النوع الصارخ الأنوثة، فما بالك أنه أسانسير لا يزيد عن 4 متر مربع، ورغم أنها تقف ملتصقة بالحائط الأيمن وأنا ملتصق بالحائط الأيسر، إلا أن أنوثتها تطغى على مساحة المكان وترجمة وترخمه بكيان أثري جعلني ألتصق أكثر بالحائط، هل هو عطرها، والحمد لله أننا هبطنا دورين فقط لينفرج سجني وأخرج إلى براح الدور الثامن عشر، فالعبادة تتكون من ثلاثة طوابق تحتل قمة أعلى برج في مدينة أسيوط، وقادتني الهيفاء

اللعوب إلى باب يحمل لافتة "العناية المركزة"، واقتربت مني هامسة في نغم أرق من الفيثارة: "حعملك بريفينج لكل حالة، المطلوب منك المتابعة وتدوين ملاحظات"، قلت: "بس؟"، قالت "المبتدئين كلهم بيتدوا هنا"، لم يعجبني لقب مبتدئين، لكنني هزرت رأسي، فأردفت: "انت حتبتي دلوقتي، التقارير الي حتكتبها بتروح للدكتور عويس شخصيا، على أساسها بيتم تقييمك، الشيفت بتاعك 12 ساعة"، أنهت كلامها وخرجت، أهكذا! تبدأ حياتي العملية بتلك البساطة! بساطة الإجراءات وبساطة التكليف، فملاحظة المرضى في العناية المركزة شيء لا يحتاج إلى طبيب، بل يقوم به ممرضون وممرضات، ثم.. "يا نهار اسود! حعمل إيه في الناية النائمة في أوضتي!"، ونظرت في ساعتي فوجدتها الثامنة، أي أن عملي ينتهي في الثامنة صباحا، ووجدتني أقول: "بس أنا مش عامل حسابي"، فرددت على نفسي: "تعمل حسابك في إيه؟"، قالت لي نفسي: "حاكل إيه وفين؟ والحمام منين؟ وشلل أصاب تفكيرى، فألقيت بنفسى على أقرب مقعد متمثلا المثل القائل: "أخذوني من الدار للنار"، فمنذ ساعة واحدة كنت تلميذاً، وفجأة أصبحت دكتوراً، وهؤلاء المرضى مسئولين مني.

هل استيقظت هبة؟ تساءلت ناظرا في ساعتي، فوجدتها التاسعة إلا ربع؛ 45 دقيقة مروا عليّ وأنا طبيب، فلماذا أظل جالسا لا أفعل شيء؟ لماذا لا أكون طبيبا بالفعل؟ وقمت من مكاني وقد نفضت عن رأسي كل هلاوس السرحانات، واتخذت وضع الطبيب المهم عاقدا يديّ خلف ظهري ورحت أتجول بين الأسرة، وبينما أنا أسير متقلدا زمام الأمور، سمعت هنة ضعيفة

صادرة من ركن العنبر، فدق قلبي دقة استيقاظ الطبيب، فها هو مريض يستنجد بي فماذا أنا فاعل! لكنني لم أستطع تحديد مصدر الهنة بالضبط، فالأجساد المسجاة على الأسرة كلها واهنة والنظرات كلها مستعطفة راجية آملة مستسلمة، أيكون هذا الشيخ المرتعش! أم تلك السيدة مفرطة السمنة متحشجة الأنفاس، أم هذا الشاب الزائع البصر من أثر البنج؟ ورحت أجول بينهم بنظرات فاحصة، حتى سمعت الهنة من جديد، فالتفت بسرعة فلمحت رجل يحاول لفت انتباهي فتوجهت إليه ملياً: "عايز حاجة؟"، خرج هواء من فمه ولم أسمع ما قال، فانحنيت ملصقاً أذني في فمه حتى شعرت بحرارة أنفاسه، فجأة أطبق الملعون على شحمة أذني بأسنان كالكلابات الحديدية فصرخت، لكن الوغد لم يترك أذني، وخشيت أني لو حاولت أنتزاعها عنوة من بين فكية أن تنقطع، وراح يصيح من حنجرته وفمه مطبق على أذني، وأنا أصرخ بملء جوارحي لعل أن ينجدني أحد، لكن لا أحد في الدور كله، الله يلعن الطب والدكترة والكل كليله! ودني بتتاكل يا ناس، وكما عقرني فجأة تركني فجأة وظل فاغرافاه في حركة تشنجية، وقد غطى الدم فمه ولسانه، فأسرعت بإمساك أذني أطمئن على وجودها كاملة، ثم انتبهت إلى الحالة التي تعاني من تشنج شديد وصعوبة في التنفس، وصوت من سرير مجاور يقول في وهن: "هاتله دكتور"، وبلا وعي تحركت، لكنني توقفت متذكراً أني دكتور، لكنني لا يصح لا أدري كيف أنصرف! فوجدتني أسأل صاحب النصيحة: "هو عنده إيه"، قال: "صرع اجري ناديله الدكتور بسرعة"، وفي عنجهية الجهلاء وحماسة المغرورين قلت: "أنا دكتور"، لكن

يبدو أنني غير مؤمن بتلك المعلومة، لأنه لم يقتنع، وقال مستعجلاً: "أجري نادي حد كبير" أوصلت الوقاحة لهذا الحد! حد كبير! وكعادتنا حين نعجز عن الرد أو التصرف نتشاغل بشكليات ليس لها علاقة بلب الموضوع، والموضوع هنا أن هناك نوبة تشنج يجب علاجها بسرعة، لكنني وقفت أرد على هذا المريض الذي لا يعترف بي كطبيب، رغم ارتدائي البالطو الأبيض والساعة حول رقبتي، وحانت مني التفاتة إلى المتشنج فرأيت ما أفرعني، فهناك زبد أبيض بدأ يتكون يملأ الفم المفتوح، ونظراته تستنجد بي كأنه يقول لي: "مش وقت منظره كدابة يا ابن الحمار"، فأفقت لواجبي المقدس وأسرعت خارجاً من القسم.

كان استقبال العناية المركزة خالياً من جنس بني آدم، فأسرعت إلى الأسانسير وضغطت الزر، فأضاء يعلمني أنه في الثالث، لم أنتظر وأسرعت صاعداً السلم، وهو الدور التاسع عشر، ولافتة تشير إلى غرفة العمليات، لحظة خروج ممرضة صاروخية الهيئة فسألته بلهفة "هو مافيش حد هنا؟"، لم تفهم سؤالي فأردفت شارحاً: "فيه حالة تشنج صرع في العناية ومش..."، قاطعتني في لا مبالاة "اطلب 12"، وتركتني وقد زادت حيرتي! أطلب 12 إيه؟ وأطلبها مين؟ وما هي هذه الـ 12؟ وأسئلة كثيرة تداعت على عقلي المضطرب، فألغت بعضها البعض، فقررت تصعيد الموقف وأسرعت أقفز السلالم قفزاً إلى الدور العشرين.

ما إن فتحت باب الإدارة، حتى لاقتني ست أعين مكحولة حوراء ناعسة متسائلة عن سبب اقتحامي الغرفة بهذه الطريقة، فبادرتن بما لدي من معلومات قليلة عن الحالة، فقالت الخمرية: "طلبت 12؟"، وبصراحة خجلت أن أسأل عن هذه الـ 12 التي تحل كل المشاكل، وكذلك خجلت أن أعترف أنني لم أطلبها، فهي على ما يبدو نمرة الطوارئ أو الاستدعاء السريع، وهنا أدركت خطئي، فلماذا لم أفهم هذا من أول مرة؟ يبدو أنني مضطرب وعقلي غير صافٍ لعملي، وأفقت من سرحاني على صوت البيضاء: "مالك يا دكتور جاد؟"، كما دخلت فجأة استدردت وخرجت فجأة، وإحساس قاتل يتملكني بأني فاشل، خائب، سقطت في أول اختبار لحياتي العملية، تبخرت كل المعلومات الطبية عن خطوات العلاج السريع لحالات التشنج العضلي والعصبي والصرع والتشنج الهستيرى، كما تبخرت معها كل أحلام الدكتورة وبالتالي أحلام الخمسة عين.

21

قررت أن أهبط السلم، ومثل أي خايب وضعت يدي في جيوبي، كأن الأمر لا يعنيني وهبطت متمهلاً من الدور العشرين حتى الدور الأرضي، لم أتذكر أو أنتبه أنني أهبط، أهبط، أهبط حتى سفح العمارة، وأكملت إلى الجراج، وجدته مستسلماً لحالة الهبوط، وتملكني إيقاعها المستمر المتكرر المنتظم مثل صوت فلنكات القطار، حتى أفقت من سرحاني وأنا أقف وسط ساحة الدور الثالث تحت الأرض من الجراج، ساحة إسمنتية خالية، فقط عواميد وممرات وعلامات تقسيم مراكن السيارات وخطوط مرورية صفراء، ولا شيء سوى فراغ عقلي وإعتماد ذهني وظلام يكتنف المكان، فدفق قلبي دقات أعرفها تصييني قبيل وقوع خطر ما، فحاولت التغلب على خوفي غير المبرر وأفسره أنه لعب عيال، فهممت أن أستدير وأصعد، لكنني توقفت.. بل جمدت في مكاني كما حمد الدم في عروقي، فمع رائحة

الرتوبة استخلصت أنفي رائحته.. إنه الفجم.

شعرت به يتحرك، لكن ظلام المكان منعني من تحديد مكانه بصريا، فاستعنت بحدسي لكنه خانني ولم يدلني على شيء، ويبدو أن الحدس والفراسة وكافة الحواس غير الظاهرة تتعطل في المدن، معلوم فالمدينة.. "مش وقت فلسفة دلوقتي.. ركز"، هكذا أسررت لنفسي، وكنت لا بدّا بجوار عمود إسمنتي ضخم، وأغمضت عينيّ لأنشط حاستي السمع والشم، وبالفعل سمعت أصواتا تحركه تأتي من الناحية اليمنى، فهو حين يتحرك تسمع صوت حفيف جسم ثقيل يجر نفسه جرّا، وصوت أنفاسه هي أقرب للحشرة، ونفشت في أنفي رائحته تأتي من الناحية اليمنى أيضا، وبدأت أتحسس جيوب فوجدت سرنجة في جيب البالطو والسماعة حول رقبتى ومشط كبريت، لا أدري لماذا هو معي، وقلم جاف في جيب القميص، ومع تفقدي لأسلحتي زاد شعوري بالثقة، وبحذر تفرقت ملاصقا للعمود، وبحرص ملت أستطلع بطرف عيني الاتجاه الأيمن من المكان، فلم أر سوى ظلام، واللعين توقف عن الحركة، لكنه لم يتوقف عن التنفس، وخطرت لي خاطر يحمل بعض المخاطرة، لكنها ضرورة تكتيكية يجب استخدامها في تلك الظروف المقلدة، فأخرجت مشط الكبريت، وأشعلت عودا بيد مرتعشة، ألقيت به في الظلام الأيمن، وأنا أتبعه بنظري لعلّي ألح شيئا في اللحظات التي يتوهج فيه العود الهزيل.

لهول المفاجأة بدأت ظلال هزيلة تتراقص على الأعمدة العريضة، ظلال نار بدأت شاحبة هزيلة حمراء قانية تكاد لا تفرقها عن عتمة السواد، فخمنت أن عود الثقاب الذي رميته سقط على ما يبدو في كومة قش ورفائع الخشب من بقايا عمليات التشطيب المنتشرة في المكان، وفي حركة مجنونة نظرت بوضوح مبرزا رأسي من خلف العمود، فوجدت النار قد أمسكت ببقايا خيش ملوث بمواد الطلاء مما ساعد على سرعة اشتعالها وتبددت ظلمة المكان تدريجيا، فجلت ببصري وقد زال عني خوفي، ولمحت الملعون يتحرك خلف الأعمدة البعيدة مبتعدا عن النار، فقررت مهاجمته لأفسد عليه خططه الهجومية، قررت أن أحوله من صياد إلى فريسة، ووجدتني أقفز إلى براح الساحة ملتقطا عودا خشبيا، وأشعلت طرفه من النار التي زاد حجمها، وتوجهت إلى البقعة التي رأيته فيها، وكنت أسير في دوائر حول نفسي مثل راقص التنورة، وكما توقعت بدأ برأس المريض، لكنني لست مريض، هكذا أسررت لنفسي، لكنني جاوبتني: "الخوف مرض، الجبن مرض، الاستسلام مرض"، فالتحذت وضع رامي الحربة، وأطلقت الحربة النارية إلى عينه المنفجعة في توحش، فأصابته بؤبؤته فصرخ صرخة مدوية وتراجع، فانتهزتها فرصة ورحت أطارده، وأنا أصرخ كالمجنون: "أقف عندك يا جبان، عرفت يعني إيه تبقى فريسة؟ عرفت يعني إيه الخوف"، ورحت أهذي بعبارات مماثلة عن الشجاعة والقوة والحق، وأنا أنحني بين الفينة والفينة ألتقط ربحاً خشبياً نارياً جديداً، وأطلقه في أثر الملعون الهارب فتساقط الخشب المشتعل في كل مكان، وانتقلت النيران من بقعة إلى بقعة حتى حاصرته.

هنا توقفت أعيد تقييم الموقف.. فالنار تحاصرني من كل جهة، وأدركت مدى حماقتي حين انسقت وراء نشوة النصر، فأشعلت حريقاً في الدور كله المملوء ببقايا مواد البناء وصفائح زيت وجاز وسقالات خشبية، وأدركت أنني هالك لا محالة، فقد بدأ الدخان يتسلل إلى صدري، ويغشى عينيَّ وبدأت الدنيا تدور بي، فلمحت من بين جفوني المثقلة قبل الإغماء طفاية حريق، فأسرعت إليها واحتضنتها احتضان الغريق بلوح خشب، ونزعت صمام الأمان ووجهتها أمامي وضغطت.. لكن لا شيء خرج منها رغم تكراري المحاولة، إذن هو الموت.. يا للغباء، أنقذت نفسي من الفجم؛ لكي أموت محترقا.

فتحت عينيَّ بحذر، وكان وجه حوراء العين البيضاء، قالت وأسنانها تضوي، وابتسامتها تزغرد: "حمد الله السلامة، خضتنا عليك"، قلت في وهن ونبرة ارتياح "الحمد لله"، قالت وهي تطلب رقما من تليفون الحائط بجوار سريري: "الحمد لله إنهم لحقوك.. ألو.. أيوة يا دكتور.. آه فاق الحمد لله"، وعرفت فيما عرفت من حكي الناس تفاصيل ما حدث، فقد تصاعد دخان الحريق إلى الدور الأرضي، فأسرع الناس بخراطيم الماء وطفائيات الحريق يقاومون النار، ونجحوا في السيطرة على الدور الأول تحت الأرض، ثم وصلت المطافئ ونجحت في السيطرة وإخماد النار في الدورين الثاني والثالث حيث وجدوني مغمى عليَّ وأنا محتضن طفاية الحريق الفارغة، فخمنوا أنني كنت أحاول إطفاء الحريق، لكنني فشلت وغلبني الدخان، فاعتبروني بطلاً، وقد حضر الدكتور عويس بنفسه للاطمئنان عليَّ، مرتباً

على يديّ المربوطة، كما حضر لفيف من أصحاب المحلات وقاطني البرج ليشكروني على بطولتي، وحين خرجت من العناية المركزة كان صيتي يملأ مدينة أسيوط باعتباري الرجل الشهم الذي ضحى بحياته لإنقاذ البرج من كارثة محققة، ووجدت نفسي أقارن بين سكان المدينة المتحضرة المتعلمة وأهلي في الجبئية اللذين جعلوا مني بطلا مزيفا.

وجدت صورته تتجلى أمامي.. الملعون عقر أهل المدينة بالكامل، عقرهم برأس الجهل رغم المتعلمين والجامعة والمدارس والمدرسين والدكاترة، عقرهم برأس المرض رغم المستشفيات والعيادات والأجهزة الحديثة والمرضات الصاروخيات، عقرهم برأس الفقر في النفوس قبل فقر الفلوس، ووسط الزوار والمهنيين بالسلامة والساكرين رأيت وجه تامر وتوم وجيري وبصحبتهم هبة! فانتظرت حتى خف الزحام، وسألتها في شغف: "عملتي إيه؟"، قالت في بساطة: "خرجت زي ما دخلت لما صحيت مالميتكش"، ومع انتهاء وقت الزيارة انصرف الجميع تاركين إياي وأفكاري، أسترجع ما حدث وأقلبه على كل الأوجه، فمن وجهة نظرهم أنا بطل مغوار، ومن وجهة نظري أنا كذاب أشر؛ فقد كذبت من قبل كثيرا، ورحت أبحث في قراري عن سبب كذبي، فلماذا كذبت حين أرادني أهل قريتنا بطلا؟ ولماذا كذبت حين أرادني أهل المدينة بطلا؟ ولماذا دائما نبحث عن البطولة؟ وما هي البطولة؟ أن تأتي بها لا يستطيعه الآخرون؟ لكن الحاوي الذي يخرج الكتكوت من المنديل يأتي بها لا يستطيعه الآخرون، فهل هو بطل؟ بالتأكيد هو في أعين الأطفال بطل، وساقني تفكيري في البطولة إلى البحث في حياتي

عن موقف بطولي حقيقي، موقف واحد كنت فيه بطلاً، موقف واحد أتيت فيه ما لا يقدر عليه الآخرون.. فهالني أني لم أجد سوى موقف واحد فقط كنت فيه بطلاً، موقف واحد كنت منتصراً.. إنه السباق المنوي العظيم الذي تتصارع وتتسابق الحيوانات المنوية لتفوز بالبويضة الوحيدة، نعم هذا هو الصراع الوحيد الذي دخلته في حياتي وكنت فيه منتصراً، أي خجل، أي ضعف، والضعف مرض، لقد عقرني الملعون برأس المرض والجرح لم يتطهر كاملاً، السم يزحف ليقضي عليّ، بدليل هذا الوهن الذي أشعره وسلبني النعاس القدرة على استرسال أفكارى، فأسلمت له نفسي مغمضاً عينيّ فرأيت وجه جدي، يتسم في دعة الحكماء وترحيب المحب وقال: "شد حيلك يا جاد الله خليك جبتي بصحيح"، "ألست جبتيًا!"، قال: "الجبتي ما يضعفش.. الجبتي أقوى من الزمن الجبتي اتخلق لجل ما يدوم"، قلت: "الدوام لله"، قال: "ونعم بالله، لكن مش معنى إنك خسرت معركة تبقى خسرت الحرب"، قلت: "ليس لديّ سلاح" قال: "بل معك علمك وعلم أجدادك" قلت: "وماذا يفعل العلم مع عقول مظلمة؟"، وكلام كثير قاله جدي عن التنوير والصبر وسياسة الخطوة خطوة و... خخخخخ.

"شخيرك جانبني من آخر الدنيا"، هكذا قالت الخمرية ذات السيقان المهلبية وهي تعدل لي وضع المخدة خلف رقبتى، ووقفت ترمقني بابتسامتها الجذابة، وحين طالت نظرتها أصابني اضطراب، فقد أحسست أنها تنوي اقتحامى، تبحث عن مدخل مناسب لي، ولأنها لا تعرفني فقد طال بحثها، فابتسمت لأنني نجحت في قراءة أفكارها فقلت مسهلاً عليها الأمر: "تعاليلي

دوغري"، بهتت وانفلتت منها ضحكة صارخة: "يخرب عقلك عرفت إزاي إني.."، قاطعتها في رقة: "أنا مكشوف عني الحجاب"، اقتربت وجلست على طرف السرير في جراءة البنات المودرن، وبادرتني بسؤال مباشر: "إنت مين؟"، حاولت أن ألخص نفسي، وفوجئت أنني لا أعرف.. يا نهار أسود! أنا مين! حين قرأت الحيرة في عيني قالت: "أنا قلت كده، إنت جواك إنسان غير اللي براك تماماً فأنت مش عارف أنت مين فيهم"، أعجبني تحليلها فأومأت برأسي موافقا ومستريدا، فأكملت: "الي يشوفك يفتكر صندوق"، تعجبت من الكلمة، فشرحت: "صندوق يعني مربع ما فيكش أي بروز أو تميز.. مقبول"، قلت منها: "ده من برة"، قالت: "من جوة بقى دي الي عايزة بحث، لأن الي انت عملته ده مايعملوش إلا مجنون أو بطل بجد".

استحليت اللعبة؛ لأنني استحليت حديثها وصوتها وشعرها الذي تسقط خصلته الفاحمة على وجهها فترفعها، واستمر الكلام كنهر ينساب بين صفتينا، لم أسمع معظمه؛ لأنني كنت أسرح في شفيتها تارة، وفخذيها المكشوفتان من الجوب الضيق القصير، وعينا تتجولان في جسمها في محاولة لتعريتها دون أن تلاحظ هي ذلك، لكن على مين؟ فما من أنثى إلا قادرة على قراءة تلك السحنة الذكورية التي تتجلى في وجه الرجال وهم يظنون إن ماحدث فاقسهم! ولولا جهاز الاستدعاء المثبت إلى خصرها لاستمر الحديث لساعات وساعات، وقبل أن تخرج التفت إليّ قائلة: "الدكتور كتبلك خروج النهاردة"، ما لفت نظري في كلامها ليست المعلومة ذاتها،

بل طريقة إلقاءها، إذ خرج صوتها معدنيًا رصاصيًا ميكانيكيًا كأنه يصدر من آلة وليس من بشر، كانت من تكلمني الآن غير التي كلمتني وهي جالسة على طرف سريري، جمود في الوجه وبرودة في الصوت، وجمود الوجه لا ينم عن أي مشاعر سلبية كانت أم إيجابية، وبدأت أراجع نفسي في إعجابي بها هل أعجبتني كأنتي؟ بلا شك، لكن هل أستطيع معايشة إنسانة متحولة بهذه السرعة والقدرة؟ بالتأكيد لا، ورحت أقارن بينها وبين سمر، فكلتاها خمرية، وكلتاها ملفوفة العود سارحة الطول، لكن سمر إنسانة حية، لا تتلون ولا تتبدل ولا تتحول، تناسب انفعالاتها بين حزن وضيق وغضب ولوم ويأس وملل وفرح وأمل وضحك وباقي المشاعر التي تنتاب البشر، أما الحسناء الخمرية.. هنا توقفت مدركا أنني لا أعرف لها اسمًا، فقد التقيت بها أول مرة عند دخولي مكتب الإدارة والتقيت بها ثانيا عند لجوئي إليهن لنجدتي من خيبيتي القوية، ثم تلك المرة التي كشفت لي عن جوانب كثيرة في شخصيتها، أهمها الجراءة والاقتحام، إنها صفات ذكورية، فأدركت أن أنوثتها ظاهرية فقط، تتلخص في الوجه والجسم، أما الروح فهي روح رجل، أو أنثى مشوهة فنفرت منها، ورجوت ربي ألا يكون هذا حال نساء المدينة.

22

قام دكتور عويس مرحبا فاتحا ذراعية على غير العادة، واحتضنني مرتبا على ظهري، مثنيا على شجاعتي وسلامتي في حضور الجميلات الثلاثة اللاتي لا أعرف لهن أسماء حتى قال: "عصمت طممتني عليك"، فابتسمت ابتسامتي البلهاء سائلا "عصمت مين؟"، جاءني صوت الخمرية "أنا عصمت"، وأكملت السمراء: "وأنا نور"، وقالت البيضاء: "أنا مجد"، ثلاثة أسماء تصلح للرجال وللحریم، مركبة على أجسام أنثوية صارخة بثلاثة أطعم مختلفة وثلاثة أرواح ذكورية، وبإشارة من يده انصرفن، وأجلسني دكتور عويس قبالة قائلا "بص يا جاد، اللي حصل من يومين ده حادثة تكشف معدن الراجل، وأنا حبيت قوي اللي انت عملته، لذلك قررت اكافأك". كلام جميل من رجل جميل، "بس أنا عندي سؤال محيرني، والغريب إن ماحدث سأله "إنت إيه اللي وداك الحتة دي في التوقيت ده؟"، لم أقو

على الاعتراف بالحقيقة، فليس من المعقول أن أرد على هذه الحفاوة بأنى كنت أهرب، كنت أجبن، فلم أجد أمامي إلا ما قاله الناس عني: "لقيت دخان طالع من..."، قاطعني: "أيوة عارف بس إيه اللي نزلت تحت؟ إنت مش الشيفت بتاعك في العناية المركزة؟"، من جديد وجدتني أقف موقف هاملي، أكون أو لا أكون، فاخترت ألا أكون، كذبت قائلاً: "نزلت أجيب ساندويتش، فالأسانسير نزل بي الجراج، فشميت ريحة الدخان و..."، وقلت كلاماً كثيراً لا أدري إن كان صدقه أم جاراني في كذبتى وبلعها، لكن ما أدهشني حقاً تلك السهولة التي كذبت بها! فالمألوف أن الكذب حرام وعيب، فكيف يكون بهذه السهولة! ولماذا الصدق صعب؟ لماذا الأمانة صعبة؟ والحق صعب والشرف صعب وكل القيم الخيرة صعبة، أما الخطأ والعيب والحرام والمكروه والمرفوض فسهل! لماذا الخير صعب والشر سهل؟ أليس المفروض أن يكون العكس! أن يكون المألوف هو السهل، والخروج عن المألوف هو الصعب! يبدو أن الصورة انقلبت، لكن الأخطر من ارتكاب الذنب هو استمراؤه، وقد تأكد لي أنى كذاب محترف، أمارس الكذب بلا انفعال، لم يوخذي ضميري، أمات! أم قتله سم الفجم؟

"انت سرحت تاني يا جاد؟"، هكذا أعادني دكتور عويس إلى الواقع "لا أبداً أنا بس بفكر في كلام حضرتك"، كان يحذني عن مستقبلي، عن عقد ثلاث سنوات للعمل معه في العيادة براتب مُجَزٍّ، ورسالتي الماجستير والدكتوراه اللاتي يجب البدء فيهما فوراً، وأنه سيطلب أن يكون هو المشرف

عليها لثقته الكبيرة فيّ! ثقة! أتمنح العقود والمناصب والشهادات بناء على الثقة! "ها قلت إيه؟"، سألني: "إلي تشوفه حضرتك"، قام مصافحا: "عدي على البنات برة وامضي العقد"، فاتجهت إلى الباب خارجا، لكنه استوقفني سائلا "ألا بالحق، إنت لسه ساكن في بيت الطلبة؟"، أجبت بالإيجاب، فhez رأسه وتفكر لحظة، ثم جلس منشغلا إلى أوراقه قائلا: "قول لنور" فسهمت ولم أفهم، فرفع رأسه متعجبا: "قوله تديلك شقة"، لكنني ظللت جامدا حتى بعد أن فهمت، جمدت من هول المفاجأة، أهكذا يتغير الحال! أبهذه السهولة! ويبدو أني أطلت التنسح، فرفع رأسه من جديد: "حتنك واقف كده؟".

خرجت وأنا شخص آخر غير الذي دخل، فقد دخلت طالب امتياز أسكن في بيت الطلبة وأعيش على قدي، فخرجت طبيبا يشغل منصبا ما في عيادة الدكتور عويس.. لماذا يطلقون عليها عيادة؟ فهي مستشفى صغير، أفاقني من سرحاني صوت البيضاء مجد: "مبروك"، ودعتني للجلوس على فوتيل فخيم في الصالون الملحق، ففعلت مسحورا وأقبلت الحسنات الثلاث يحملن أوراقا وأقلاما، ناولتني مجد عقدا مكتوبا باللغة الإنجليزية مكون من عشرات الصفحات، ومالت تناولني القلم، فراغت عيني إلى صدرها الذي يقاوم محبسه الرقيق يريد أن يقفز متحررا، وحين أمسكت القلم لأوقع العقد مالت أكثر لتقلب لي الصفحات التي يجب أن أوقع عليها كلها، وبميلتها الثانية انكشف مشبك السوتيان الأسود ذي الأطراف الدانتيل ورحت أكتب اسمي فعلقنت سائلة: "إنت ما عندكش فورمة توقيع؟"، قلت:

"هه"، قالت الخمرية عصمت: "لازم يكون لك فورمة توقيع، وتكون شيك وتتمرن عليها عشان التعامل مع البنك"، "بنك إيه أنا ماليش..."، أوضحت عصمت التي يبدو أنها مسئولة عن الشق المالي: "قابلني بكرة الساعة 8 في البنك الي في الميزانين، حفتح لك حساب". هنا تذكرت موضوع الشقة، فخاطبت السمرء نور: "كان الدكتور عويس قالي اقولك على الشقة"، استدارت إلى مكتبها، وعادت بسلسلة مفاتيح تحوي عشرات المفاتيح: "خلص العقد، وتعالى نزل أفرجهالك"، فمضيت العقد وقد كلت يداي من تكرار كتابة اسمي، وتبعتها كالعادة متأخرا بخطوة حتى أخذ حريتي في النظر والتدقيق والبعثرة في كتلة المهلبية المتبخثرة، وانغلق علينا الأسانسير، وضغطت زر الدور العاشر، كان الكوريدور مدهوناً ومضاء بنفس طريقة العيادة، مما يعني أن الدور بالكامل تبع العيادة، فسألته متأكداً: "هو الدور كله بتاع دكتور عويس؟"، قالت: وهي تولج المفتاح في الشقة رقم 1001 التاسع والعاشر سكن الأطباء والمرضات".

دخلت، وأضاءت النور، فإذا بي في شقة من شقق الأحلام، بسيطة في ذوق راق، هادئة في نعومة، مفروشة في تناسق يناسب مساحتها الصغيرة، فهي مكونة من غرفة نوم وريسبشن ومطبخ أمريكي مفتوح وحمام والنوافذ ألومنيوم مصمت لا ينفذ منه ضجيج الشارع أو غبار الجو، والزجاج قاتم يميل للسواد فلا ترى نور النهار ولا حر الصيف أو برد الشتاء، وبعد أن أبدت إعجابي الذي حاولت أن يكون معتدلاً، متأكداً أن فكي لم يتدلَّ انبهاراً بما أرى، قالت: "الشقة تبع الوظيفة يعني العقد الي معاك بينص

إنك تخلي الشقة بمجرد تركك الوظيفة". وقالت كلامًا كثيرًا حول حقوقي وواجباتي، فقلت: "ما أنا حقرا العقد"، قالت محاولة إخفاء سخريه: "الناس تقرا قبل ما تمضي يا دكتور" خرجت منها كلمة يا دكتور كما لو كانت تقول لي يا حمار، وإن قالتها فمعها حق، وانتزعت نفسي من ذلك المطب سائلا: "هو انتو ليه بتقولوا عيادة؟ مع إني شايف مستشفى"، قالت: "عندك حق هي بالفعل مستشفى، لكن على الورق هي مجموعة عيادات" ثم أردفت شارحة: "ترخيص عيادة أسهل وأرخص من ترخيص مستشفى، وإجراءات المراقبة والمتابعة من الوزارة أخف بكثير"، هزرت رأسي فاهمًا متعلما أول درس في بيزنيس الطب، ثم توجهت إلى الباب قائلة: "أسيبك ترتاح وتأخذ على المكان"، قلت محاولا استبقائها لعل الشيطان يكون ثالثنا: "هو أنا أحققه فيها من دلوقتي؟"، هزت رأسها إيجابا، فقلت: "لوحدي؟"، حذتني بنظرة حرت في تفسيرها، فأرجأت التفكير فيها لبعدين.

توجهت من فوري إلى بيت الطلبة لأودع آخر عهد لي بحياتي الماضية، غير أسف عليها أو باك، شعرت بنشوة عارمة تحتاح صدري وتخف خطوتي وتحملني سريعا إلى حجرتي ببيت الطلبة، وكان أول لقاء لي مع ضرغام الغبي الذي لم يحرك ساكنا لدى رؤيتي، ألا يعلم هذا الحيوان أني لم أعد طالبا وأنني أصبحت طبيبا! ألا يظهر في وجهي هذا التطور والتحول والانتقال من حال إلى حال! ودخلت عابرا الفناء متجها إلى حجرتي، فلاقيت الواد عجينة الذي بادرنى متسكحا: "حمد الله ع السلامة يا دكتور، بقالك يومين غطسان"، وددت أن ألطشه قلما وأوبخه على طريقته غير اللائقة في الحديث

مع من هو أعلى منه مقاماً وعلماً ودرجة، وددت أن أقول له إني لم أعد طالبا يشكك الشاي والقهوة، وددت أن أقول كلاماً كثيراً، لكن قر في منه جعلني أتعالي عليه وأكمل طريقي إلى الحجرة، إلا أن الوغد تبعني مثرثراً حول ما حدث "في اليومين اللي غبتهم"، فمددت في خطوتي لعله يفهم أنني مستعجل ولا أريد رغياً فارغاً، لكنه استمر في الثثرة لدرجة جعلت الدم يغلي في عروقي وكورت يدي وهممت أن أستدير وأناوله يميناً مستقيمة في أنفه، لكنني جمدت حين سمعته يقول: "والبت هبة المسطولة اللي كانت نائمة في أوضتك روخرة اختفت"، توقفت الأرض عن الدوران.. لحظات لم أستوعب ما يقول، ووجدتني أقول: "دي كانت عندي في المستشفى امبارح"، كأنه لم يسمع شيئاً قال وهو يهرش في قفاه: "لقيتها نائمة قلت ما فيش داعي أصحيتها وأعملك مشكلة، انت حبيبي برضه، بس دي بت معفنة قوي"، قالها بلكنة من يتهمني في ذوقي الحريمي، ثم أردف فاركا كفيه متمحلساً: "أي خدمة يا دكترة"، هذا الوغد يبتزني، يساومني هذا الكلب فهذه آخر مرة أراه فيها وليذهب إلى الجحيم وأنساه مع كل ما يربطني بحياتي القديمة: "إنت مسافر؟"، سألني، فقلت باقتضاب: "لا أنا ماشي.. أنا بقيت دكتور".

23

خرجت من بيت الطلبة ولم أنظر ورائي، وبعد خطوتين كنت قد نسيت غباء ضرغام ولزوجة عجينة وحجرتي الضيقة التي قضيت بها سبع سنوات، حاملاً أحمالى المكونة من حقيبة سفر كبيرة بها ملابس، وأخرى صغيرة تحوي أوراقى وكتبى، ومشنة تحوي الزاد والزواد، وتوقفت عند هذا الخاطر، كيف أدخل حياتى الجديدة بمخلفات قميئة مثل ما أحمل، كيف أدخل شقتى الفخيمة بمشنة وحقيبة مهترئة، ماذا لو رأتني الغادات الفاتنات عصمت ونور ومجد؟ فحياتى الجديدة يجب أن يكون كل شيء فيها جديداً، المأكل والملبس والأسلوب والكلام والمشية والوقفة والإيحاء، كل بحساب مدروس ولهدف محدد، كفاني حياة العباطة التي كنت أحيائها وشعرت أنى كبرت، نفس الإحساس الذي انتابني حين اكتشفت ذكورتي، يوم بلغت وتحولت من صبي إلى فتى.. ظللت واقفا مدة طويلة فوق أشياءى، ثم

قررت فجأة أن أتركها بلا وداع أو حسرة أو ندم أو وحشة، وأكملت طريقي حاملاً حقيتي الصغيرة التي تحوي أوراقي وكتبي فقط.

ما إن وصلت البرج، حتى لاقاني السياس والعمال وأصحاب المحال التجارية بترحاب يليق بالبطل الذي أنقذ استثماراتهم وأكل عيشهم من الحريق، وكانت فرحتهم بي كساكن جديد في البرج تفوق الوصف، وصعد معي إلى الشقة سايس الجراج حاملاً عني الحقيبة، وعامل التوصيل من مطعم البرج حاملاً ما لذ وطاب من مأكولات واجب ترحيب من صاحب المطعم الحاج بدوي الأسيوطي، وعلى مدار باقي اليوم توافد مندوبون بالنيابة والأصالة عن باقي أصحاب المحلات محملين بالهدايا والهبات والنفحات تعبيراً عن امتنانهم لفضلي وتعظيمهم لمقامي وعرفانا بقدري، ويومها حصلت على لقب باشا، فالكل ينادونني بالباشا، أصبحت مثل لواءات الشرطة والمحافظ وباقي الباشوات الذين يملأون البلد، إذن فليكن سلوكي وحياتي مناسبين لهذه المرتبة الرفيعة، ولتذهب حياة البسطاء إلى الجحيم، وليذهب الفقر والجهل والمرض إلى حيث ألقت، وتمددت على الكنبه.. أسف الصوفا الأمريكية عاقدا يدي خلف رأسي وابتسامة انتصار تعلو وجهي مستشعرا أن الله قد رضي عني وأعطاني من واسع باب رزقه، وظللت على جلستي تلك مدة طويلة أستلذ بإحساس الانتصار وطعم الوصول وحلاوة النعمة، وخطر في بالي أن أعلق سورة الفلق درءاً للحسد، هنا تذكرت ما أؤخذني، فعلى مدار الأيام الماضية لم أصل ركعة واحدة، وكانت جفوني قد ثقلت وغلبني النعاس ولفتني لذة الرفاهية واسترخاء المنعمين، فأسلمت نفسي

للنوم اللذيذ هامسا لنفسي إن الله غفور رحيم، وبدأت خيالات وأشباح الغادات الفاتنات السمرراء والخمرية والبيضاء تداعب خيالي، وتداعت صورهن في أوضاع... طاخ طاخ طاخ.. "يا ساتر يا رب فيه إيه!"، هببت من نومي مفزوعا مسرعا إلى الباب الذي كاد أن يتحطم تحت هبدات يد غشيمة وفتحته عن تامر وبهجت ومدحت وهبة، مقتحمين المكان وتامر يزعق: "إيه يا عم بنصحي في ميت؟"، وتم الاقتحام بنجاح واضعين ما يحملونه من زجاجات ويسكي وبيرة جالسين على العفش الجديد مبدلين إعجابهم ومباركتهم ونيتهم لتدشين المقر الجديد، هنا قلت "مقر مين؟"، قال بهجت: "مقرنا مقر الشلة، الدماغ..."، قاطعته بسرعة: "لا لا لا مافيش الكلام ده هنا".

وقع كلامي عليهم موقع دهشة، سرعان ما تحولت إلى خيبة أمل قبل أن تستقر على زعل، فجلست أشرح لهم عن وضعي الجديد: "يا أخوانا أنا لسه جديد في الشغلانة والعمارة، ما ينفعش من أولها أبوظ الدنيا، الأدوار كلها متراقبة بكاميرات، لما يشوفوكوا داخلين بقزايز وهيصة كده ما ينفعش"، أصر بهجت ومدحت على الانصراف قائمين مقموصين، الوحيد الذي تفهم موقفني هو تامر الذي قال: "عندك حق بس إحنا من فرحتنا قلنا نحتفل بيك"، فرغدت بهجت ولكزت مدحت مجلسهم: "اقعد يا ض أنت وهو، انتو حتعملوها زعلة؟"، غمغم مدحت: "ما هو كمان مقابلتك يعني..."، زغدته من جديد: "ما قلنا خلاص بقى"، أنهت هبة الموقف بأن قامت إلى المطبخ المفتوح وأحضرت طبقاً وشرعت تكسر سجائر استعدادا للفها،

فأخرج بهجت قطعة الحشيش واستقطع منها نصيب الليلة، وفتح تامر زجاجة الويسكي متجها للثلاجة صائحا: "يا عم اللي عليّ عليّ"، وكمان بأيس ميكرو، قمت إليه منتحيا به جانبا: "كنت عايزك في مشوار كده"، بشهامته الصادقة التفت لي مهتما فأردفت: "عايزك تنزل معايا تنقلي كام حته كده تليق بالوضع الجديد والشغل يعني"، وجدته يحتضني بفرح: "تصدق إن انت ابتديت تفكر صح، بس انت مش محتاج عربيتي، المول اللي تحت البرج فيه..."، قاطعته مخفضا صوتي: "عارف وكلهم عايزين يخدموني، أنا مش عاوزك سواق أنا عايز عينك معايا وذوقك"، "ما تقلقش"، قالها وضربني على كتفي ضربة حنينة كادت أن توقعني، وحمل الثلج في طبق غويط عائدين إلى الجلسة.

بادرني مدحت: "إحكيلنا بقى حكاية الحريقة والبطولة الخارقة"، هتف تامر: "آه صحيح دا حنا سمعنا بلاوي ع اللي انت عملته"، أصابني الشغف أن أعرف حجم وشكل الحكاية بعد أن لأكها الناس على مدار ثلاثة أيام، فكانت كالتالي: أني كنت في الشيفت بتاعي، وشيء إلهي قالي انزل أطل على البرج الجديد اللي حسكن فيه، وأول ما وصلت الجراج لقيت الدخان الاسود طالع من أول دور تحت الأرض، فجريت بسرعة وأخذت طفاية الحريق ولفيت البالطو الأبيض على وشي عشان الدخان، وابتديت أقاوم النار لغاية ما خمدتها، وكملت للدور الثاني وأخذت معايا طفائيتين احتياطي، والنار كانت أشد في الثاني ففتحت الطفائيات الثلاثة دفعة واحدة، وبقيت ألف بيهم زي الطاحونة داير ما يدور، لغاية ما طفيت الدور كله، ورحت

نازل للتالت وما معايش غير نص طفاية، فرغتها كلها على مصدر النار لكن الدخان كان ملا صدري، فدخت ووقعت وانا حاضن الطفاية"، ثم باقي المعروف من وصول المطافئ وإنقاذهم لي! إلى هذا الحد وصل تشويه الحقيقة، إلى هذا الحد يحتاج الناس أن يعيشون قصة بطولة فنسجوها لأنفسهم، مما دفعني أن أهز رأسي إيجابا، وقلت: "أحكيكو إيه ما انتوا سمعتوا كل حاجة"، واستمرت السهرة حتى الحادية عشرة، حين غمزت تامر، فقام معلنا الرحيل ومرسخا مبدأ النوم مبكرا، فقاموا مودعين تاركين آثارهم وخرجوا، ولدى الباب مالت عليّ هبة تهمس: "أنا مش مصدقة حكايتك، إنت الفجم عضك.. خلي بالك"، انغلق باب الأسانسير وظللت متنحا في كلام البت هبة.

استيقظت في الخامسة صباحا، يا دوب لحقت الفجر، وواجهتني مشكلة لم أحسبها، فليس عندي ملابس غير التي عليّ، وصنعت لنفسي فنجان قهوة من البن الفاخر الذي وجدته في المطبخ ضمن ما وجدت من فواخر أخرى مثل أصناف الشاي أبو فتلة وسكر وزيت وسمن وكل مستلزمات البيت الأساسية، والثلاجة عامرة بالفاكهة وزجاجات مياه معدنية والسواقع من عصائر ومياه غازية.

رحت أتجول في الشقة، أفف في كل ركن كما لو كنت أذاكر مقاساتها، لا ينقصها شيء، حتى التابلوهات على الحوائط كانت منتقاه بعناية وذوق رفيع، لكن إذا قارنتها برسم الواد حامد فهي لا تساوي شيئا، أي نعم هي

لوحات لمناظر طبيعية ومراكب الغليون متعددة الأشعة، وغابات وحدائق
نضرة وبحيرات لكنها ميتة أو بمعنى آخر هي هندسيا صحيحة، لكنها
صماء باردة، أما لوحات حامد فتتضح الحياة منها، كما أن هذه اللوحات
تشعرك بالغربة، فهي مناظر أوربية أمريكية بحتة، أما حامد فلوحاته مصرية
نوبية جبتيّة قحة، عموما هذه اللوحات الرشيقة تتمشى مع إستراتيجيتي
الجديدة، أن أنسى الماضي والقرية والناس حتى أصدقاء أسويط.

موعدي في العيادة في تمام الثامنة كما أكدت لي السمرء نور، لا أريد أن
أخطئ خطأ واحداً أو أبدي تقصيراً أو تهاوؤاً وكسلاً، فهذه فرصة "مابتجيش
غير مرة في العمر"، كما أكدت لي البيضاء مجد، فلاغتتمها وأثبت جداتي
في عملي الجديد.. عملي الجديد! ما هو؟ يخرب بيت دماغك يا جاد، فأمام
الصدور الناهدة والأفخاذ العارية والأنوثة الطاغية التي أحاطتني أثناء
توقيع العقد، نسيت أن أسأل عن وظيفتي الجديدة، وقعت على شيء لا
أعرفه، لم أسأل حتى عن الماهية، كل ما قيل لي "تكون على مكتبك الساعة
8 الصبح لخمسة بعد الظهر" مكتبي؟ ماذا أفعل خلف مكتب؟ وما
الوظيفة أو المنصب؟ وأسرعت إلى صورة العقد أقرأه لأول مرة، مررت
على الديباجات القانونية السخيفة بسرعة حتى وصلت للبند الرابع المعنون
بطبيعة العمل، فوجدتني المشرف المسئول عن حركة دخول وخروج المرضى
من العيادة! ما هذا! في الحقيقة استأنت جدا من الوظيفة التي لا تتعدى أن
أكون موظف حركة، مثلها مثل ملاحظ أنفار أو بالكثير مسجل أرشيف،
وفي فورة غضبي ألقيت العقد مقررًا الرفض وشعرت بإهانة، وما هي

إلا لحظات حتى أطل عليّ شيطاني يهدّني، أنا أعرفه هذا اللعين الذي يحاورني ويوسوس لي في الرائحة والغادية، لكنه هذه المرة يقول كلاماً معقولاً "اهدي يا حمار وبص حيدفعولك كام"، وبناء عليه أمسكت العقد وجريت بإصبعي حتى وصلت لرقم 7000 جنيه شهرياً، تزيد كل سنة 20% لمدة ثلاث سنوات غير الحوافز والبدلات والأرباح! يا للهول! يعني حخشلي في عشرة آلاف جنيه، والله كان عنده حق شيطاني أن يهدّني، ولست أدري لماذا تذكرت فؤاد المهندس في مسرحية المدير الفني حين قال: "طرطور بستين جنيه وماله"، فلاأكن طرطوراً أو مرطوناً أو موظف أرشيف بعشرة آلاف جنيه.. وما له؟!!

في تمام الساعة والنصف كنت أقف أمام باب الإدارة، وبعد عشر دقائق حضرت الخمرية عصمت التي ابتسمت مصبحة "صباح الخير.. مبدر يعني"، وفتحت الباب داخلة، فتبعته ممناً نفسي بصباح نادٍ وكوب شاي مع تلك الأمور، إلا أنها ما إن جلست إلى مكتبها حتى بدأت العمل فوراً كأنها ماكينة ضغط زر تشغيلها، لم تأخذ تلك اللحظات التي نأخذها عادة حتى نستفيق ونشرب الشاي والقهوة، وقد يستحلي البعض الإفطار الجماعي ثم دردشة الصباح.. منظمة العمل الدولية التابعة للأمم المتحدة أصدرت تقريراً عن عدد ساعات العمل في جميع دول العالم، فوجدوا أن الياباني يعمل من 9 إلى 10 ساعات يومياً، أما المصري 20 دقيقة في اليوم! الفارق المهول بين الرقمين هو نفس الفارق بين الخمرية وأنا.

فهي بدأت فوراً بالاتصال بالأقسام تطلب تقارير العمل في الليلة الماضية وأنا أفكر في صباح نادٍ مع الأمورة، هي تتحرك بسرعة وأنا مترخ، هي تنظر بين الفينة والأخرى في أجندتها التي تدون فيها كل شيء، وأنا أعتمد على الذاكرة وما تيسر به الحظ أن أتذكر ما يجب عمله، هي تسبق الأحداث وأنا أتبعها، هي ناجحة وأنا فاشل.. أعادتنني إلى الواقع وناولتنني مجموعة دفاتر قائلة بنبرتها الآلية الساقعة: "دول دفاتر القيد حتلاقيها متقسمة خانات، كل مريض يدخل العيادة يتسجل هنا، أهم حاجة تاريخ الدخول وتاريخ المغادرة عشان مراجع الحسابات..."، لم أسمع باقي ما قالت؛ لأنني سرحت في صدرها العرمرم، وأنا أقف قبالتها وهي جالسة إلى المكتب، وفاجأتني بسؤال: "أنت لسه ماجبتش هدومك من بيت الطلبة؟"، أقفت قائلاً: "لا حبقي أجيبهم بعد الشغل"، النساء دقيقات الملاحظة فيما يخص الملبس، وكنت أعتقد أن لا أحد سياتبهني بنفسي ملابسي منذ الأمس، تحدثت دون أن تتوقف لحظة عن الدق على مفاتيح الكمبيوتر، أو تتصل بتليفون تسأل عن معلومة، ولا تفتأ تنظر في ساعة يدها رغم وجود منبه فخيم على مكتبها، وساعة ضخمة على الحائط.

مع اقتراب عقرب الدقائق من تمام الثامنة دخلت نور ملقية تحية الصباح بطريقة ميكانيكية، ولم تهتم أن تتلقى ردًا، وفعلت مثل ما فعلت زميلتها.. ضغطت زر التشغيل منهمكة في استخراج أوراق من ملفات من أكثر من شانون، وفجأة رفعت رأسها تجاهي: "انت ماجبتش هدومك من بيت الطلبة؟"، وعادت إلى ما هي فيه، فابتلعت ردي وسكت، وفي تمام الثامنة

بالثانية دخلت مجد بياضها الوضاح وتحية الصباح التي لا ترد وقالت: "انت لسه ما جبتش هدومك من بيت الطلبة؟"، وصل إحراجي إلى مداه مصحوبا برنة زهق: "لأ لسه.. ومش حجبهم لأن هدومي كلها ماتنفعش للشغل"، نظرت إليهن: "إزاي تفوتكم حاجة زي دي؟"، من دون مقدمات أو كلام قامت مجد وصحبتني من ذراعي كأني حقيرة سفت تجر على عجل، واتجهت بي خارجين، فسألت: "حنروح فين؟"، قالت: "حنعدي على البنك نفتح لك حساب ونشتريلك هدوم"، رغم إحساس المهانة إلا أني منيت نفسي بخروجة طرية مع عصمت المهلبية.. ماذا حدث لي! فمنذ وطأت قدمي هذا البرج وأنا لا أفكر إلا في الجنس، وتقاربت فترات الاستشارة بعد أن كانت متباعدة، حتى صارت تلك حالتي المزاجية العامة، وانغلق علينا باب الأسانسير من جديد، ومن جديد تميت أن يكون الشيطان ثالثنا.

ما كنت أظنه فسحة طرية مع البيضاء المهلبية كان أشبه بمهمة عسكرية، فقد توجهنا إلى البنك أسفل البرج في تمام الثامنة والنصف وتمت إجراءات فتح الحساب في 45 دقيقة بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه، أفهمتني عصمت أنها ستخصم من حسابي آخر الشهر، ثم توجهنا إلى محلات الملابس المنتشرة بكثرة في المول، اشترت لي عصمت مجموعة ملابس ببا قيمته عشرة آلاف جنيه، وحين حاولت إفهامها أني غير جاهز لهذه الميزانية، أفهمتني أنه سيتم خصم كل المصروفات من ماهيتي على دفعات شهرية. فحمدت الله على السر، وفي تمام العاشرة صعدنا إلى العيادة، حيث أسلمتني عصمت إلى مجد، التي صحبتني إلى مكنتي الواقع في الدور الثامن عشر، وهو غرفة صغيرة،

بل قل صندوق كبير لا تستطيع أن تقول عليه أنيق، بل فقط نظيف، وهو ملحق بقسم الاستقبال حيث يرد الزبائن أول ما يردون لتسجيل بياناتهم في استمارات، أحفظها في ملف يحمل اسم المريض، واستمرت مجد تشرح لي تفاصيل عملي الممل لمدة ساعة تقريبا وتركنتي وانصرفت.

24

جلست أتأمل المكان، حوائط مصمتة بيضاء، لا صور ولا زرع أو ورد، وشباك أشبه بشباك السجن يطل على أسطح العمارات المجاورة انتزعتني من تأملاتي للمكان وصول مريضة، يا مهون يا رب، وبدأت عملي بهمة ونشاط بمجرد أن جاءتني الاستمارة التي دون عليها اسم المريضة كريمة الحاج فرج زيتون الأسيوطي، تاريخ الدخول.. ورحت أدون كل البيانات بدقة في الدفتر المكربن وأعطي لها رقمًا حتى وصلت لبند الطبيب المعالج، فسألت مرافقيها من النسوة المتشحات بالخمير وقفازات الكف عن اسم الطبيب الذي يباشر علاجها، فلم يعرفن، فتعجبت لأن الحالة مكتوبة استئصال جزء من المعدة، أي أن هناك طبيبًا كان يباشر الحالة، وهو الذي حوّلها للعيادة، وحين لم يجئني رد، رفعت التليفون وطلبت صفر واحد وهو رقم البيضاء عصمت، وبعد نصف رنة جاءني صوتها الساقع الميكانيكي

المحايد "عصمت" قالت اسمها ولم تقل ألو، فكما تعودت تحدثت بهدوء وأدب وود: "أيوة يا أستاذة عصمت أنا جاد ازيك؟"، لحظة صمت، ثم صوت غير فاهم: "إنت بتسأل على إيه يا دكتور جاد؟".

تذكرت الأفلام الأمريكية التي رأيته، وتكررت فيها مشاهد مكالمات العمل السريعة الحادة الجادة المختصرة المفيدة الباردة الخالية من كل مشاعر لأنهم أناس عمليون، ونحن أناس عاطفيون، فتجد مكالمات العمل تحوي كماً من السلامة والطمأننة على الصحة وصحة المدام والأولاد، ثم الدعاء أن يحفظهم الله ويبارك في وقتك، ثم الاعتذار عن التعطيل ثم تمهيد لطيف ثم رجاء إرسال البيانات المطلوبة.. نادتنني عصمت: "دكتور جاد"، فرددت مستيقظاً: "أيوة يا أستاذة أصل فيه حالة جت دلوقتي وملت الاستمارة من غير اسم الطبيب المعالج وأنا مش عارف..."، قاطعتني: "دخل الحالة وتعالالي"، فأدخلت الحالة وأخذت دفتر الاستمارات وصعدت، قابلتني عصمت بوجه جاد حاد مقطب حازم، ولقنتني درسا في أسلوب مكالمات العمل، فليس فيها ازيك وعامل إيه وأخبارك إيه، ليس فيها حكي تفاصيل، ليس فيها كتر خيرك أو شاكر فضلك أو والنبى، ليس فيها معلىش حعطلك أو لو فيها رزالة، فقط السؤال مباشرة وردة، بل وراحت تجري معي بروفة، حتى علمتني أن أسأل بلا مقدمات أو ذيول، فالوقت له ثمن، فسألته كما علمتني: "مين الطبيب المعالج؟"، قالت وهي تتجه لمكتبها تتابع عملها: "دي حالة جاية من نفسها مش محولة من حد"، قلت: "يعني أسيب الخانة فاضية؟"، قالت: "اكتبها باسمك" فاندھشت، رفعت رأسها شارحة:

"دي مجرد شكليات ما تقفش عندها، وبعدين اسمك على الاستثمار حيصاف لنقطك السنوية، لو مش عايز بلاش"، رددت بلهفة: "لا عايز، بس.. إيه حكاية النقط السنوية دي؟"، قالت: "كل دكتور له نقط بياخذها على شغله، بتتجمع آخر السنة، وعلى أساسها بتتحدد نسبة الأرباح، المتابعة غير الإشراف، غير الكشف، غير العمليات، كل تخصص له عدد نقط". هممت أن أستمّر في الأسئلة، لكنها عادت إلى عملها كأني غير موجود "أي أسئلة ثانية تبقى بعد ساعات العمل الرسمية"، هكذا صرفتني.

لا أدري لماذا نأخذ الكلام العملي بشكل عاطفي أخلاقي! فقد شعرت بمهانة من أسلوبها، لكنني تذكرت أنني جديد في عالم العمل، وحياتي الجديدة لها مفردات كثيرة عليّ أن أحفظها حتى أتكلم لغتها، وطبائع كثيرة من موروثات حياتي القديمة العاطفية الأخلاقية، عليّ أن أنازل عنها وألغيها من تفكيري وعدت إلى مكنتي وقد زدت خبرة وتعلمت جديداً، وبدأت أشعر أن وجودي في هذا المكان مفيد لي، فالدكتور عويس يعرف أي طبيب أولاً وأخيراً، فكونه يضعني على بوابة الدخول إنما كمن يبدأ من المطبخ، ففكرت يديّ مستشعراً أملاً كبيراً ونجاحاً مبهوراً، وأدركت أنني لو أثبت جدارة في موقعي البسيط هذا فسوف تنفتح أمامي طرق المجد والثراء.. وتتابع الحلات في اليوم الأول بين باطنة وعظام وجروح وإصابات وعمليات بسيطة مثل اللوز والمصران، حتى جاءتني كريمة الحاج عليش الأسبوطي.. جاءت بمفردها، خائفة متوترة مترددة، رغم ارتدائها النقاب إلا أنني لمحت في عينها ما حكى الكثير، سألتها عن اسمها فترددت، وقالت

بصوت مرعوش "كريمة الحاج عlish الأسيوطي"، هنا توقفت واضعا القلم، فهذه ثاني حالة تحمل اسم كريمة الحاج، بمعنى ابنة الحاج، وكنت أعتقد أن الحالة الأولى اسمها كريمة وليس كنية، فاستأذنت منها ودخلت أتحدث من التليفون الداخلي، فجاءني صوتها "عصمت" قلت مباشرة "فيه واحدة اسمها كريمة الحاج عlish الأسيوطي..."، قاطعتني: "دخلها واكتبها باسمك مش حتلاقيها طبيب معالج"، وأغلقت الخط.

عدت إلى كريمة الحاج عlish وسألتها عن الحالة، فتلعثمت وكادت تبكي وهمت بالانصراف، غلبني قلبي ولم أستطع أن أتخلى عن عاطفتي فقلت أوقفها: "بتشتكي من إيه؟"، ويبدو أن السؤال خرج من قلبي فوصل لقلبها، فعادت منكسرة وقالت: "نسا"، فأدركت خجلها معتقدا أنها تعاني من مرض نسوي مثل عدم انتظام الدورة الشهرية أو شيء من هذا القبيل، فسجلتها أمراض نساء، ووضعت اسمي في خانة الطبيب المعالج، وصحبته ممرضة الاستقبال إلى حجرة 102.. جلست إلى مكثبي وقد شارفت الساعة على الرابعة والنصف، وسرحت في تلك المريضة الصغيرة التي لم تتجاوز العشرين، لماذا جاءت بمفردها؟ وما سر توترها؟ ولماذا توقفت عندها بالذات؟ وتذكرت مقولة عمي ذهب "كل عيان هو أخوك أو قريبك"، وقال جدي الكبير: "شغلانتك مقدسة يا جاد الله، إنت إيدر بنا في الأرض، عليك تعالج وعليه الشفا"، رن جرس الانصراف معلنا تمام الخامسة، فأغلقت الدفتر بعد أن وقعت وانصرفت.

توجهت إلى الإدارة، فوجدت الفاتنات الثلاثة مجتمعات في الصالون الملحق مفترشات وجبة سريعة، فاعتذرت وهممت بالانصراف، لكنهن أوقفوني وأصررن على مضايفتي، فبعد انتهاء العمل لا حرج ولا قواعد، وبخجل شديد انضمت إليهن من باب الجوع أولاً، ووجدتها فرصة ثانياً لأزيد معرفتي بهن واستمتع بجماهن، خاصة وقد تحررن من الجاكيتات والبلاطي البيضاء وحتى الأحذية، واضجعت نور على الأريكة ممسكة بطبقها أسفل ذقنها سائلة: "عامل إيه في شغلك؟"، هزرت رأسي مبتسماً: "الحمد لله"، قالت البيضاء مجد وقد مددت ساقها الخافيتين على مقعد: "كنت عايز تسألني عن إيه؟"، أخذت وهلة استجمع فيها أفكاري حتى تذكرت: "آه الحالتين اللي جم باسم كريمة الحاج دول ليه مش يقولوا اسمهم؟"، صحيح أنا طيب لكن مش عبيط ولا أعمى، فقد سرت نظرات غامضة بين الثلاث غادات، وأجابتنني الخمرية عصمت وهي تلتهم طبق سلطة هو كل غدائها: "في الأرياف ما يبجوش يكتبوا اسم الستات والبنات في أي استمارة"، فأمنت بهزة من رأسي، وقلت: "أيوة بيعتبروها عورة.. مش فاهم ليه!", علقت نور: "تحلف"، قلت من باب الحديث: "بس أسيوط دلوقتي ما عادتش أرياف دي بقت زيهازي القاهرة"، قالت مجد: "من برة، لكن عقول الناس لسه مقفلة"، أضافت عصمت: "الجهل لسه معشش هنا"، وأشارت إلى رأسها، فعلقت نور: "الجهل بس؟. والمرض"، قالت مجد ضاحكة: "ربنا يزيد أهو كله مكسب لنا"، قلت: "مصائب قوم عند قوم فوائد"، فهتفت نور: "والاتنين ملومين ع الفقر"، بلا وعي قلت:

"فجم"، طالعني بنظرات متسائلات فكرت الكلمة شارحا "فجم.. فقر، جهل، مرض"، ضحك من تعبيري، وقالت مجد: "انت لذيذ قوي يا جاد"، في الأحوال العادية كنت سأطير انبساطا بمدح مثل هذا، لكنني كنت انشغلت عنهن وعن باقي المديح في شخصي ووسامتي وأدبي وأخلاقي، وباقي الثروة التي لم أسمع معظمها إلا لما عن إقامتهن في نفس البرج وعن حياتهن الخاصة، فمجد أردنية أصلا، وعصمت إسكندرانية، ونور خليجية هذا ما استطعت أن ألتقطه من الجلسة، أما نصف عقلي فكان في مكان آخر، كان عند الفجم وبدأت أربط بين الاسم الذي أطلقته منذ قليل وبين الوحش الذي أصارعه، فوجدت الصلة قوية ومنطقية ومباشرة، وتعجبت كيف لم أظن لكنة الاسم من قبل، وهل أنا فقط أم باقي من يعرفونه يجهلون العلاقة بين الفقر والجهل والمرض.. والفجم؟

مرتديا ملابس جديدة تقمعت على سنجة عشرة، لا أعرف ما هي سنجة عشرة تلك التي اتخذها الناس مقياسا للأناقة والوجاهة والשיاقة! وتوجهت من فوري إلى مكتب الإدارة، ليس لإثبات حضوري مبكرا، بل لأستعرض أيافتي، لكن ما إن دخلت ملقيا تحية الصباح بابتسامة رشدي أباضة وشموخ عزت العلايلي ونحنة عبد الحليم حافظ، إلا وقابلتني البيضاء مجد بوجه معدني: "صباح النور.. أيوة؟"، فحرت في أمري وهزرت يدي كطفل يقول: "أنا جيت"، فتحول رشدي أباطة إلى إسماعيل يس والعلايلي إلى شكوكو وعبد الحليم إلى القصري! قالت منبهة: "الزيارات الشخصية ممنوعة يا دكتور جاد"، وعادت إلى عملها، فجزرت

أذيال الخيبة والخجل، وخرجت وفي الكوريدور، التقيت بالخميرية عصمت التي بادرته: "فيه حاجة يا دكتور جاد؟"، قلت: "لا أنا بس كنت طالع أصبح"، قالت: "المجاملات الشخصية ممنوعة" وتركتني مبلولا، فاتجهت إلى الأسانسير فوجدته صاعدا فوقفت أنتظر وأنا مدلدل، وما هي إلا ثوانٍ وانفتح الباب عن السمرء نور التي بادرته: "إنت مش على مكتبك ليه؟"، قلت: "كنت.. كنت.. كنت بصبح"، وجاء ردها مشابهاً لردود زميلاتها: "اللقاءات الشخصية ممنوعة"، وتركتني محبطاً خجلان.

ما إن جلست على مكتبي، حتى رن التليفون، رفعت الساعة وقلت: "الاستقبال جاد"، بالضبط كما علمتني الغادات الفاتنات فجاءني صوت مجد: "فين التقرير بتاع امبارح؟"، قلت: "حعمله حالا"، قالت في بواخة: "ما هو لو انت على مكتبك في معادك كنت خلصته، الساعة 8 وعشرة"، وأغلقت الخط، ولا أدري لماذا تذكرت زكي رستم في فيلم نهر الحب وهو يقول: "دقيقة واحدة تفرق في مصير أمم يا هانم"، وظللت أسلي نفسي بشطحاتي وأنا أقوم بعلمي الروتيني في إعداد التقرير، وهو ملء جدول بتاريخ اليوم يوضح فيه حركة النزلاء والمرضى المقيمين والعابرين، وهذا التقرير يشمل عملي وعمل المناوب الليلي الذي يستلم مكاني والذي لم ألتق به حتى الآن، فأنا أنصرف في الخامسة، وهو يأتي في السادسة، لماذا هذه الساعة الفرق؟ وأنا أحضر في الثامنة وهو ينصرف في السابعة! وأنهيت التقرير وصعدت به.

دخلت المكتب دون أن أطرق الباب، ووضعت التقرير أمام مجد، واستدردت خارجاً، لكنها استوقفتني: "استنى رايح فين؟"، قلت: "التقرير أهو"، قالت شارحة: "لازم أراجعهُ وأمضيهولك"، وتركتني واقفاً حتى مرت بعينيهما الجميلتين على التقرير، ثم قالت: "فين خروج أوضة 102؟"، فحرت جواباً قالت: "أوضه 102 خرجت النهاردة الفجر، ليه مش متقيدة خروج؟" قلت: "أوضة 102 مين؟"، وأخذت التقرير أنظر فيه فوجدت أن غرفة 102 هي كريمة الحاج عlish الأسيوطي، فقلت: "آه دي كانت متحولة نسا، يظهر المناوب نسي يقيدها خروج"، هزت رأسها وقالت: "عيد التقرير وأيدها خروج"، قلت: "بس..."، قاطعتني نور: "دي شكليات يا دكتور ماتقفش عندها" وأضاف عصمت: "الروتين معطل".

جلست إلى مكتبي وطلبت ملف الحسابات لأستخرج فاتورتها وهي سند الخروج الذي يجب أن يرفق بملفها، لكنني فوجئت أنه ليس لها ملف! كيف هذا؟ ورفعت الساعة لأبلغ مجد بهذه المخالفة الشنيعة مثبتاً أنني صاحي مش نايم، ولعجبي أنها تلقت المخالفة بصوت بارد قائلة: "أنا قتللك تكتبها خروج مش تفتش وراها"، قلت: "ما أنا عشان أقيدها خروج لازم اشوف ملفها و.."، قاطعتني شاخطة: "قيدها خروج وبس"، ورزعت الساعة، هنا وجدتني أقف موقفاً هملتيّاً من جديد، فأسلوب التعامل هذا لا يصح ولا يليق، أنا ما حدش يشخط فيّ، واتكأت بكفي على حافة المكتب أهم بالوقوف والاتجاه إليها أريها مقامها، فأنا جاد الله بن آدم الجبتي، لكن في منتصف الوقفة تسمرت، إذ خرج لي شيطاني الصغير من ياقة القميص

وراح يوسوس في أدني: "حتعمل إيه يا حمار؟"، فظللت على وضعي نصف واقف ونصف جالس: "حطلع أوريها مقامها"، قال: "مقامها ثاني راس في العيادة ومديرتك المباشرة وروحك في إيدها"، فسقطت جالسا: "لازم أوقفها عند حدها، لازم تعرف أنا مين"، قال اللعين: "انت مين؟" قلت: "جاد الله بن..."، قاطعني: "إنت حتقولي اسمك! ما هي عارفاه، بس انت مين بالنسبة لها، بالنسبة للعيادة، بالنسبة للدنيا"، هنا توقفت فاقتدا الحجة والرد، فاستطرد: "افتكر كلام جدك الكبير، خليك متواضع، ماتحطش نفسك قدام عينيك، انت لو اتحمقت لنفسك يبقى بتدمرها، زيح نفسك من قدام عينيك عشان تشوف الموضوع"، قلت: "إيه الموضوع؟"، قال: "مستقبلك.. أحلامك"، ووجدتني أسأل نفسي عن أحلامي.. ما هي؟ كيف أرى نفسي بعد ثلاثين عاما؟ بلاش طب بعد عشرين طب عشرة أو خمسة، سنة، طب ثلاثة أشهر؟ وعجبت أني لم أستطع أن أتصور نفسي بعد ساعة واحدة من الآن! كيف هذا! أنعيش ونتحرك في الحياة هكذا بلا إرادة أو اتجاه؟ فوجود الاتجاه يخلق الإرادة، والإرادة تخلق الحركة، والحركة تتطلب خطة، والخطة تحقق خارطة طريق وخارطة الطريق توصل للهدف، فما هدي؟ وتذكرت سؤال جدي الكبير الدائم: "عايز تطلع إيه لما تكبر؟"، وها أنا قد كبرت، وبعد أيام سأستلم شهادة البكالوريوس وأستعد من فوري للماجستير، ثم الدكتوراه، ثم أصبح طبيبًا ولي عيادتي أو مستشفى باسمي.. كان حلم سمر أن أفتح مستشفى في قريتنا أعالج فيها الناس الغلابة.. كم كنت ساذجة يا حبيبتي، فعلاج الغلابة سيجعلني أغلب منهم، فالطب

يا حبيبتى أصبح استشارا وليس خدمة إنسانية، لكني أعدك إن ربنا وفقني
 وفتح عليّ وبقيت غنيًّا ممكن أفكر أفتح عيادة في قريننا، وبناء عليه تحدد
 الهدف الأول.. أن أكون غنيًّا، وبلعت كرامتي، ودون أن أدري هبطت ثاني
 درجة في سلم التنازلات وأمسكت القلم وكتبتها خروج ووقعت.

25

الأيام تمر بشكل متكرر نمطي ممل، حتى إن تفاصيلها تتداخل لتصبح الأيام كلها كأنها يوم واحد، النهار يتبع الليل، وفي النهار عمل وفي الليل فراغ، براح من الوقت لا يشغله شيء، حتى التلفزيون لا يثجد جديدًا، نفس الأفلام ونفس البرامج الحوارية، يقولون المقال ويلوكون الكلام ويهروا في المهري، أين الأصدقاء؟ ونظرت في ساعتني فوجدتها الثامنة، أكونون عند تامر، أم في شقة توم وجيري؟ وقمت مرتديا ملاسني وخرجت واضعا يدي في جيوبي وقفت أنتظر الأسانسير، وما إن فتح الباب حتى هبت على أنفي رائحة رطبة كريهة، إنها رائحة الفجم، وبسرعة تفقدت الكابينة الخالية ودخلت متوجسا ضاغطا زر الأرضي، وما إن تحرك حتى سمعت صوت خرفشة فوق سقف الكابينة، وفشلت أن أكشف سر الخرفشة من خلال فتحة التهوية ذات العوارض المعدنية وفجأة توقف المصعد عن الهبوط!

توجست وتراجعت ملتصقا بركن الكابينة وتابعت صوت الخرفشة الذي تحول إلى دق كما لو كان بمطرقة ثقيلة، ومع ثالث هبة سقط إطار فتحة التهوية، فازددت التصاقا بالركن الخالي، وفي ثانية كان رأسه الضخم ينفذ من الفتحة التي لم تسع إلا رأس واحدًا، كدت أخرق الحائط من شدة التصاقي، وركبني رعب الموت المحقق، فقد حصرني اللعين في مكان لا اختباء فيه ولا سلاح، وبدأ وجهه القبيح يقترب مني وأنا لا حول لي ولا قوة، ولعجبي كنت أظن أني سأغمض عيني حتى لا أرى انقضاضته الأخيرة التي سيجهبها عليّ، لكنني ظللت مبجلًا في وجهه الكريه مفنجل الأعين، وطال انتظار الانقضاضة التي لم تأت، بل راح يحرك رقبته في حركة ثعبانية صعودًا وهبوطًا ويمينا ويسارًا يتشممني حتى لامست أرنبة أنفه ملابسي، وبلسان خشن لزج لحس وجهي، وأكاد أقسم أني لمحت شبح ابتسامة! أي والله! أيعرف هذا البغيض الابتسام؟ ولم أصدق نفسي وهو ينسحب خارجًا من الفتحة كما دخل، وقبل أن أفيق من الخنضة تحرك المصعد هابطًا حتى وصلت الدور الأرضي، لينفتح الباب عن بعض السكان الصاعدين الذين لاقوني بالترحاب المعتاد لبطل البرج، ونظر أحدهم إلى إطار فتحة التهوية الساقط، وصاح: "البتاعة دي وقعت تاني! ما تشوفوا حد يربطها عدل"، فخرجت وظللت واقفا أحاول استيعاب ما حدث، لكنني أفقت على الرائعة السمرء نور تخرج من معرض سيارات البرج، فهتفت: "أوو دكتور جاد إيه الصدف الجميلة دي"، وتلقائية قبلتني على الطريقة الحديثة للسلام بين الناس الشيك، وقدمتني إلى صاحب المعرض، الحاج رجب

الأسيوطي، وتبادلنا التحيات وكلام اللقاءات العابرة، حتى قال: "يظهر الدكتور مش عايز ينفعنا"، قالت نور: "اصبر عليه ده ما بقالوش شهرين، ولسه مستلم شهادته" قال: "ينقي العربية اللي يحبها والدفع زي ما انتي عارفة"، قلت: "عربية إيه؟"، أخذتني من ذراعي مبتعدين: "الحاج رجب بيتشطر علينا يا سيدي.. إنت رايح فين؟"، شعرت أن وراء السؤال دعوة فقلت بسرعة وتأكيد: "ولا حتة"، قالت: "يبقى تيجي تتعشى معانا".

ما أعجب الجحيلات الثلاث! فهن في النهار رجال، وفي الليل إناث.. جدا، توجهنا إلى مطعم إيطالي في البرج، وتناولنا الباستا والنبيد، ومع الرشقات الصغيرة الرشيقة دار الحديث، لكن لأني غشيم رحت أعب من كأسَي كما الكازوزة، فأمسكت نور يدي منبهة: "إنت عطشان قوي كده؟"، فقالت مجد: "النبيت يتداق مش يتعب"، رفعت عصمت كأسها وقالت: "كده"، ورشفت رشفة صغيرة تكاد تكون بلة لطرف الشفة المكتنزة التي تدعوك لعضها.. أتراهما طبيعيان أم بوتكس؟ ورحت أتأمل وجوههن وأنا أتدرب على الشرب الشيك، لاحظت ملامح مشتركة بينهن، أولها عدم وجود تجاعيد في الوجه والرقبة، ثم الشفاه والخدود كاملتا الاستدارة والكلبظة، والحواجب مزجاة بعناية فائقة ومرسومة بدقة متناهية ليس فيها شعرة نافرة، والشعر نظيف ولا مع ومصفف لا يهزه هواء، فقط يتمايل مع حركة الرأس "انت ساكت ليه يا جاد؟"، انتبهت من غفلتي ووجدتني أقولها صراحة: "بفكر فيكم"، نجحت في جذب انتباههن، فقد قرأت الشغف يطل من العيون الست فقلت: "إزاي بتقدروا تعملوا كده؟"، زاد شغفهن

وركزوا معي بشدة" إزاي بتقدروا تبقوا الصبح حاجة وبالليل حاجة تانية خالص"، وخرجت الجملة الأخيرة تحمل معاني الإعجاب والبصيرة الصريحة التي توجيها حالة الانتشاء من النبيذ، فابتسمن وبادرتني عصمت: "هي الحياة كده، ما فيش حد طول الوقت على حال واحد"، علقت مجد: "دي تبقى ملل فشخ"، وأضافت نور: "انت بتستثمر وقتك في إيه؟"، تعجبت لكلمة تستثمر فأضافت: "طبعا الحياة استثمار للوقت"، وقالت مجد: "الوقت بفلوس فأحسن استثمار هو استثمار الوقت"، قلت معتقداً أني زفقتهم: "والقعدة دي استثمار برضه"، قلن معا: "طبعا"، وشرحت عصمت: "إحنا بنخرج تنفس ونغير جو ونبسط نفسنا عشان نشحن"، هزرت رأسي متفهماً وبنصف أذن سمعت ما تلا من حديث عن الاستثمار وأهميته، وأن الدنيا ما هي إلا استثمار كبير، وليست مسرّحاً كبيراً كما قال يوسف بك وهبي، كنت قد وصلت إلى حالة ما بعد الانتشاء من النبيذ، فقلت: "يعني معرفة الناس استثمار برضه؟"، أكدن لي أنه من أهم الاستثمارات، قلت: "فيه مثل يقول البعد عن الناس غنيمة، ومثل ثاني يقول معرفة الناس كنوز.. أنهي فيهم الصبح؟"، بلا تردد اخترن المثل الثاني، فالدنيا لا تسير إلا بالمعارف والأصدقاء، ورحن يلقنني دروس الاستثمار المفيد للمستقبل الجديد، لكنني كنت تركتهن في تلك المحطة وهبطت من قطار الحديث سارحاً في السؤال الذي لم أجد له إجابة، لماذا لم يلتهمني الفجم؟ وتذكرت لحظة تبلورت وتبروزت أمام عيني حين كان ملتصقاً بي يتشممني، رأيته بوضوح شديد، رأيت مسام جلده وثنايا جفونه وبؤبؤة عينه، رأيته لأنني

كنت مفنجلًا، لماذا لم أغمض عيني؟ نحن نغمض أعيننا في حالات الفرح الشديد، حين نحتضن عزيزًا غائبًا نغمض، وحين نشتاق بشدة نغمض، حين نخشع بشدة نغمض، حين ندعو بإخلاص نغمض، وحين نتذوق طعامًا جميلًا نغمض! يبدو أن أجمل اللحظات وأصدقها فقط هي التي لا ترى بالعين، هي اللحظات التي تسمو فوق الحواس، فتصبح حاسة النظر غير ذات قيمة، أما لحظات الخطر والخوف والوجل والرعب والهلوع والحذر فكلها تحتاج إلى كل الحواس لدرأ الخطر، وأفقت من سرحاني على البنات الفاتنات يطلبن الحساب.. أخ.. لحظة لم أعمل حسابها، وبدأت أتخس جيبني فالنقود التي أحملها يا دوب تكفي لباقي الشهر، لكن أنقذني قدوم صاحب المحل مرحبا ومعلننا أن الليلة على حساب المحل احتفاء ببطل البرج.. الي هو أنا.

26

يوم جديد يلغي ما سبق من أيام حياتي الفارغة، ليملأها بحياة لها معنى وهدف، ومع كل يوم درس جديد، وجزء جديد يضاف إلى جاد الجديد، ويتنقص من جاد القديم، أكاد أراني وأنا أنضج، أكاد أشعر بخلايا روحي تكبر وتتسع فيتسع معها أفقي ومداركي، وأدرك كم كنت عبيطاً ساذجاً، فالتفكير الأخلاقي البحت الذي كنت لا أعرف غيره لا يصلح للحياة العملية، حياة النجاح والوصول، حقيقة هناك بعض الألم المصاحب لعملية النمو، تماماً مثل ألم السيقان الذي كنت أعانيه صغيراً، وعندما أشكو ألمي، يقول جدي الكبير: "بتطول"، وها أنا ذا أطول وأكبر ويزداد حجمي، نفسيًا ومعنويًا وعقليًا، وبعد أن كنت عودًا يابسًا سهل الكسر، اشتد عودي وقويت عضلات روحي، والفضل لأستاذاتي الفاتنات اللاتي تولينني فكنتم لهن تلميذًا نجيبًا، فمثلاً أنا تربيته على إلقاء السلام وتلقي

الرد ورد الرد، فأقول: "السلام عليكم" واضحة وأعينها ويجب أن أكون مبتسماً باشاً، فيجىء الرد من نفس الطبقة "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، اتفضل" فأقول: "عشت أو دايماً عامر أو زاد فضلك أو تشكر يا كريم"، مصحوبة بلغة الجسد كاملة من رفع اليدين والتربيت على صدري وانحناء خفيفة بالجزع، وإياك أن تقولها وأنت مولى ظهرك أو تكون متحرّكاً، بل يجب إتمام عملية السلام من وضع الثبات وفي المواجهة، وإلا كان لها معنى آخر فقد يفهم الطرف الآخر أنك غاضب فيقول: "مالك يا جاد.. انت زعلان مني؟"، فأقول: "ربنا ما يجيب زعل.. ليه؟"، فيقول: "أصلك رديت السلام يعني كده خطيفي واديتني ضهرك ومشيت"، فأقول: "لا والله يا فلان أصلي كنت مستعجل حبتين"، فيقول: "وهم كلمتين السلام دول اللي حيعطلوك! ده السلام صدقة يا أخي"، وندخل في هري واعتذارات وتوضيح، وأحكي له سبب استعجالي الذي دفعني أن أكرت السلام وبعد نصف ساعة أقبل رأسه و"أنا محقوqلك يا عم" .. أي فراغ وضياح وقت كان ممكن أن يستثمر، تعلمت الدرس الأهم من معلماتي الساحرات أن الاستثمار في الوقت هو أول سلم النجاح: "ما تخليش دقيقة تعدي عليك من غير ما تكسب"، على حد تعبير عصمت "الساعة اللي تعدي عليك من غير ما تزيد تخسرك"، كما قالت نور، أما مجد فقالت: "الاستثمار الاستثمار الالستثمار"، قالتها ثلاثاً وجرعت ما بقي في كأس النبيذ الذي أصبح مشروبنا اليومي على العشاء.. زي الأجانب بالظبط.. وفي خلال أربعة أشهر كنت الزبون المفضل في جميع محلات ومطاعم البرج، واكتشفت أي لم أخرج إلى

الشارع طوال تلك المدة، لم أر السماء والشمس والنجوم.. يبدو أنهم من مستلزمات الفشل ومصاحبات للفشلة، بدليل أني في تلك المدة القصيرة ترقيت في عملي من مدون لعمليات الخروج والدخول إلى مشرف عام على الاستقبال، وبدأ أسلم الصعود يتحرك، لكن الإنجاز الأهم أني سجلت نفسي أو بالأصح سجل لي دكتور عويس في الدراسات العليا للحصول على الماجستير، وبدأت أخرج كتبي القديمة وأوراق لي علي أجد فيها ما يصلح كمادة للبحث الذي أنوي تقديمه تحت إشراف دكتور عويس، لكنه استدعاني في يوم وناولني مجموعة ضخمة من أبحاث الماجستير قائلا: "اقرأ دول واختار لك منهم واحد"، فتعجبت فشرح: "دول رسائل ماجستير اقرأهم وشوف انت عايز تعمل بحث في أنهي موضوع"، رغم عدم فهمي إلا أني هزرت رأسي وحملت الكرتونة الضخمة وخرجت، وأصبح وقتي مقسمًا بين العمل صباحا والمذاكرة مساء، لا يكسرهما إلا عشوة طرية.

كنت أعتقد أن كرتونة الرسائل التي أعطانيها دكتور عويس هي مجرد اطلاع على ماسبق للوصول إلى جديد، فهذه هي القاعدة الذهبية والهدف الأسمى من الدراسات العليا أن تصل لجديد، أو تخرج بنظرية، أو تطور مفهوم أو تكتشف طريقة، فشهادة الدكتوراه تعني بالإنجليزية. Ph. D "Philosophy degree" أي درجة الفلسفة، وكلمة فلسفة تعني أن تضع يدك على موضوع لم يطرقه أحد قبلك، وتبتكر وتخترع وتكتشف وتوجد أساسًا جديدًا لم يكن موجودا من قبل، وكلما تمعنت في معنى الشهادة ازدردت ريقى وزاد وجلي.. هل سأقدر؟ "ليه لأهم اللي قبلك

مش قدروا"، هكذا أكدت لي نور تشجعني، وأضافت عصمت تحفزي: "ودول بالآلاف، إنت عارف فيه كام حامل رسالة دكتوراه في مصر؟ فوق المليون تفتكر دول كلهم اكتشفوا ولا اخترعوا ولا قالوا حاجة جديدة؟". وأكملت مجد: "بلاش التفكير المثالي اللي حيأخرك"، ظلت أسمع كلامهم المشجع المتفائل، لكن في داخلي خجل من فكرة ما أستشعرها من حديث دكتور عويس حين أعطاني الرسالات، وربطت بينه وبين ما تقوله الغادات الفاتنات الآن، أريدني الرجل أن أضرب بحثاً من تلك البحوث؟ لكنني استبعدت الفكرة، فالرجل أنقى وأرقى من أن يدفعني للسرقة العلمية، ويبدو أني بالغت في تشككي، لكن الأيام التي تلت ذلك أثبتت لي صدق حدسي وحقيقة مخاوفي، فقد أكدت لي البنات أنه من الغباء أن تضيع وقتك في استحداث ما هو غير موجود، أو التفكير فيما ليس من ورائه طائل، وقالتها لي عصمت صراحة: "يعني حتكتشف الذرة!"، وأضافت مجد: "دي حته شهادة حتعلقها في مكتبك وتتسجل في دفاتر الدولة وخلصنا.. المهم الشغل"، ورفعت نور كأسها تحييني: "لاهو أنت فاكر إن كل اللي معاهم دكتوراه اخترعوا حاجة ولا اكتشفوا مسمار حتى! كله بينقل من كله.. في صحة الدكتور جاد"، ورفعت الأنخاب، وأنا مؤمن بإخلاص نصيحتهن فانتقيت ثلاثة أبحاث عرضتهم على دكتور عويس معلنا أني مختار بين أيهم، فانتقى لي أحدهم، وقال: "ده مناسب ليك.. مبروك عليك الماجستير يا جاد عقبال الدكتوراه" وحين عدت إلى شقتي أمسكت بقلم وورقة ورحت أخطط، فقد علمتني البنات أن النجاح يبدأ من وضع خطة

زمنية لمشروع حياتك، وقد اتفقت مع نفسي من قبل أن هدفي أن أكون غنيا، أمتلك الخمسة عين، وأمامي سنتان للحصول على الماجستير، ومثلها للدكتوراه، ثم سنتان لتأسيس نفسي في السوق توطئة لفتح عيادتي الخاصة، بذلك يصبح المجموع ست سنوات، وأنا الآن في السابعة والعشرين أي سأقف على أول الطريق وأنا في الثالثة والثلاثين، ووفقا لترتيب الأولويات تأتي العيادة في المقدمة تليها العربية ثم العقار، أي شقة ملك أو فيلا أنيقة، ثم العروسة ثم العزبة، وفرحت بنفسي جدا بهذا التفكير المنطقي، لكن مجد عدلت فيه ووضعت العربية قبل العيادة "دي أمرها سهل وتقدر من بكره تركب العربية اللي تحبها"، وما كنت أظنه صعب المنال اكتشفت أنه أسهل من السهولة حين اقتادتنني نور إلى صديقها الحاج رجب الأسيوطي صاحب معرض سيارات البرج الذي صحبني في جولة لأنتقي السيارة التي تعجبني، فانتقيت تويوتا كورولا، لكن نور قالت: "حلو بس.. مش مميزة"، فوقفت حائرا أود أن أقول لها إني لا أحلم أن يكون عندي موتوسيكل، فما بالك بسيارة موديل السنة زيرو! وانتقت هي لي سيارة بي إم سبور سأدفع ثمنها بالتقسيط خصما من مرتبي الذي تضاعف، وبضمان العيادة، كل ما فعلته أني وقعت على شيكات بالأقساط يتم تحصيلها شهريا على ثلاث سنوات، ولم أصدق نفسي حين أعطاني المفاتيح قائلا: "مبروك وربنا يكفيك شر الطريق"، هنا فقط تذكرت أني لا أعرف السواعة.

"مش مشكلة"، هكذا أكدت مجد، وفي خلال الأسابيع التالية تعلمت القيادة على يد مدرب خاص استأجرته لي البنات، واستلمت السيارة،

ولكي تثبت لي نور أن معرفة الناس كنوز، دعت الباشا رئيس وحدة المرور على العشاء، وأكدت عليه أن تكون اللوحات مميزة مثل باقي سيارات العيادة، وفي اليوم التالي كانت رخصتي في جيبي، وكانت لوحاتي تحمل رقم 11 ط ب، وأفهمتي أنه كلما صغر الرقم كلما زاد التميز، ليس فقط في لوحات السيارات بل في أرقام التليفونات، ولم يصدقن أنفسهن حين أخبرتهن أي لا أملك تليفون، وفي اليوم التالي كان عندي تليفون فخيم برقم مميز جدا 01222111222، وأفهمتي أنه كلما تشابهت الأرقام كلما زاد التميز، وفي المساء أثناء استعدادي للنوم برز لي ملاكي الطيب الذي قل ظهوره مؤخرًا قائلًا: "مش ملاحظ حاجة؟"، قلت: "إيه؟"، قال: "الدنيا جبالك بسهولة"، فرددت بقل أعوذ برب الفلق، فاستطرد كأنه لم يسمعني: "عملت إيه عشان يبقى عندك كل ده؟ شقة وعربية ومرتب ورصيد في البنك، عملت إيه؟" قلت في قحة المذنب: "إيه ما أنا باشتغل"، قال: "بشتغل إيه؟"، قلت: "بقيت مسئول عن قسم الاستقبال كله، وقريب حمسك التوريدات الطبية"، فابتسم ابتسامة سخرية وقال: "تصبح على خير يا.. دكتور"، واختفى، ولولا أن رأسي ثقيل من أثر النيذ الذي تناولته مع البنات على العشاء؛ لأرقتني كلمته حتى الصباح، لكني أسلمت نفسي للنوم ولم أبال.

حين فتحت عيني وجدت شيطاني وملاكي في استقبالي، فتعجبت لظهورهما معا وفي ذلك التوقيت! فهما لا يظهران إلا في لحظة الاختيار.. أي اختيار أو تفكر وتدبر تجد شيطانك وملاكك يتصارعان، كل يجذبك

في طريق، وكل ينهي حجته بأن القرار لي في النهاية فأقع في مشكلة، وأحيانا يكون الاختيار بين الأبيض والأسود، فيكون القرار سهلاً، أو حين تتساوى الكفتان، يكون القرار غير فارق، لكن المشاكل تبدأ حين تتعدد المزايا إلا عيب واحد فتكون مشكلة، وقد تكثر المشاكل فتقع في أزمة، وحين تعظم الأزمات تكون الفوضى ويقف عقلك عن التفكير فتتركها لله.. بادرتها سائلاً: "ما لكم ع الصبح؟ أنا لا في لحظة اختيار ولا بفكر في حاجة إلا الحلم اللذيذ الي.."، قاطعني شيطاني فرحاً: "أنا الي جبهولك، عجبك البت مجد؟"، قلت هارشا شعري الأشعث: "ما انتوا صحتوني قبل ما..". قاطعني ملاكي متجهماً: "اصطبحواع الصبح واخلونا في المهم" سألت: ما المهم؟ قال: "الشغل بالطريقة دي ماينفعش" وأشار إلى شيطاني: "انك تسبيه مطلق وواخذه معاك في كل حته وأنا حابسيني وكاتم على أنفاسي"، قال شيطاني وقد بدأ صوتها يعلو: "ما أنا سايبهولك بقالي سنين، ولا أنت عاوز تكوش على كل حاجة"، قال ملاكي: "العقد الي بينا يقول تتناوبه.. فاهم تتناوبه مش نستحوذ"، وتركتهما يتشاجران وقمت إلى الحمام ثم القهوة وارتديت ملابسي، وقبل أن أخرج استدردت لهما وبهدوء قلت: "انت وهو مرفودين"، تبادلا نظرات الذهول وقفزا إلى مكانها المفضل داخل ياقة القميص بجوار أذني، وراحا يستعطفاني مترجين ألا أفصلهما، وردا على سؤال حتمل إليه من غيرنا؟ قلت: "مش حختار.. حسيب غيري يختار لي"، وما إن ركبت المصعد حتى اختفيا، وشعرت براحة كبيرة وحمل ثقيل انزاح عن كاهلي، فاستبشرت خيراً وبدأت يوماً جديداً من التفاؤل والأمل،

وجاء اليوم كما توقعته مليئاً بالمفاجئات السارة، وأدركت أنني كنت محقاً في قراري برغد شيطاني وملاكي، صحيح أنني يمثلان ضميري ونفسي الأمانة بالسوء، وصحيح أن الله خلقهما لنا ليلهمانا فجورنا وتقوانا، لكن الله أيضاً خلق لنا أعيناً نستطيع إغلاقها وتعطيلها، وأرجلاً وأيدي وحواساً نستطيع إيقافها عن العمل بإرادتنا، فهكذا فعلت بشيطاني وملاكي.

27

صداع رهيب يكاد يفتك برأسي، حتى إنني لم أستطع خلع النظارة الشمسية ماركة جوتشي أند جابانا حتى وأنا في المكتب، وتناولت إسبرين وبنادول، وشربت كميات كبيرة من الماء إلا أن الصداع اللعين لم يترك رأسي، وأكملت اليوم بالعافية، وقعت على أوراق كثيرة لم أقرأها، وتجنبنا حوارات عمل كثيرة رافة بدماعني، وقبل أن أنصرف صعدت إلى الإدارة لأبلغهن أنني لن أحضر غدا إذا استمر الصداع بهذا الشكل، لكن مجد قالت: "يعني مالمقيتش غير بكره عشان تعيى!"، أضافت عصمت شارحة: "بكره الوزير جاي"، وعرفت أن زيارة السيد الدكتور وزير الصحة تحظى باهتمام خاص من دكتور عويس، كما أن حفل الاستقبال الذي يقام في فيلا دكتور عويس يحضره كبار الناس وعلية القوم حاملو مفاتيح السعادة والرعاية والحماية والوصول والمساندة والموافقة على أي مشروع يحلم به إنسان، وأن دكتور

عويس قد خصني بالدعوة فلا يجب أن أضيع الفرصة، وتعلمت أهمية تلك الحفلات، فالشغل والبيزنيس يتم فيها، فقلت: "كنت فاكراً إنها حفلات للترفيه والشحن"، قالت عصمت: "لا دي مش خروجة فسحة، ده بيزنيس"، قلت: "اللي أعرفه إن البيزنيس بيتم في المكاتب"، قالت نور: "لأ.. البيزنيس بيتم في الحفلات، لكن التنفيذ بيبقى من المكاتب". هززت رأسي وقد خف الصداق قليلاً لمجرد معرفة مكائتي الخاصة وما يعده لي دكتور عويس، وبرز لي ملاكي اللعين من ياقة القميص هازئاً: "عملت إيه عشان كل ده؟"، قلت في غضب: "أنا مش رفدتك"، قال: "ما تقدرش، إنت كل اللي تقدر تعمله إنك توقني عن العمل، وحتى لو وقفني أنا مش حسيك"، وقضيت الليلة في عراك مستمر بين ملاكي وشرطاني اللذين أدركت استحالة فصلهما حتى وأنا نائم، وفي صباح اليوم التالي كان الصداق انخفض إلى أدنى درجاته حين هل الوزير برفقة دكتور عويس وفريق المرافقين من الوزارة ومديرية صحة أسبوط وراحوا يتفقدون أقسام العيادة تحت أضواء وعدسات القنويات التلفزيونية الحكومية، والعجيب أنهم حين أذاعوا الفقرة عن تفقد السيد الدكتور الوزير لأحدث ما وصل إليه العلم والأجهزة الحديثة والمستوى الراقي الذي يفوق أوروبا وأمريكا، قالوا إنها مستشفى أسبوط العام! واعتقدت أنه خطأ من معدي البرنامج كتلك الأخطاء الشائعة على الشاشة، وكم بدوت ساذجا وأنا أبلغ البنات عن تلك الغلطة الشنيعة، إذ أوضحت لي أن مثل تلك الأخطاء المتعمدة هي نوع من المجاملة من دكتور عويس للسيد الدكتور الوزير، وبدأن يلقنني قواعد لعبة الحفلات "البس

البذلة الكحلي والكرافات الموف"، "الجزمة تبرق"، "حط البارفان الفلاني"، "ماتشربش واذا اضطريت تمسك الكاس في إيدك وتعمل إنك بتشرب"، "ماتقفش مع حد أكثر من عشر دقائق"، "عينك ع الوزير طول الوقت"، "ابتسامتك ماتفارقش بقك"، "كلامك يبقى في العموم"، "اندهش لأي معلومة يقولهالك الضيف حتى لو قديمة"، "سيب الضيف يتكلم أكثر منك"، "حسسه إنه أهم واحد في الحفلة"، "شلة الوزير أهم من الوزير نفسه، لو كسبتهم تبقى كسبت الوزير" "لوعندك نكت قبيحة قولها، بس بعد الكاس التالت" "إعرف ضيفك بيعحب إيه"، "مهما تباسط معاك إوعى انت تتباسط، خلي دايبا بينك وبينه درجة"، "هو الأعلى طبعاً"، "لو وقعت في مطب أو احتست شاور لأي واحدة فينا واحنا حتصرف". وانصرفت من فوري إلى حلاق البرج أو بالأصح كوافير الرجال، وبعد أن كنت أحلق بعشرة جنيهاً عند حلاقي الأسطى نصحي، دفعت مائة وخمسين جنيهاً في سبسة شعري وتحملت واضعا البونيه وارتديت ملابس وتوجهت بسيارتي السبور إلى فيلا دكتور عويس الواقعة على أطراف المدينة تطل مباشرة على أعرض منطقة في النيل.

لأول مرة أخرج من البرج منذ أن دخلته منذ حوالي ستة أشهر.. السماء.. كم أفتقدها وفتحت سقف السيارة ورحت أستشق نسيم الليل العليل مائلاً خياشيمي برائحة الهواء الرباني، وأدركت جماله مقارنة بهواء الغرف المغلقة المكيف، ولعجبي أن الصداق قد اختفى تماماً، وشعرت بفرحة و طاقة لا حدود لها، وحين برز لي ملاكي من ياقة القميص بادرتة شاخظا: "اخرس

خالص ماسمعش صوتك"، فاختمني، وتبعه شيطاني شامتا فعاالجته بشخطة مماثلة فانزوى ولم أرهما طوال الحفل، كنت أول الحاضرين كما نبهت عليّ البنات، لكن نور استقبلتني ناهرة: "إيه ده شعرك منعكش كده ليه"، وحين أخبرتها أنه بفعل الهواء في السيارة وأنا كنت استمتع به، نبهتني بحزم: "إنت مش خارج عشان تتفسح قلنا"، وراحت تمشط لي شعري لتعيده كما كان قلت: "بس أنا جايب العربية عشان انبسط بيها"، قالت: "انبسط لما مايبقاش وراك شغل"، وشغلني توييخها عن استطعام جمالها في ذلك الثوب الأبيض المحزق القصير المتلوي مع كل ثنايا جسمها، ولا يقل جمالا وفتنة وتحزيقا وتلزيقا وكشفا عن فستان عصمت الأسود وفستان مجد الأحمر.. وحين وقفن يستقبلن المدعووين قلت لضيفي وهو مدير مكتب السيد الدكتور الوزير: "شكلهم زي علم مصر"، فنظر إليهن ورأى الأحمر يليه الأبيض يليه الأسود فضج ضاحكا وهو ما زال في الكأس الأولى، وكانت بداية طيبة نلت عليها إيماءة استحسان من مجد، وهتف ضيفي مخاطبا دكتور عويس: "الراجل ده جميل جدا يا دكتور عويس"، رد الدكتور: "ده ابني وتلميذي وبكره حيبقي دراعي اليمين"، ثم رفع ذراعه مناديا: "تعالى يا دكتور جاد" وظل مادّا ذراعه وأنا أقترّب منه كمن يدعوني أن أدخل تحت إبطه في حضن أبوي لا ينقصه إلا قبلة على الرأس، وقدمني للسيد الدكتور الوزير: "ده دكتور جاد الله، بيحضر ماجيستير وبعدها الدكتوراه على طول"، قال الوزير وهو يصفاحني بابتسامة بلاستيكية: "بسم الله ما شاء الله، انت عندك كام سنة؟"، قلت: "27"، فرفع حاجبي

الاندهاش ضاحكا: "هم الأولاد كبروا ولا إحنا اللي عجزنا يا دكتور" قال دكتور عويس: "سياسة الدولة بتتجه ناحية الشباب يا معالي الوزير"، هز الرجل رأسه إيجابا: "فعلاً الشباب هم المستقبل"، وجدنتي أتحوّل إلى محبوب عبد الدايم في القاهرة 30 وقلت: "بس معاليكم الخبرة والحنكة"، وتجرات واحتضنت ذراع دكتور عويس مربتا على كتفه: "من غير أساتذتنا مش حنوصل لحاجة"، هز الرجل رأسه مسرورا بإجابتي: "برافو عليك.. الولاء.. أهم حاجة الولاء"، "ماينكرش الفضل إلا جاحديا معالي الوزير"، قلتها وقلت كلاماً كثيراً بعدها عن أهمية جيل الكبار والخبرة على أرض الواقع والفارق بينها وبين الدراسة النظرية في الكتب، وكلام أكثر عن حبي وولائي لأستاذي وتاج رأسي دكتور عويس، كلام يحمل في طياته أي ممسحة لأقدام جناب معاليه، وبإشارة من عصمت أنهيت اللقاء مستأذنا معبرا عن مدى حبوري بلقاء سيادته الميمون، ولم أنس احتضان كفه برفق بين كفي وأنا أصافحه، واقتربت من مجد أسألها فقالت: "هايل كأنك مولود بيزنسنجي بالفطرة"، ففركت كفي، وأشارت إليّ عصمت فاتجهت إليها فناولتني علبة بلاستيك صغيرة: "دول الكروت بتوعك اتأخرو في المطبعة"، فتحت العلبة وقرأت اسمي مكتوب بخط أنيق على كارت من الحجم الصغير وتحت كتب "المدير التنفيذي" فرفعت رأسي مندهشا فبادرتني: "أي حد تقابله تديله كارت" وتركتني منصرفة مرحلة ببعضهم، قادتني قدماي إلى حافة التراس الفسيح المطل على النيل، ويشرف على حديقة غناء لا تصلح إلا لمثل هذه الاحتفالات ولا يذوقها إلا من كان من عليّة القوم أمثالي، وعلى حافة النهر رأيته راقدًا.. إنه الفجم.

شيء ما دفعني أن أهبط الحديقة وأقرب منه، ربما نظرته الوديدة التي حدجني بها أو وضع الاسترخاء الذي اتخذته بالقرب من الماء، وهبطت السلم الفخيم المؤدي إلى الحديقة متجها إليه، ترددت قليلا وأنا على بعد خطوات منه، فهو في حجم الجحش الصغير، ورؤوسه الثلاثة ممددة أمامه بأعين مغلقة، فتنحنحت لأنبهه لاقترابي حتى لا يأتي برد فعل غبي إذا فاجأته، ففتح نصف عين وتنهذ وعاد إلى نعاسه، مما طمأنني شيئا ما فاقتربت، فلم يحرك ساكنا، تجرأت ومددت يدي لامست رأسه القريبه مني ففتح نصف عين وابتسم ابتسامته تشبه ابتسامة الموت، لكنها في النهاية ابتسامة فرحت أداعب رأسه بخفة ملامسا، سرعان ماتحولت إلى تريبت ثم طبطبة فمداعبة وهرش في الرقبة، فاستجاب للمداعبة ككلب يستمتع بهرش صاحبه، وحين اطمأنت جلست على السور الواطئ بين رؤوسه، ثم اتكأت على رقبته فتركني، بل قرب رقبته الثانية لأأخذها مسندا لقدمي، ومن هذا الوضع العجيب أدركت أني انتصرت عليه.. لقد استأنسته.. معركتي مع الفجم انتهت، مما أشعرتني براحة وسعادة غامرة لم يقطعها إلا نداء نور: "انت قاعد عندك بتعمل إيه؟ دكتور عويس عاوزك"، فاتجهت مسرعا سائلا: "ماتعرفيش عاوزني ليه؟" قالت: "عارفة طبعاً بس خليه هو اللي يقولك"، بمعرفتي بنور ومجد وعصمت أدركت أن أي محاولة لاستخراج سر منهن هي محاولة فاشلة.

اقتربت من دكتور عويس الجالس مع السيد الدكتور الوزير ورجل مهيب الحجم متجههم الوجه عريض المنكبين والشوارب، أقرب ما يكون

شبهها بضرغام، وقدمني له دكتور عويس: "الدكتور جاد الله الجبتي المدير التنفيذي للمشروع يا حاج"، فسلمت بأدب جم، ثم قدمه لي معرفاً: "الحاج عليش الأسيوطي"، فتسمرت.. إنه أبو... أجلت تفكيري حين فاجأني دكتور عويس بتقديم فتاة شابة جالسة في ظل أبيها الجبل لذلك لم ألاحظها: "الآنسة عفاف بنت الحاج عليش"، فتحولت تسميرتي إلى نار في عيني وانفجار كم من الأدينالين في رأسي جعل حدقتي عيني تتسعان حتى الجحطان، إنها هي.. المريضة الغامضة.. فأنا لا أنسى هاتين العينين حتى لو ارتدت ألف حجاب، والغريب أنها كانت سافرة ترتدي فستاناً أخضر يظهر الرقبة وعرض الأكتاف، ولمحت في عينيها تحذيراً فهمته فوراً، فسلمت بتحفظ "أقعد يا جاد"، هكذا أمرني دكتور عويس الذي ألقى إلي بالقنبلة: "معالي الوزير بيرشحك تمسك مشروع القرية الطبية"، لم أفهم وبدأ غبائي في ابتسامة بلهاء فقلت: "تحت أمرك يا فندم" أضاف السيد الدكتور الوزير: "إنت عارف طبعا سياسة الدولة تشجيع الشباب..."، وراح يهري في كلام كثير عن إيمانه بالمستقبل وفترة الحكم الرشيد الذي نحياها، لكنني كنت مشتت، من هي تلك المريضة الغامضة المدعوة عفاف، وما هو مشروع القرية الطبية! وأسئلة كثيرة تزاхمت على طرف لساني وتلاحقت تداعياتها أسرع من قدرتي المحدودة على التفكير، ولم ينقذني من الدوامة سوى استدعاء عصمت: "بعد إذنكم حاخذ منكم دكتور جاد لحظة"، فقممت تبعثها متبعدين وقبل أن أسأل بادررتني: "لغاية ما نقعد بكره الصبح أشر حلك التفاصيل، إنت اتعينت المدير التنفيذي لمشروع القرية

الطبية، أنا عارفة إن القرار مفاجئ ليك، لكن السرية كانت مطلوبة لغاية ما ناخذ الضوء الأخضر"، وأشارت إلى الوزير ثم أردفت سائلة: "إديت الكارت بتاعك للحاج عlish؟"، أجبت نفيا، فأكدت عليّ أن أعطيه كارتًا ولا بنته كارتًا: "الأرض باسمها يعني نصيب الحاج عlish باسم البنت وحتتعامل معاها كثير"، وعدت إلى جلسة السيد الدكتور الوزير بربع دماغ، أما الباقي فكان مع تلك العفاف المريضة الغامضة.

28

أهكذا تُبنى الحياة؟ أبهذه السرعة؟ أبهذا الإيقاع المتلاحق؟ أأكون واحما أو أحلم! وأسئلة كثيرة تضاربت في رأسي وأنا واقفٌ طويلا أمام المرأة بعد عودتي في الثانية بعد منتصف الليل، وانتفضت مخضوضا على صوت التليفون، وتعجبت من الموعد فلا أحد يعرف رقمي سوى البنات وباقي إدارة العيادة، وجدت رقما جديداً فرددت، فإذا بها هي عفاف.. المريضة الغامضة التي بادرتني: "نمت؟"، قلت: "لأ مفنجل"، قالت: "أولا ميرسي إنك اتصرفت صح"، قلت: "على إيه أنا ماعملتش حاجة"، قالت: "مممكن نتقابل بكرة؟"، قلت بلا تردد وبترحاب الظمان لرشفة ماء: "طبعاً ممكن.. ياريت"، وضربت لي موعداً في السابعة في أحد كافيهات البرج وأنهت المكالمة.. والله هذا كثير على رأسي البسيط، وسرحت في كمّ من الأسئلة والإثارة والتشويق مما يشي بطول ليلتي وسهادي، ثم سرحت في حاستي التي

لا تخيب حين تقع عينيائي على شخص أو مكان فأشعر برابطة ما بيني وبينه،
 رابطة مستقبلية، شعور يتخطى الحدس والفراسة ويقترب من استشفاف
 الغيب، ليس بعقلي لكن بدقة قلب مختلفة في عمقها ونطاقها.. دقة أثقل
 من غيرها، وكيمياء تدفق في جسمي تنبأني أن هناك شيئاً سيحدث.. لماذا لا
 أتبع تلك الظاهرة طبيياً؟ لماذا لا أفحص وأدرس تلك التغيرات الكيميائية
 التي تحدث في تلك اللحظات، ربما أصل إلى مصل المستقبل! وأعجبتني
 الفكرة وقررت أن أعرضها على دكتور عويس، ثم عدت إلى لقاء الغد
 الموعد.. هي جميلة بلا شك، جمال هادئ لا يخلو من جرأة، وأعين ذكية
 رغم إسدال الجفون، وأنف دقيق فوق شفتين مكنترتين، ووجدتني أبتسم
 إعجاباً بوجهها، أما شعرها الفاحم المجدول مثل حبال المراكب وملقى
 بإهمال على كتفها المرمري.. "لا أنا كده مش حنام"، هكذا قلت بصوت
 مسموع لنفسي، وأغمضت عيني، لكن وجهها اقتحم أجفاني المغلقة ووقف
 في تلك المنطقة الحمراء التي نراها حين نغمض أعيننا، فنحن نرى لون الدم
 في شعيراتنا الدقيقة إذا وقع على عينينا المغمضتين.. ضوء! من أين يأتي
 الضوء! وفتحت عيني فإذا النهار قد انبلج، فتنهدت متحسراً على حلم
 جميل كنت أود لو أكمله مع تلك المريضة الغامضة عفاف، حلم ينفث عن
 كبتي ورغباتي المكبوتة المدفونة المحاصرة والتي لا تنفلت إلا في المنام..
 لماذا لا أحولها إلى واقع؟ لماذا لا أقيم علاقة تريح جسدي وتصفني ذهني
 لما ينتظرني من مهام جسام في مستقبلي سريع النمو هذا، ووقفت تحت
 الدش أستعرض دائرة معارفي، لكنني قفزت مباشرة إلى النتيجة.. عفاف..

ولأول مرة في حياتي أقرر أن أدخل علاقة بهدف، فطوال عمري كانت علاقاتي سواء أصدقاء أو معارف أو زملاء عمل، لم يكن لي دخل فيها ولا أقصد أو أهدف أو أريد شيئاً من ورائها، فهي تحدث وأنا أستجيب، وارتديت ملابس متفكراً في أي حلة سألقاها؟ ففي الغالب سيكون يوم عمل مشحوناً وطويلاً، ولن يكون لدي وقت لأغير ملابس، وفتحت الباب متجهاً للمصعد ففوجئت به يرقد أمام باب شقتي مثل كلب الحراسة يسد الطريق ويغط في نوم عميق، فلكرته بقدمي ليفسح لي الطريق، فتحرك في كسل النائم، وأغلقت الباب، وركبت المصعد، وتركت الفجم نائماً يحرس لي باب بيتي.

كانت الثامنة إلا خمس دقائق حين ألقيت تحية الصباح بطريقة ميكانيكية على البنات وأنا أجلس إلى ترابيزة الاجتماعات فاتحاً الآي باد الجديد، وبدأ الاجتماع الذي حاولت فيه جاهداً ألا أسرح، وأن أركز فيما سيقال، وفهمت أن دكتور عويس ينوي إقامة قرية علاجية على مساحة 300 فدان، وهي القرية الأولى من نوعها في مجال السياحة العلاجية، وأنه استثمار لملايين كثيرة، وأن الأرض ملك الحاج عليش الأسيوطي والتي سيشارك بها في المشروع مسجلة باسم كريمته عفاف، وأنها ستكون شريكة في المشروع بقيمة الأرض التي قُيِّمَتْ بمبلغ ثلاثين مليون جنيه، وكلام عن التكلفة الموهلة التي تقرب نصف مليار جنيه، وأن المشروع يستهدف جذب أثرياء المرضى حول العالم، فالجو الجاف الحار مطلوب في حالات استشفاء كثيرة، وأن سوق المرضى مبشر، وأن دراسة الجدوى التي قام بها مكتب أمريكي

متخصص تشير إلى أرباح متوقعة بالمليارات.. وكلام عن خطة تسويق ودعاية دولية، خاصة المنطقة العربية.. وأكوام من الأوراق والملفات عليّ أن أذكرها خلال أسبوع، و.. سرحت.. لم أقوَ على هذا الكم من المعلومات والبيانات والإحصاءات والجداول والقوائم والنسب والحسابات، وأنا حين أسرح لا أقصد ولا أتعمد، أنا فقط أنسحب، أنزلق، مثلما يسحبك النوم حين يحل، ورأيت صورتها أمامي فابتسمت، كانت ترتدي فستاناً أسود ضيقاً يبرز مفاتها، أترى أي شخصية وراء هذا الشكل! وتلك التركية الاجتماعية؟ أي شخصية يفرزها مجتمع مدينة أسيوط؟ ليست أسيوط التي نراها في الأفلام، بل أسيوط الحديثة، أسيوط البرج.. فهي من عائلة المفروض أنها محافظة، لكن حضورها بصحبة أبيها يوم الحفل يشير إلى شيء آخر، وتوالت الأسئلة والمتناقضات عن عفاف وأبيها فوجدتني أسأل: "هي مين عفاف دي؟"، تساءلت نور: "بتسأل ليه؟"، قلت: "مش بتقولوا دي الشريك الي حتعامل معاه طول الوقت؟ عايز أعرف أي باك جراوند عنها"، أشارت إليّ عصمت بسبابتها مبتسمة: "برافو عليك، نقطة مهمة"، قالت مجد: "هي بنت متعلمة تعليم عالي، عندها 27 سنة، كانت مخطوبة لابن عمها وفسخت من حوالي أربع خمس أشهر"، أضافت نور: "ذكية جداً"، وقالت عصمت: "وقوية"، قلت وأنا أشعر أنني وقعت على منجم معلومات، فمهم جداً أن تتسلح بأكبر قدر من المعلومات عن هدفك: "وأبوها إيه علاقته بالمشروع؟"، قلن: "علاقة شكلية"، "هو يعمل حاجة لبتته"، "الوحيدة" أضافت المعلومة الأخيرة ملمحاً مهماً، واستمر

الاجتماع حتى السادسة والنصف، وبدأت أحرك وأفرك، فقلن: "يظهر إنك تعبت"، "بكرة بدري حنروح نعاين الأرض مع الفريق الهندسي"، وفرحت لأنني سأرى سماء النهار، كم أفقدها.

انصرفت إلى مواعيدي ناظرا في ساعتي الرولكس تشير إلى السابعة إلا خمس دقائق، وكنت أمام كافيه البرج في تمام السابعة، واقتربت مهرولا، لكنني تباطأت وغيّرت مشيتي إلى التؤدة والثقل والرزانة وقليل من اللامبالاة بوضع يدي في جيبي ودخلت المحل، لا أدري لماذا هي لحظة ثقيلة على القلب تلك التي تدخل فيها مكائنا، فتتوجه كل الأنظار إليك، تتفقدك وتفحصك وتقيمك وتوزنك، وبمنظرة فيها شيء من التعالي هو في حقيقته رد فعل لنظراتهم مسحت المكان فلم أجدها! فبدأت أبحث عن مكان مناسب أجلس فيه، مكان استراتيجي، وتوجهت إلى ركن قصي في طرف المحل، فهو مكان منعزل يوحى بالخصوصية والسرية، فينتقل ذلك الشعور إليها، فتكون لي فريسة سهلة مهيأة نفسيا، "هاها يالي من وغد"، لكن أوقفني صوتها ينادي: "دكتور جاد"، فالتفت إلى مصدر الصوت، فلم أرها، حتى رفعت يدها مشيرة من وراء الخمار الأسود الذي رأيته به أول مرة.

جلست وعيناي تحاول إزاحة الخمار، لا أدري لماذا تضايقت من وجود حاجز بيننا حتى لو كان حاجزا قماشيا، ونادت هي الجرسون وسألتنني: "تشرب إيه" قلت: "كافيه لاتي" فطلبت اثنتين، وأخذت هي مبادرة الكلام مكررة شكرها على موقفي فقلت: "أنا ماعملتش حاجة، أي جنتلمان في

مكاني جيعمل كده"، قالت ضاحكة: "أصل فيه ناس طربشات، كنت خايقة تسلم عليّ بحرارة وتطمئن على صحتي" قلت: "من أول لحظة كان باين عليكى إنك مش عاوزة حد يعرف إنك جيتي العيادة"، قالت: "باين عليّ إزاي وانا لابسة الخيمة دي"، قلت: "يعني جاية لوحذك من غير مرافقين.. رعشة صوتك، دا أنا كنت سامعك بالعافية، ما قلتش اسمك.. يعني حسيت إنك مخيبة سر"، قالت في مرارة: "خلاص مابقاش فيه أسرار"، ودار الحديث حول أسرتها وعائلة أبيها، فهي لها سبعة أعمام، وكل عم له بين خمسة و9 أبناء، وجرى العرف أن يتزوج أبناء العمومة حفاظا على الثروة الممثلة في أراضٍ زراعية تساوي نصف مساحة محافظة أسيوط بعضها دخل كوردون المباني وبعضها ما زال طيناً، وقلت متخابثاً أريد معرفة مدى صدقها: "يعني انتي مخطوبة لابن عمك؟"، قالت بسرعة ووضوح: "كنت"، فسألتها عن سبب الفسخ قالت: "انت ما تعرفش كنت جاية المستشفى في إيه؟"، هززت رأسي نفياً: "ولا لقيتلك ورقة تقول إنك دخلتي وخرجتي"، فهزت رأسها متفكرة وهي حين تفعل ذلك تنحصر بؤبؤها في ركن عينها، ثم هزت رأسها وقالت: "أوكي"، قلت: "أوكي إيه أنا مش فاهم حاجة"، قالت: "بعدين.. ححكيلك بعدين"، ورائت لحظة صمت استشعرتها طويلة رحنا نرشف من أكوابنا الوردية، وقطعت الصمت سائلاً: "بتعرفي تشربي من تحت البتاع ده؟"، قالت وما زالت سارحة: "لا طبعاً بدلدق على نفسي"، ضحكت: "أمال لبساه ليه؟"، قالت بالفرنسية: "بور لافورم.. مضطرة"، قلت: "بس يوم الحفلة كنتي.."، قاطعتني: "أبوياء.."، وراحت تحكي عن

أبيها أصغر إخوته وأضعفهم وأفقرهم، يسمونه "الخرع" تزوج من ثلاثة نساء لم ينجب منهن، فعاش مكسورا مذموما، ثم تزوج الرابعة فكانت ثمرتها عفاف، فرفعت من قيمته ونفت عنه تهمة العقم، لكنها أنثى والإناث لا يرثن، فباع لها أبوها كل ممتلكاته بيعا مسجلا حتى لا ينازعها أحد في الميراث، لقد صارت هي كل حياته ودخل المسكين في صراع مع نفسه، بين عقله القديم الموروث من احتقار الإناث وتبجيل الذكور إلى آخر تلك الغباوات البدوية، وبين حبه لابنته التي رفعت رأسه بعد انكسار بمجرد مولدها، فعاملها بتقديس، وعاش ليصنع منها رجلا، فعلمها تعليماً راقياً في ليسيه أسيوط ثم الجامعة الأمريكية في القاهرة، ثم عادت لتتزوج ابن عمها، "لكن ما حصلش نصيب.. يوم الحفلة كان أول يوم أخرج فيه من غير نقاب.. أبويا لسه عايش الصراع.. أنا اللي طلبت إني أخرج من غير نقاب عشان أثبتله إن الناس مش حتاكلني"، هكذا ختمت عفاف حكايتها، ولفنا الصمت من جديد، قطعته هي رافعة عينها النفاذتين إلى قائلة: "سألتني عن كل حاجة إلا أهم حاجة"، أثارني الشغف فاعتدلت منصتا: "طلبت أقابلك ليه"، فقلت في أريحية: "هو لازم يبقى فيه سبب"، قالت: "لا لأ لا سيبك من كلام السهوكة ده أنا عارفا"، خطفتني بصياعتها، فقلت: "ما انتي لو عايزة تحكي تحكي، مش من الذوق إني أسألك عايزة إيه، وبعدين بصراحة أنا عاوز أقعد معاكي، مش مهم بقى السبب إيه"، كنت صريحا لأبعد حد بل وجريئا، وبدأت الهجوم مبكرا مما أتى بشماره التي بدأت بابتسامة لمحتها في عينها، وصوتها السعيد يقول: "بجد!"، قلت:

"جد الجد.. من ساعة ما شفت عنيكي في العيادة وأنا حاسس إن وراكي سر، وبعدين الظروف جمعتنا في شغل، فأنا محاصر بيكي، قوليلي أعمل إيه". أسندت ظهرها إلى المسند، وظلت ترمقني بنظرة مبتسمة طويلة: "شكلك مايقولش إنك تعرف تقول كده".

29

على سريري تمددت عاقدا يديّ خلف رأسي، مسترجعا كل لحظة من اللقاء الذي امتد حتى الثامنة والنصف، وكان ختامها مسكًا حين صارحتني أنها تريد رؤيتي لأنني أعجبته، لم تقلها صراحة بل حكّت لي عن انطباعاتها عني من نظرتها الأولى لي في العيادة، من تصرفي معها واهتمامي، وكيف شعرت بامتنان لشهامتي ودماثتي "حسيت إنك راجل.. بجد" هكذا قالتها، واستطردت عن فقدانها الثقة في الرجال بعد تجربتها مع ابن عمها الذي كان هدفه الأرض والثروة ضمن مؤامرة عائلية كبيرة يطوون بها أباهما تحت جناحهم ويكسروه ليفشلوا مشروع تطوره إلى رجل عصري يؤمن بقدرة المرأة.. فجأة قفز إلى ذهني خاطر كاد يوقف قلبي، هل تكون المؤامرة العائلية وراء دخولها العيادة؟ هل حاولت الانتحار؟ لا هذا احتمال مستبعد، فلا شخصيتها ولا مقدمها بمفردها يقر ذلك، ودارت رأسي كثيرا حتى

أعياني التفكير، فأسلمت نفسي للنوم بتناول حبة منومة، لكنني تذكرت أنني لم أتعش، وشعرت بالجوع فطلبت دليفري من مطعم البرج، جاء بعد ربع ساعة، فقممت أفتح له البابا وقد بدأ مفعول الحبة يعمل، فسرت مترنحا حتى الباب وفتحته وأخذت الطلبات، لكنني فوجئت بتامر وبهجت ومدحت وهبة يخرجون من المصعد، صراحة مفاجأة غير سارة، لكنني رحبت بهم، ولاحظت أن هبة في حالة هزال شديد، بادرنى تامر: "فوق كده وقوم اغسل وشك"، قلت: "أنا فايق بس واخد حباية منوم"، قال تامر: "يبقى تشرب قهوة"، وقام إلى المطبخ ومدحت يسألني: "إنت فين يا جاد؟"، قلت: "موجود"، قال بهجت: "موجود فين وساينا في الحوسة اللي إحنا فيها دي"، قلت: "خير إن شاء الله"، قال: "خير منين بس دي مصيبة وحلها عندك" فالتفت إليهم مستفسرا، فوجدت تردد فصحت مستحشا: "في إيه؟"، قالت هبة: "من شهرين كنت راجعة لوحدي بالليل، طلعا عليا عيال صبع اغتصبوني"، وسكتت.. لم أستوعب في البداية، لكن هول الفجيعة أفاقني، وشربت كوب القهوة كمن يشرب كأسا يفيقه، وأتبع تامر: "دلوقتي هي حامل وعايزين ننزل الجنين"، صدمني الطلب فهتفت تامر مستنكرا: "إيه بتفكر!"، قال بهجت: "دي مالهش غيرنا يا جاد"، وأضاف مدحت: "لو اتأخرنا حيقى.."، شخطت فيه أسكته: "عارف.. عارف"، انتابتنى نوبة غضب، لا أدري أبسبب الجرم الذي وقع على المسكينة هبة، أم بسبب موقعي المخزي من القضية، فأنا متردد بين واجبي كطبيب الرافض لهذا التصرف، وواجبي كصديق يجب مساعدة صديقه، وتعجلني تامر:

"قلت إيه؟"، قلت: "بس أنا عمري ما.."، قاطعني تامر: "هو حد قالك انت اللي حتعملها"، أضاف مدحت: "عايزين ندخلها العيادة"، قفزت مؤكداً: "استحالة، عيادة دكتور عويس مش ممكن تقبل عمليات من النوع ده"، فرمقوني بنظرة تعجب وقال بهجت: "مش ده الكلام اللي سمعناه"، قلت: "كلام إيه؟"، قال تامر: "يا مغفل، عيادة الدكتور عويس أشهر مكان للعمليات دي"، أكدت هبة المعلومة: "بنات كتير أصحابي قالولي عنها، وقالولي إنها بتاخذ ليلة واحدة، وما بتتسجلش في دفاتر المستشفى"، أكمل صدمتي بهجت مكملًا: "البنت بتخش ما تقولش اسمها.. تقول كريمة الحاج فلان الفلاني"، وأضاف مدحت: "بتتكلف مية ألف جنيه"، وكلام عن أنها أرسلت لأبيها تطلب المدد، وكلام لم أستوعبه لأن أبواب الجحيم قد انفتحت حين عرفت سر المريضة الغامضة.. المؤامرة العائلية إذن أثمرت جنين جاءت تتخلص منه لترفع رأس أبيها عاليًا بين إخوته والناس والمجتمع، وأفاقني تامر سائلًا: "قلت إيه؟"، قلت: "سيبوني لبكرة وحرد عليكم".

في الصباح الباكر كنت في الجراج حسب الموعد لأستقل السيارة مع البنات، وانطلقنا خلف السيارة التي تقل دكتور عويس والحاج عليش وكريمته عفاف، وخلفنا ميني باص يقل فريق المهندسين والمساحين، وحين وصلنا الموقع كان نائب المحافظ في انتظارنا مع بعض قيادات المحافظة والداخلية، جيش كامل حضر ليشهد أول خطوة في المشروع العملاق "القرية الطبية"، والذي كُتبت لافتته الضخمة على رأس الأرض باللغة

الإنجليزية، وقد فوجئت أن الأرض زراعية! مع أن بينها وبين الصحراء بضعة أمتار.. عجيب هذا الشعب، يحرف الأرض الزراعية، ثم يصرف ملايين لاستصلاح الصحراء، يعني موت وخراب ديار، والأعجب أنه يتم تحت سمع وبصر ومباركة ومشاركة المسؤولين الحكوميين! وانتهزت فرصة اختليت بالدكتور عويس وتجرات وسألته عن تلك الإشاعة المغرضة بخصوص عمليات الكورتاج، فإذا به يصدمني حين رد ببساطة: "إمم صح مش إشاعة"، وبحنكة المعلم انتظر حتى ابتلعت الصدمة، فأخذني تحت إبطه مبتعدا: "شوف يا جاد، أحيانا حتقابل مواقف تختار فيها بين إنسانيتك والقانون.. تختار إيه؟"، تلعثمت وقلت: "بصراحة أنا حختار إنسانيتي"، خبط على ظهري مؤكدا: "أنا كمان اخترت إنسانيتي.. فيه بنات عائلات بتغلط، والفضيحة بتبقى واقعة لا محالة، وتمنھا الموت زي ما انت عارف، فإنقاذ البنت أولى من القانون.. مش كده ولا إيه؟"، قلت: "مش البنت بس وأهلها"، قال: "نبقى متفقين.. آه صحيح أنا بخالف القانون، لكن القانون ده ممكن يتغير ونبقى زي بلاد كتير بتبيح الإجهاض.. صدقني يا ابني القانون الإلهي.. قانون الرحمة والستر يجبوا قانون البشر.. إحنا بنعمل عمل إنساني يا جاد، عشان كده ما بناخدش منهم فلوس"، كالحمار قلت: "بس ده بيقولوا حضرتك بتاخذ ميت ألف"، ضحك وقال: "وسمعت ربع مليون ومليون، حتسمع كتير يا جاد ما ترميش، ودنك للناس، وركز في شغلك". هممت أن أقص عليه قصة هبة، وأني أريد أن أدخلها العيادة لولا وصول المحافظ شخصياً، فأسرع دكتور عويس لاستقباله، وحمدت

الله أني لم أفتحه في موضوع هبة؛ إذ أن الأيام التالية تمخضت عن حقائق يشيب لها الولدان، واستمر اليوم طوال النهار في الموقع بين عمل وطرح أسئلة وفرد الرسومات الهندسية وترسيم حدود الأرض وتحديد نقطة البداية وحديث عن تصاريح وموافقات ودوشة ليس لها آخر، ووسط هذا الضجيج شغلني مجموعة من الرجال الصعايدة، مدججة بالسلاح، يقفون عن بعد خارج حدود الأرض، ولاحظت عفاف نظراتي إليهم فمالت عليّ هامسة: "دول أعماي جايين ناويين ع الشر"، فدق قلبي دقة خوف، لكنني توجهت إلى السيد اللواء مدير الأمن الذي عرفني بصفتي المدير التنفيذي لهذا الصرح، ونقلت له مخاوفي وما قالته عفاف فقال بهدوء: "عارفين"، قلت: "دي بتقول ناويين ع الشر"، "عيلة عز الأسيوطي طول عمرهم ناويين لبعض ع الشر، ما تقلقش"، وتركني وانصرف، فاقتربت مني عفاف سائلة: "ماجعتش؟"، فتعجبت لها: "الموت واقفلك على بعد كام خطوة وانتي بتفكري في الأكل؟"، ضحكت وقالت بأنوثة في غير محلها: "خايف عليّ ولا خايف على نفسك؟"، قلت: "ع الاتنين طبعاً"، لينقطع الحديث باستدعاء من عصمت التي انتحت بي جانبا، وبصوت هادئ لكنه يحمل غضباً مكتوماً، وبلهجة حازمة لكنها تحوي تهديداً، وب نظرة ثاقبة شلت تفكيري حين قالت: "تاني مرة لما تحب تسأل على حاجة ابقى اسألنا، ما تروحش منك لدكتور عويس مباشرة.. مفهوم"، وتركتني في لجة من الحيرة والخوف، فقررت تأجيل الحوار كله لوقته المناسب، وأكملت اليوم متشاغلا في تفاصيل العمل، إلا أن الأمر لم يخلو من نظرات وابتسامات بيني وبين عفاف.

عدت إلى شقتي واتصلت بتامر أخبره بموافقتي على مساعدة هبة، وأن عليهم أن يصحبوها إلى العيادة غدا، وألا يذكروا اسمي بتاتا، وسوف أتابع أنا الحالة من الداخل وأوصي عليها زملائي الدكاترة، وفي الحقيقة أنا أنوي ألا أظهر في الصورة بأي شكل من الأشكال، لأنني أريد أن أطلع على الحقيقة كاملة بكل تفاصيلها دون أن ألفت انتباه أحد، وقضيت باقي الليل مع ملاكي وشيطاني، فالأول يلومني على مشاركتي في جريمة تجريف الأرض، وجريمة الإجهاض، ونواياي الدنيئة وراء علاقتي بعفاف، وأخذ يرص لي مظاهر التغير في سلوكي وتفكيري وكلامي وأفكاري، ومواقفي المخزية وضعفي أمام إهانات عصمت.. لكن شيطاني تولى مهمة الدفاع عني طارحا منطقاً برجمتياً بحثاً، منطقاً عملياً صرفاً وواقعياً بوضوح، فمن يريد أن يبنني نفسه عليه أن يتسلح بالقوة، وفي تلك الأيام السوداء التي انقلب فيها ميزان كل شيء تحول الحق إلى جانب القوة بعد أن كانت القوة هي التي بجانب الحق، صار من يمتلك القوة يمتلك الحق، والقوة تعني المال والاسم والشهرة والخبرة، القوة تتطلب أن تجيد لغة عدوك، أن تكون شبيهه فتعرف دخائله ونقاط ضعفه، أن تحيا حياة المدينة وتفكر فكر المدينة، أن تسلك طريق الاستشارة وليس طريق الأخلاق، وحين تمتلك سلاحك ويشدد عودك تستطيع أن تفرض قوانينك وقواعد لعبتك.. وختم شيطاني مرافعته بأن قال: "من غير كده نبقي إحنا بنقضيها كلام كبير في الفاضي" وراح يضرب الأمثال عن نهاج من الأسماء الناجحة، كلهم أصحاب فكر استثماري، فهل كل هؤلاء أشرار؟ في الحقيقة لولا أنني أعرفه أنه شيطاني

لقلت إن هذا الكلام خارج من فم ملاك، فقلت له: "لا فض فوك"، وأثنت على منطقته، وقررت أن أسميه شوشو بدلا من شيطان وانقلبت أنا، وما إن أغمضت عيني حتى هل علي طيفها بابتسامتها الداعية وعيونها الجريئة وغموضها المثير.. يا أهلا يا أهلا إحنا ليلتنا بيضا.. واحتضنت المخدة كما عبد الحلیم حافظ في الوسادة الخالية.

30

في اليوم التالي، صحبتني عفاف للمرور على الأرض لمتابعة سير العمل، وهناك وجدت البلدوزرات تعمل بهمة ونشاط، منظر لا أنساه ما حييت، عملية قتل واغتيال للتربة الزراعية، أمتار وأمتار في عمق الأرض ترسبت على مدار آلاف السنين لتجعل من تربة مصر أغنى تربة في العالم، وسمعت صوت أنين الآلات، كما لو كانت تتألم للأرض الصماء، وعلى حدود الأرض انتشرت قوات الأمن المركزي مدججين بالسلاح ومن خلفهم وقف الأهالي.. بسطاء الفلاحين وقفوا يشهدون مقتل أمهم، واغتيال عرضهم.. الأرض.. ورغم بعد المسافة بيننا إلا أنني لمحت الدموع في العين العاجزة والأجساد الهزيلة بلا حول ولا قوة، ووجدتني أتمتم: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، قالت: "صعبانة عليك الأرض؟"، قلت: "ما قدامهم الصحرا"، قالت: "ومصلحتنا!"، قلت: "أنهي مصلحة؟"، قالت: "الاستثمار"، قلت: "ملعون أبوه"، قالت:

"لا انت مالکش وقوف هنا يالا بينا" وانصرفنا وقلبي ينزف دما، وصوت الكراكات يعوي في وحشية وهي تلتهم الأرض، ولمحت الفجم مستلقيا كأنه حارسٌ للمشهد، وفي الطريق ظللت صامتا حتى وصلنا البرج، فقالت: "حتفضل مكشر كده كثير؟"، قلت: "يعني الي بيحصل ده حرام ولا حلال؟ انتي عارفة متر الأرض بياخد كام سنة عشان يتكون"، قالت وهي تداعب شعري: "أكثر حاجة بحبها فيك نقاءك"، نقلتني هذه الجملة من حال إلى حال وخلعت همومي وألقيت بها تحت قدميها، فقالت: "أهو كده فكها.. نفسك في إيه؟"، قلت: "نفسى أحضنك"، ضحكت وقالت: "تعالى أنا عازماك".

صحبتني إلى المطعم الإيطالي وتعشنا مع زجاجة نبيذ، لم أكن أتصور أنها تشرب، لكنها حكّت لي أنها عاشت فترة الجامعة في القاهرة، وكانت تسافر كل صيف إلى أوروبا وأمريكا، وأنها لم توافق على العودة إلى أسبوط إلا من أجل المشروع، وبدأت غريزتي تتحرك، فكلامها يشير إلى تحررها، وما عرفته عنها يؤكد ذلك، وتمنيت أن يكون الشيطان ثالثا، فإذا به يخرج من ياقة قميصي هامسا: "البت مستوية وبتقولك أنا حرة ولي تجارب، عايز إيه أكثر من كده يا قفل"، وجدتني أمد يدي ألامس يدها، فتركتني وابتسمت، قبضت على كفها أعتصره فاقشعرت وسحبت يدها، وقد تهدجت أنفاسها، وفجأة أحسست بقدمها تلامس أقدامي، فقربتهم أكثر، فزاد التلامس بقدمها الحافية راحت تداعب ساقي تحت البنطلون، فأشرت إلى الجرسون بالحساب، وطنين في رأسي يلغي تفكيري ويلفني معها في

دوامة الرغبة المحمومة التي تلغي كل شيء، وتتبوأ هي بؤرة الشعور، قمنا ممسكين الأيدي، وتوجهنا إلى المصعد، وما إن انغلق علينا الباب، حتى هجمنا على بعض ننهل ونلتهم ونلهط في حيوانية حتى وصلنا شقتي.. وكان الشيطان ثالثنا.

استلقيت على ظهري ناهجا.. هذا هو الجنس إذن! وبدأ عقلي يعود إليّ بالتدريج وبدأت أفيق وأعي ما حدث، فالغريزة الجنسية تعطل العقل وتعظم الحواس خاصة حاسة اللمس والشم والتذوق، لا شك هي أقوى الغرائز، فهي تجب الجوع والعطش تسيطر وتفرض نفسها فتلغي التفكير وتحجب الرؤية، ولا عجب في ذلك، فهي الغريزة المسئولة عن الحياة، يسمونها غريزة البقاء على النوع، لذلك هي الغريزة التي حظيت بأكبر كم من القوانين والحدود والمحاذير والشروط والقواعد في كل الأديان السماوية.. وتذكرت السماء.. الله.. وسحبت الملائة أداري عورتي، خجلت أن أتبجح في عربي، لقد سقطت في المحذور، كبيرة من الكبائر، أول مرة ارتكبت معصية، أول مرة أمارس الجنس، أول مرة أرتوي وأسقط.. خوف ما تملكني، الشرع يبيع جلدي، الملائكة تلعني، وعفاف تشعل لي سيجارة فقلت: "ما بدخنش" نظرت إليّ طويلا، وقالت: "مالك؟"، قلت: "ما فيش"، لكن الحقيقة كان في.. حالة رفض وقرف وندم حالة رخص، والغريب أن الفكرة التي سيطرت عليّ في تلك اللحظة هي فكرة الخسارة، وظلت كلمة يا خسارة تتردد في داخلي وتتعاظم حتى خرجت إلى لساني، فقالت: "ندمان؟"، قلت: "تعرفي إن دي أول مرة"، قالت وهي

تقبلني: "خدت بالي بس بموت فيك"، واحتضنتني، فهربت إلى الحمام، وحرصت أن أداري عورتي ببشكير ملقى، وقفت تحت الدش أدعك وأفرك وأهري جلدي لعلني أخلص من بقايا رائحة الخطيئة.. يا خسارة.. مثل فتاة عذراء فقدت عذريتها ووقفت تندم حيث لا ينفع الندم، فرفعت وجهي لأعلى ليصدمه الماء الساخن يكوي الوجوه، رفعت وجهي وانسال عليه الماء فلم أدر أهى ماء الدش أم دموعي، رفعت وجهي أطلب المغفرة.. وتذكرت الرحمة واستدعيت كل ما أعرفه عنها، فوجدتها تجب كل شيء، فهي الصفة التي كتبها الله على نفسه، وهي الاسم الأول لله عز وجل.. الرحمن الرحيم.. وقطع عليّ حبل ابتها لاتي دخولها عليّ فاتحة ستارة البانيو قائلة: "بتستحمي لوحدك"، ووقفت معي تحت الدش ممسكة الليفة البلاستيك ورغتها بالصابون السائل وراحت تدعك لي جسيمي، وتوصت بظهري، تلك المنطقة التي لا تصل إليها يدي، وشعرت بمتعة فتركت لها نفسي وبعد دقيقة واحدة كنت نسيت السماء والندم، واستدعيت الشيطان شوشو على عجل ليكون ثالثنا.

تكرر الموقف ليلتها خمس مرات، كان الندم يتناقص تدريجياً مع كل مرة، قضينا ليلتنا بين جنس وأحاديث شخصية، أذكر أنها أخبرتني أنها فقدت عذريتها وهي في الجامعة، وأنها أجرت عملية ترقيع غشاء بكارة في أمريكا، لكن ابن عمها تكفل به وأزاله في ليلة حمراء وبعدها تخلّى عنها، وحين علمت بحملها لم تخبر أحداً وجاءت إلى العيادة، هززت رأسي قائلاً: "عارف"، ثم أردفت: "أخذوا منك كام؟"، قالت: "مئة ألف"،

فهزرت رأسي وقد أدركت كذب دكتور عويس، قالت: "وانت؟"، قلت وأنا أثناء ب مهدوداً "أنا ما ليش تاريخ جنسي"، قالت وهي تحتضني بقوة: "دي أكثر حاجة بحبها فيك"، وقامت منصرفه في الثالثة صباحاً، وألقيت نفسي على السرير وأنا أترنح من الإجهاد، مستشعراً عرشة في ركبي وعدم ثبات لسيقتاني وحاولت أن أنام، لكن رائحتها كانت تبعي الفراش فقامت و غيرت الملاءة وكيس المخدة، ونمت.

استيقظت على صوت التليفون يرن فهبيت مذعوراً، كانت مجد تصيح في: "إنت فين؟"، بصوت خارج من بئر قلت: "أنا هنا.. هي الساعة كام؟"، قالت: "ثمانية ونص"، قفزت ملسوعاً وهي تصيح زاعقة: "إنت مش عندك معاد الساعة ثمانية مع دكتور عاطف"، قلت: "دقيقتين وأكون عندك، وأغلقت الخط مسرعاً إلى ملاسبي وطسست وجهي بماء بارد، ونسيت أشرح شعري وخرجت عدواً حتى إني لم أنتظر المصعد وصعدت السلم قفزاً حتى وصلت مكتبي، فوجدت دكتور عاطف في انتظار، فبادرته بالاعتذار بحجج واهية من نوع المنبه ماضربش وماعرفتش أنا من الكحة، فكان الرجل سهلاً وقبل حججي ودعائي بالسلامة، كان موعدي مع دكتور عاطف بخصوص توريد أكياس لحفظ الدم، فهو يمتلك مصنعاً كبيراً لتصنيع المعدات والمستلزمات الطبية، بيزنيس آخر واستثمار كبير يقوم على الطب، وأخرج لي من حقيبته عينات الأكياس بالموصفات المطلوبة، فشكرته مؤكداً أني أصدقه أنها بالموصفات المطلوبة، لكن نظام العمل يتطلب إرسالها إلى معمل التحليل، حيث إن أكياس الدم من الأدوات الحساسة، فأني غير

في مواصفات عجينة الكيس تؤدي إلى تفاعل مع الدم المحفوظ فيفسد أو يتلوث مما ينجم عنه مصائب، لكنني وجدته مترددا فسألت: "في حاجة تانية؟"، قال: "الدكتور عوني الي كان قبلك كان بياخذ مني وهو مغمض"، فضحكت وقلت: "لا أنا ما بغمضش في شغلي"، فضحك وأخرج ظرفاً نفحني إياه: "أقصد وهو مطمئن" .. لم أصدق نفسي! إنها رشوة! كيف يجزؤ هذا الحيوان أن .. من ياقة القميص برزلي شوشو: "بتفكر في إيه يا حمار؟"، وأفقت على صوت دكتور عاطف يقول: "الدكتور عوني الله يصبحه بالخير فتح عيادته في مصر عقبال ما اشوفك"، وأمن شوشو على كلامه مذكراً إياي: "إنت مش ههدفك تبقى غني، مش لسه امبارح قايلين نمتلك القوة، وبعدين نفرض قوانينا"، ومددت يدي ووضعت الظرف في جيبي وأنا أقول: "بس برضه لازم أبعت العينات المعمل"، قام مصافحاً منصرفاً: "طبعاً ده شغلك ومش حوصيك .. ما تنسانيش في مشروع القرية الطبية"، قلت في أريحية: "بس ده شغلها حيكون على كبير، يعني أضعاف الكميات الي بنطلبها هنا"، قال: "خير وبركة .. كل ما الطليبة زادت كل ما العمولة زادت، مش كده ولا إيه!"، لا أدري لماذا رأيته توفيق الدقن، ورأيتني استيفان روستي .. وبعد يومين توجهت إلى معمل العيادة أسأل عن نتائج تحليل الأكياس، فجاء إيجابياً وأنها مطابقة للمواصفات، وقال لي مشرف المعمل: "إبقى سلملي على دكتور عاطف"، لم أقف عندها وقتها، فهي جملة مجاملة تقال دوماً، لكن بعد أن عدت إلى مكنتي قفزت إلى ذهني .. كيف ولماذا وما علاقته بدكتور عاطف؟ وشككت أن يكون دكتور عاطف هذا يدفع للمعمل كما دفع لي.

ظلمت طوال اليوم أعمل وأنا مجهد رغم أنني أجلس على كرسي معظم الوقت، ويبدو أن أثر ليلة الأمس بدأ يعمل عمله في سحب الطاقة من بدني والتشويش الذهني وعدم التركيز، فصعدت إلى الإدارة أستأذن في الانصراف لأني مجهد، وانتهزتها فرصة لأزيل سوء التفاهم بيني وبين البنات، فاعتذرت لهن عن سوء تصرفي حين سألت دكتور عويس مباشرة عن عمليات الكورتاج، وتركتهن يكذبن عليّ فيما يخص عدم تقاضي أجر عن تلك العمليات، وشعرت أنني كبرت وفهمت أكثر، وها هي هبة ستأتي وتدفع هي الأخرى، وشرح لي أن العمل له نظام وسلم وظيفي إذا كسره أكون خارجاً عن النظام وتتحول الحياة إلى فوضى، وقالت نور: "يعني ماينفعش أكلّم سيادة الوزير قبل ما أكلّم دكتور عويس الأول"، وأكدت مجد: "السلم الوظيفي هو النظام والنظام هو النجاح"، وعلقت عصمت: "اعتبرها خطأ غير مقصود ومش حيتكرر". وانتهى الموضوع عند هذا الحد، وقبل أن أنصرف قالت عصمت: "ابقى كل لك أكلة كوارع ترم بدنك"، وأضافت مجد: "شكلك عندك هزال"، وأخرجت نور من درج مكتبها علبة دواء مستورد ناولتني إياها: "حباية كل يوم الصبح تخليك كده"، وكورت قبضتها رافعة إبهامها فأخذت العلبة وأنا محرج مكسوف كسفة بنت يوم صباحيتها وانصرفت.. كيف علموا؟ وكان هذا السؤال فاتحة لطريق طويل من الأسئلة، أولها "هل أنا مراقب؟"، كانت الإجابة بسيطة وواضحة بالتأكيد آه، فالكاميرات الواضحة في كل مكان ترصد الداخل والخارج، فمن السهل معرفة أن عفاف جاءتني، لكن هل تلك

فقط حدود المراقبة أم أن هناك دائرة أضيق؟ وبدأ الشك يتسلل إلى قلبي
المستكين الراضي المطمئن، فراح يقفز في صدري باحثاً عن طمأنينته المفقودة،
كطفل أزعجوه في نومه فقام يصرخ.. أين السكينة؟ أين الدعة؟ أين راحة
البال؟ وبرزلي شوشو من ياقة القميص منها: "ما هوانت لو حتفضل
تدورع السكينة والبطيخ بتاع الكسالى والعواطلية يبقى مش حتجيبها
البر.. وبعدين فيها إيه لو كانوا مراقبينك؟ فيها إيه لما يعرفوا انك بتاع
نسوان؟ مش يمكن ده مصلحة؟"، ارتحت لكلامه فهو منطقي، وخفت
أن يسمعه ملاكي الذي اختفى منذ فترة، فنظرت في الجانب الأيمن من
رقبتي فوجدته ممددا يغط في نوم عميق، فتركته حتى لا يزعجني، وأزحت
الفجم الممدد على باب شقتي بقدمي ودخلت ملقياً نفسي على السرير
بملابسي و.. خخخخ.

31

استيقظت في التاسعة مساءً على صوت جرس الباب، وفوجئت بها تقف أمامي فشعرت بسعادة بالغة، كانت تتدثر بمعطف أسود أنيق يسوى الشيء الفلاني، وألقت نفسها في حضني تقبلني بنهم، فرفعت عيني إلى الكاميرا في الكوريدور، وحملتها داخلا مغلقا الباب بكعبي مثل رونالدو، وقبل أن تجلس خلعت البالطو فإذا به هو الشيء الوحيد الذي ترتديه، فألقيت نفسي في خضم المعمة بلا مقدمات، وخرج الحيوان في داخلي منطلقا يسهل ويصول ويجول.. وفجأة شعرت بتعب شديد وألم في صدري، إرهاق سربل كل جسمي وشعرت بجوع الوحش في الغاب فقلت: "أنا جعان"، قالت: "الساعة داخلة على ثلاثة مش حتلاقي حد فاتح"، قلت: "حشوف في إيه في التلاجة"، وقمت، وما إن خطوت خطوتين حتى ترنحت وسقطت وقد اسودت الدنيا في عيني.

حين استيقظت لم أجدها، ووجدتني ممددا عاريا في مكاني بالطريقة، وبصعوبة تسندت وتوجهت للثلاجة أفتحها، وأخرج ما تصل إليه يدي وألقيه في فمي، كنت أظلط لا أمضغ، أحشو وأزغط لا أكل، حتى شعرت بالامتلاء والشبع فظللت جالسا أمام الثلاجة برهة تناولت زجاجة ماء ورحت أعب منها كمن لم يشرب منذ سنوات، ونظرت إلى ساعة الحائط فوجدتها الخامسة صباحا، وأتاني صوت آذان الفجر، فأسندت ظهري إلى الحائط سارحا في تلك النعمة التقليدية الكلاسيكية.. تلك النعمة التي تهدد روحك وتستهل بها يومك فقمت وتوضأت وصليت الفجر و.. بكيت.

من الناحية اليمنى لياقة القميص برز لي ملاكي فاركا عينيه مثثابا: "كنت خايف تسبيني نايم"، قلت: "أنا ولا جيت جنبك"، قال: "أمال عياطك ده إيه!"، فابتسمت وتفاءلت وارتديت ملابسني وصنعت سطل قهوة وأنا سارح فيما حدث.. كيف تركني عفاف وأنا على هذه الحالة؟ لا بد أنها اطمأنت عليّ قبل أن ترحل، لكن لماذا تركتني عاريا؟ كان على الأقل تغطيني وتضع وسادة تحت رأسي، يبدو أنها خافت أن توقظني، فبالأكيد هي ليست بهذه اللامبالاة، ورغم براعتي في تفسير وتبرير وسياق الحجج لها، إلا أن جزءا من نفسي يستشعر رائحة نذالة.

ما إن دخلت مكتبي، حتى نسيت عفاف، وانهمكت في عملي، اجتمع مع الفريق الهندسي، واجتمع مع الفريق الطبي والحسابات والتحضير لمناقصات

تكييف المباني، وتوريد معدات طبية ثقيلة، ووقعت على كمية أوراق لا حصر لها حتى الساعة السابعة حين استشعرت الجوع، فتوجهت إلى مسط البرج بمفردي، فأنا أنوي أن أقضي فترة مع نفسي، وبينما أنا أستعد لتناول غذائي أو عشائي، إذا بصوتها يأتي من خلفي: "إلي ياكل لوحده"، التفت فوجدتها بنفس البالطو، قلت: "إنتي ما روحتيش ولا إيه؟"، جلست منادية الجرسون طالبة شورية: "أنا أصلي بموت في شورية الكوارع"، فمددت لها طبقتي فراحت تشاركني، وكنت أشرب الشورية من يدها عن طريق الشفط فيسمع له صوت، أما هي فكانت تضع المعلقة بالكامل داخل فمها وتخرجها ممسوحة، راقبت شفيتها وهما تطبقان على المعلقة، فأنهيت الأكل بسرعة ودفعت الحساب، ولم أنتظر الباقي، وسحبته من يدها وصعدنا إلى شقتي.. وفي إحدى الاستراحات سألتها: "إنتي إزاي تسيبيني واقع امبارح؟"، قالت ضاحكة: "أنا لقيتك طبيت زي لوح العجين، فقمتم بصبت عليك لقيتك بتتنفس، رحت ماشية"، قلت: "طب مش تظمني علي! افرضي مت"، قالت: "واجيب لنفسي مصيبة؟"، هنا أدركت أنها ليست فقط ندلة بل واطية.. لكنها شهية.

تمر الأيام مكونة أسابيع، والأسابيع تكون الشهور التي تكون أعواما، والأيام صارت متشابهة، كنت أرى أن كل يوم له طعمه، فالسبت شامخ قوي يقف في أول الصف، والأحد عملي قصير، والاثنين طيب ومهاود، والثلاثاء توأم الاثنين، والأربعاء ليس له ملامح، والخميس ناري ساخن، والجمعة هادئ رزين.. أين ذهب طعم الأيام؟ بل أين ذهب طعم الحياة؟

أتحرك كروبوت، وأتكلم كروبوت، لا أحب ولا أكره، أمارس عملي بشكل روتيني، لا أفكر ولا أفلق، لا أخاف ولا أطمئن، لا زيادة ولا نقصان، اللهم إلا رصيدي في البنك الذي يتزايد مع كل صفقة توريد، وتشعبت مسؤولياتي ومعلوماتي عن خبايا العيادة، أبسطها تجارة الأعضاء، وتوسعت أعمالي فشملت شركات المقاولات العملاقة التي تتنافس على المشروع، هذا يعرض مليوناً فيزيده الثاني النصف، فيرفعه الثالث للمليون جنيه ثمن توقيعي مناقصة التوريد.

جاءني تليفون من تامر يخبرني أن هبة عادت ومعها النقود، فاتفقنا أن يتوجهنا إلى العيادة، وفي الموعد المحدد جاءت هبة بصحبة تامر وسجلت نفسها كريمة الحاج فلان وانتقلت إلى غرفتها، وطلبت دفتر الدخول ووقعت بصفتي الطبيب المعالج من حالة تسمم، وظللت أتلکأ في المكتب، حتى أخبروني أنها دخلت العمليات، وبعد ساعة تقريباً أبلغني تامر أنها خرجت لكن ما زالت في البنج، فأخبرته أن مفعول البنج سيزول بعد ساعتين، ونصحته أن يصحبها إلى البيت، ولا داعي لإطالة المدة حتى الصباح، كأني أخلص من عبء على أكتافي، فلتنتهي هذه المشكلة بأي شكل وأرتاح، وبالفعل ما إن أفاقت من البنج ومكثت بضع ساعات بعدها تم الكشف عليها والاطمئنان على نظافة العملية سمح لها بالخروج، فساعدها تامر حتى أوصلها لبيت بهجت ومدحت، وصعد معها ليساهم في خدمتها، وفي تمام الساعة الثالثة صباحاً وأثناء مناويتي اليومية مع عفاف، رن جرس تليفوني، وتكرر الرنين كلما انقطع فنظرت لأجده تامر: "هبة جالها نزيف،

إحنا جايين في السكة"، يا ليلة سودة، قفزتُ من فوق عفاف إلى ملابسي إلى الجراج لأكون في استقبالهم لأعرف الحالة، وركن تامر السيارة وهبط مدحت وهبجت يحملان هبة الغائبة عن الوعي، وقد استحال لونها إلى الأصفر، فهتفت في جزع: "هي بتنزف من قد إيه؟"، قال مدحت: "مش عارف هي رجعت الساعة تسعة من العيادة ودخلت تنام، دخلنا نشقر عليها من شوية لقينا الأوضة غرقانة في بركة دم"، زاد جزعي وأسرعنا إلى الاستقبال، كان النبض ضعيفا جدا، وما إن وصلنا الاستقبال حتى هب الفريق يدخلونها العمليات وتم استدعاء الطبيب النوباتشي، ومال عليّ مشرف الاستقبال هامسا: "لازم نبلغ البوليس"، قلت: "ليه؟"، قال: "عشان لو خلصت نخلي مسئوليتنا، البت جاية خلصانة أصلا"، فتركته يتصرف، وصممت أن أصحبها إلى غرفة العمليات، فتعمقت وارتديت الماسك ودخلت معها، وبالكشف على الحالة لم يكن بها نبض يذكر، فأسرعوا بطلب أكياس دم، فقد نزفت كثيرا وبدأت الخراطيم والإبر والمحاليل توصل إليها، وعيني تنتقل من جهاز التنفس إلى جهاز النبض إلى صدرها.. شدي حيلك يا هبة.. المسكينة كانت تتحرك بالكاد في يقظتها وتنام صحتها، فما بالك وقد فقدت معظم دمه، ولما طال انتظار الأمل دق جرس القلب معلنا توقفه، فأسرع الفريق إلى جهاز التنشيط بالصعق الكهربائي مرة، والثانية، والثالثة لكن لا أمل.. ماتت هبة.

32

غبت عن العمل يومين كاملين، لا أرد على تليفونات ولا أفتح الباب، وعلمت لاحقاً أنه تم عمل محضر بالحالة بمعرفة المستشفى وتم تسليم الجثة لأبيها عن طريق الشحن بالسكة الحديد، سافر معها تامر فقط، أما أنا فقد دخلت في حالة كآبة لم أشهدها من قبل، حتى حين ماتت سمر لم أكتب، بل حزنت، والحزن شعور راقٍ، أما الاكتئاب فمرض قميء، شعرت بقرف من كل شيء، برفض لكل شيء، ماذا فعلت المسكينة حتى تموت فطيس وخاطر يهب على ذهني: كيف ماتت؟ وكانت الإجابة واضحة، أنها نزلت حتى الموت، وأن النزيف كان من أثر العملية التي لم يحسن إغلاقها جيداً، وانتابتنني موجة غضب نعم.. غضب على مَنْ كان السبب، على الجراح المجرم عديم الضمير، وبمناسبة الضمير.. أين كان ضميري وأنا أوافق على إجراء العملية، لقد شاركت في قتلِك يا هبة فهل تسامحيني؟

تصاعد غضبي وأنا أعب من زجاجة البلاك ليبل، وحاولت عفاف أن تقتحم خلوتي فطردتها لاعنا سابا، ورحت أنفث غضبي في محتويات الشقة، فحطمت كل ما يتحطم، مما دفع البنات أن يكسرن الباب بمساعدة الأمن، الذين اقتحموا الشقة ليجدونني في حالة من الهياج العصبي الشديد، فكبلوني وأعطاني الممرض حقنة مهدئة سرى مفعولها فوراً، وتم نقلي إلى العيادة، وظلت البنات يتناوبن عليّ لمدة يومين حتى استعدت توازني، لكنني صامت، قلن كلاماً كثيراً عن إرادة الله والقضاء والقدر، لكنني أرى دم هبة على أيديهم، ومن يدري كم غيرها مات بفعل الإهمال وعدم الضمير، وفي اليوم الثالث جاءت مجد تبشرني بأن الدكاترة سمحوالي بالخروج وينصحونني بالهدوء، وأخذ إجازة بعيداً عن أي ضغوط، لكنني قلت: "إحنا اللي قتلناها"، قالت نور: "ما تخليش الحزن يآثر على تفكيرك"، استشعرت في كلامها لكنة تهديد، فنظرت إليها بثبات: "النزيف نتيجة خطأ مهني"، قالت عصمت: "المريضة جت عندها نزيف والكلام ده مثبت في محضر رسمي"، قلت: "النزيف نتيجة العملية"، قالت مجد: "أنهي عملية؟"، قلت: "الكورتاج"، قالت عصمت: "إحنا ما بنعملش العمليات دي هنا"، هممت أن أرد، لكنني تمهلث وكظمت غيظي، وقمت مرتدياً ملابسني، وقد قررت أن أواجه الظلم وليكن ما يكون، قالت نور: "فكر كويس قبل ما تاخذ خطوة تندم عليها"، وهبطت الجراح لأستقل سيارتي، فإذا بالفجم يعترضني وقد عاد إليه استشراسه، فهجمت عليه أوسعته ضرباً وطعنوا وأنا ألعنه وأسبه، حتى إن الوحش فوجئ بهجومني ولم يقوَ على غضبي، وانطلقت بالسيارة

إلى نقطة الشرطة وحررت محضرًا بالواقعة، أتهم فيه عيادة دكتور عويس وإدارتها والجراح الذي أجرى العملية، وعدت بعدها إلى شقتي ونمت.

جاءني جدي الكبير في المنام قال: "مش قلتلك خلي بالك من سمه، بيسري في الدم، فيوقف الضمير، وبعد كده كله سهل"، قلت: "المدينة سرقنتني يا جدي"، قال: "كان لازم تاخذ بالك، لما الدنيا تديك زيادة عن حقك إعرف إن ربنا سبحانه وتعالى بيملّي لك.. بيمتحنك"، قلت: "لكني طببت زي الطربش.. سقطت في الامتحان"، قال: "ملحوقه".

استيقظت على صوت تليفون استدعاء من عصمت، فتوجهت إلى مكتب الإدارة، فبادرتني عصمت: "انت فاكر إن المحضر اللي عملته ده جيعمل حاجة؟"، قلت: "حفضحك"، قالت نور: "إنت ناسي إنك انت اللي ماضي على دخول المريضة بحالة تسمم"، هنا أفقت من غضب الأبرياء، فانهالت عليّ البنات يكيلون لي التهم: "إوعى تكون فاهم إن إحنا لقمة طرية، إحنا ممكن ندمرك"، "أولا ما فيش أي دليل على عملية الكورتاج"، قلت: "لكن فيه شهود"، وكنت أقصد تامر وبهجت ومدحت، قلن: "هل دخلوا أوضة العمليات وشافوا العملية؟"، قلت: "مممكن أطلب تشريح الجثة"، هنا قالت عصمت بهدوء: "براحتك إحنا حاولنا نعقلك، لكن يظهر إنك راكب دماغك"، وأضافت مجد: "إحنا كمان حنطلع المستخبي"، فنظرت متسائلا فأكملت نور: "توقيعك على عمليات قبلها، توقيعك على مناقصات مضروبة مقابل مبالغ مالية على سبيل الرشوة، قبولك لتوريدات

أكياس الدم ومعدات طبية غير مطابقة للمواصفات مقابل رشوة برضه"، وختمت عصمت: "تحب نكمل ولا كفاية؟"، وضغطت مجد الريموت فعرض التلفزيون تسجيل لي في غرفة نومي مع عفاف! وآخر وأنا أضع ظرف الرشوة في جيبتي، فأسقط في يدي وسقطت جالسا مسهما، وعم صمت ثقيل حتى كسرتة عصمت آمرة: "انزل دلوقتي زي الشاطر واتنازل عن المحضر"، ففعلت.

حين عدت وجدتهن في انتظاري في الجراج، أخذت نور مني مفاتيح السيارة، فقلت: "بس دي بتاعتي أنا دافع فلوسها"، قالت: "العيادة هي اللي بتدفع الأقساط ولو قريت عقدك حتلاقي بند يقول إننا نشتريلك عربية تبقى باسمك طول ما انت شغال معنا"، قلت: "وطبعا الشقة شرحه"، قالت مجد: "برافو عليك بقيت بتفهم أهو"، فقلت: "أنا ممكن أدفعلكم باقي أقساط العربية .."، قاطعتني عصمت: "منين؟"، قلت: "من حسابي"، قالت: "حسابك تقفله وتحول رصيدك كله لحساب العيادة"، قلت: "وإن رفضت"، قالت: "يبقى بتفتح على روحك أبواب جهنم، حتلبس قضايا رشوة وفساد واستغلال منصبك للتربح غير المشروع"، وأضافت مجد: "إنت متكتف من كل ناحية، تسجيلاتك صوت وصورة وانت بتقبض الرشوة، تحليل العمل اللي بيثبت عدم مطابقة الأكياس للمواصفات، كل المصايب اللي عملتها حتطلع، شوف بقى دول يساووا كام سنة سجن"، هززت رأسي مدركا دقة وصعوبة موقعي، فقررت الانسحاب من المعركة بأقل خسائر ممكنة، وقلت: "حتطلع ألم هدومي"، قلن: "الي جيت بيها،

بأقي الهدوم إحنا اللي جنبها لك، كتبك وورقك وبأقي حاجتك عندك أهى فى الصندوق ده"، نظرت، فوجدت صندوق كرتون مزيتًا، وزيادة فى الإذلال أجبرني على خلع ملابسى وارتداء القميص والبنطلون القدامى، فحمدت الله أنى لم أخلص منهما.. وتملكني يأس قاتل ومرارة تسمم حلقي، وتوجهت إلى البنك ونفذت تعليماتهن، وخرجت من البنك إلى رصيف محطة القطار.. وحيدا ملفوظا مزموما مدحورا مهزوما، مجروح الكرامة فاقد الدنيا وخاسر الدين.. ما جمعته فى شهور طوال خسرتة فى أقل من ساعتين زمن! وبعد أن كنت مليونيرًا عدت صفر اليدين، وطار أحلام الخمسة عين، وطار الماجستير والدكتوراه وضاع المستقبل لأنى غضبت للحق.. غضبت للصديقة المقتولة.. ووقفت على المحطة واضعا يديّ فى جيوبى الخالية، وما إن وصل القطار، حتى قفزت متسطحا مع حرافيش الطريق والهارين والفلسين والمطاريد وأبناء السبيل والأطباء اللذين خسروا وفشلوا وعادوا إلى قريتهم أقل مما تركوها.

33

القرية من جديد.. أمي وحضنها الدافئ الطويل، أبي وشعور الأمان، عائلتي ولمة المخلصين، حامد وأمه يعيشان مع عم دهب وهجلة، لم يظهر جدي الكبير وسمسمة، فاعتبر وهما من الأموات وترحموا عليهما وبكوهما بحرقة الصادقين الصافية قلوبهم، لم يقيموا سرادق عزاء فموتها غير مؤكد، لكن مراقبة العام ولم يظهر، وبدأ الناس يعتادون غيابها، وحين سألتني أبي: "خذت الشهادة الكبيرة؟"، هزرت رأسي إيجاباً وتجنبت أي أسئلة عن عملي أو خططي المستقبلية، وارتيمت في حضن أمي باكياً: "مش عايز غير حضنك يوماي"، فاحتضنتني ملهوفة وأشبعنتني وأحاطتني وملأتني ولفنتني واحتوتني في غلالة من الحب والصدق والإخلاص والحنية.. خامة الحب هي حب الأم، كثافته تكفي البشر وقوته تطرد الخوف ونعومته ممتعة، خمس دقائق أو تزيد وأنا مرتمٍ في حضنها وهي تعتصرني، كأنها تعصر قميصاً

مبلولاً لتطرد منه كل الماء ومعه الأقدار والأوساخ والسموم.. خمس دقائق في حوض أمي خلصتني من ألم التجربة المريرة، خمس دقائق في حوض أمي طردت حوالي عام في المدينة.. وعاد للأيام طعمها، وعدت أشم رائحة الخبيز الطازج.

من التغيرات التي طرأت بعد سقوط برج الجبئية أن بنى أبي وأعمامي دوراً لهم على الطراز القديم، وتم إزالة أنقاض البرج كما تم إزالة برج المراغنة الذي مال وأصبح خطراً، فقلت مرتاحاً: "عقبال باقي الأبراج"، قال عمي: "ليه دا احنا بنفكر.."، قاطعته في حدة لا تناسب خلقي معه: "لا أبراج ثاني لأ"، عمت الدهشة عائلتي، وعم صمت، لكن الأعين كلها تكلمت وقالت أكثر من الألسن لوما وعتابا على أسلوب مخاطبة عمي، فاعتذرت فوراً وقلت: "حقك علي يا عمي ما قصدش.. بس.. الأبراج ما بيحيش من وراها إلا الهمة.. الأبراج خطر.. مش بتاعتنا"، قالت نسوة أعمامي ومعهم أمي: "حقه السكنى في الدار مافيش أريح منها"، تبادل الرجال النظرات وقالوا: "بدم دي رغبتكم يبقى خلاص بلاها برج"، قمت واحتضنت عمي وقبلت رأسه ويده.. جميل جداً أن يكون لك كبير تحبه لا تحشاه، تحترمه لأنه يحبك لا لأنه يقدر يهدلك ويشردك ويرفدك.. وقضيت يومين لا أخرج من الدار، ووفود من الناس تأتي مرحلة حامدة الله على سلامة وصولي ومباركة حصولي على الشهادة الكبيرة، وقد حاول البعض اقتراح إطلاق لقب دكتور يسبق اسمي، لكنني رفضت، قلت: "جدي الكبير بس هو اللي له الحق ده"، فاحترموا ذكره وأمل عودته وتم

إلغاء الاقتراح.. في الحقيقة أنا رفضت لأنني كرهت اللقب، كرهت الكذب باسمه، كرهت كل ما يذكرني بتجربتي وفشلي، كرهت ما يعيد إليّ الألم.. والألم ملخص في كلمة دكتور.

في صباح اليوم الثالث اشتاقت نفسي لشوارع القرية وناسها، اشتقت لحامد والتسكع عند الجندول أو الجلوس على قهوة توشكى فقلت وتخلصت من القميص والبنطلون مقرراً ألا أعود إليهما، وارتديت جلباباً أبيض شاهق البياض، وأحسن لفة العمة الكبيرة، وفردت طولي وخرجت.. ويا ليتني ما خرجت.

الشوارع هي هي، والمباني هي هي، كل شيء في مكانه، لكن شيء ما تغير.. لون المباني لم يكن زاهياً كما تركته، أين ذهبت جداريات حامد؟ أين ذهبت ألوان البيت النوبي المشهورة؟ لقد كانت تغطي كل بيت وكل جدار! وجدتها طمست بدهان رمادي كالح أو أسود يشوه المنظر، ورأيت ما أفرعني حين لمحت ثلاثة أبراج لتقوية المحمول تعلو بين الدور، لقد كان جدي يرفض دخولها القرية لأسباب صحية، وله في ذلك حق، فوجود أبراج المحمول بين الناس يضر ضرراً مباشراً بصحتهم ويسبب سرطان، لاحظت أيضاً أن معظم الرجال قد أطلقوا الحاهم بلا تهذيب ولا تشذيب وغارت ابتسامتهم وراء تجهم غير مبرر، واختفت وجوه النسوة الصبوحه وراء الخمار، وانعدم صوتهن الذي كان يملأ نهار القرية كنشرة أخبار لا تنقطع، ونهرهن للأطفال وملاعبتهم، اختفت الزغاريد لأتفه سبب، أن

تنجح أم فلان في صنع طاجن ويكا مثلاً فتجدها تزغرد فتفرح قلوب الناس، ماذا حدث للناس؟ لماذا قلوبهم ثقيلة؟ أين ذهب الأطفال؟ أين صراخهم وتعثرهم بين أرجلي وأنا سائر! ماذا حدث للبلد؟

"الشيخ منصور الله يلعنه"، هكذا أجابني حامد حين التقيت به، حكيت له كل شيء... نقلت له وقائع تجربتي الفاشلة، والعجيب أي لم أبك ولم أحزن، بل أحسست براحة كأني أحكي عن شخص آخر، وما إن انتهيت حتى فرغت منها ونسيت التجربة، لكني لم أنس دروسها، ورحنا نتسكع عند الجندول، وهو يحكي لي ما فاتني العام الماضي.

توحش منصور واستشرس وفرض سيطرته على عقول البسطاء من الناس، أفهمهم أنهم يعيشون في ضلال، وأن معيشتهم كفر وعلاقتهم كفر، لذلك أفقرهم الله! ولا حل ولا مخرج ولا نجاة لهم إلا بالعودة إلى صحيح الإسلام، فأطلق الرجال لحاهم وتحجبت النسوة وصار شغلهم الشاغل أن يصلوا الوقت بوقته، وأن يستزيدوا من العلم، وأن يتزودوا بالتقوى والخشوع والخنوع، حتى الأطفال كانوا يقضون نهارهم في حفظ القرآن، لا يلعبون، لا يضحكون فشاخوا وهم صبية.. وصار النظام اليومي يبدأ بالاستيقاظ قبيل الفجر والتوجه للجامع لقراءة القرآن، رغم أن معظمهم أميون، ثم الصلاة يتبعها حوالي ساعة من التدبر، ثم الإفطار جماعة ثم تبدأ دروس الفقه والشرعية حتى صلاة الظهر، وهي تستغرق حوالي ساعة تقريباً، ثم الغداء وقيلولة الظهرية لأنها سنة، ثم صلاة العصر، بعدها

ينصرف كل لياشر عمله! أي عمل هذا الذي يبدأ بعد العصر؟

قال الشيخ ردًا على هذا السؤال: "العلم هو السبيل الوحيد للتقدم، وهو أبدى من العمل؛ لأن عملاً بلا علم يؤدي إلى الفشل، وقد أمرنا السلف الصالح أن نتعلم من أي مصدر حتى من أعدائنا، وما هم الكفرة الملاحدة أعداء الله والأمريكان من ورائهم يأخذون بالعلم ونحن نتركه"، يا ابن الأبالسة يا منصور! نجح اللعين في قلب الحق باطلاً، فالعلم الذي يتحدث عنه هو العلوم الدينية من فقه وشريعة وتفسير وسنة وأحاديث وقراءة وتجويد، أما العلوم الدنيوية مثل الكيمياء والطبيعة والهندسة والرياضيات فكلها علوم شيطانية.. لقد سرق عنوانًا براقًا صحيحًا ووضع على إفك وتدليس.. لكن لماذا؟ ماذا سيستفيد من كَم الناس حوله بلا عمل؟ من أين يأكلون؟ تنهد حامد شارحا: "الناس لما سابت أشغالها لا بقى فيه ورش بتفتح ولا محلات ولا سوق ولا عيش ولا فلاحه"، قلت: "يا نهار اسود! دي الأرض تبور"، قال: "ما هي بارت"، فقلت مستحثة وقلبي ينخلع: "إوعك تقولي إنهم باعوها مباني"، هز رأسه إيجابا وحسرة: "300 فدان راحوا في سنة، اتباعوا للناس أغراب"، قلت: "أيوة وهو استفاد إيه؟"، قال: "ما هو السمسار.. ما هي دي الخطة.. الناس اللي سابت أشغالها وأكل عيشها بقوا مش لاقين ياكلوا فكان اللعين يوعدهم إنه حيفك زنقتهم ويحبب لهم زباين تشتري الأرض وبسر عالي ويطلع هو بالعمولة"، قلت: "بس بعد شوية الفلوس حتخلص"، قال حامد: "ابن الأبالسة فتح خط سبوبة لنفسه، وبقي مقاول أنفار، بيعتهم يشتغلوا في الفاعل في الصعيد ومصر

وإسكندرية.. والأكادة يا أخي مفهمهم إنه يعمل فيهم جميلة! وفي كام شهر ركب البلد".

تعجبت من هذا التشابه بين قريتنا والمدينة.. فهناك يستثمرون ويتاجرون تحت غطاء العلم، وهنا يستثمرون ويتاجرون تحت غطاء الدين، وفي النهاية كله استثمار.. نحن نعيش عصر الاستثمار.. وأنهى حامد قصة البلد بأن قال: "الي وقفوا قدامه أعمامك وكبارات البلد، لكن مساكين لا حول لهم ولا قوة، كان زمان قوتهم بياخدوها من هيبتهم وقيمتهم، لكن دلوقتي ما عادش حد بيحترم حد، لا الكبير عاد له قيمة، ولا الصغار بيتعلموها"، ولفنا صمت ثقيل قطعته سائلا: "وعم ذهب؟"، قال: "عم ذهب شاف أيام أسود من قرن الخروب، هو وكل مسيحيين البلد"، وحكى لي كيف أن منصور أقنع الدهماء والغوغاء والسوقة والرعاع أن المسيحيين كفر، وهم المقصودون بكلمة الضالين في نهاية الفاتحة، وأن القرآن نص صراحة على أن من يدعي أن المسيح هو ابن الله فهو كافر، وكيف تركزت دروسه ودروس المشايخ اللذين استوردتهم حول موضوع الجهاد، وتكررت آية "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل..".

وفي ليلة سوداء أغار أشباح الليل على دور المسيحيين ومحالهم، أحرقوها وطردوا سكانها، ولولا تدخل مأمور المركز بعد ثلاثة أيام من الرعب لكان القضاء المحتوم، فقد فر الناس إلى كبيرهم عمي ذهب، ولاذوا بداره، إلا أن أشباح الليل يمتطون الخيول لأنها سنة، أحاطوا بالمنزل وحاصروا من فيه،

وفشلت محاولات كبار البلد من المسلمين لتهدئة الموقف، ولولا وصول قوة الأمن بقيادة المأمور شخصيا الذي أراهم العين الحمراء، لكانوا أحرقونا أحياء، هنا التفت إلى حامد: "انت كنت جوه؟"، قال: "أنا وأمي، ومن ساعتها واحنا قاعدين معاهم"، قلت: "وجواذك؟"، أطرق برأسه حزينا وقال: "جواز إيه بقى في الظروف المنيلة دي"، فعلا توقيت غير مناسب، وأزاد: "قالوا عليّ أنا راخر كافر عشان برسم ورايد التجوز مسيحية.. بقيت مطلوب ودمي مباح شرعا".

كيف سرقت فرحتك يا حامد؟ كيف سرقت أحلامي؟ بل كيف سرقت الحياة من أمة وهبت الحياة للعالم.. ووقفت أنظر إلى النيل يجري.. ما زال يجري كما جرى من آلاف السنين، قبل الإنسان وقبل أجدادي الجبتيّة الأوائل، خلقوا منه الحياة، ألم يجعل الله كل شيء حي من الماء! فإذا كنا نمتلك سر الحياة، فلم القعوص؟ التفت إلى حامد سائلا: "هي الفاس والمنجل لساهم في الدار؟"، رد إيجابا فقمت فقال: "رايح فين؟ إوعك تكون ناوي تلم شوية شباب وتعمل عركة"، قلت مبتسما وأنا مدرك تماما أنني أقول الحق والصدق ولا حق ولا صدق غيره: "لا.. العراك والقوة مش حتجيب نتيجة، ولا الكلام والتفاوض حيودي لشيء"، قال: "أمال حتعمل إيه؟"، قلت: "حزرع.. حصنع حياة من أول وجديد"، ومررنا على دور الشباب والرجال الراضين لمنصور وسياسته، وحملنا فؤوسنا ومناجلنا وهبطنا الأرض نزرع، وفجأة صرخ حامد: "خلي بالك يا جاد الفجم ورانا"، قلت دون أن أتوقف عن العمل: "ولا يهملك منه ده جبان،

إديله على قفاه"، ولكي أثبت له صدقي، التفت إلى الفجم الذي اقترب
ينفث لهيب غضبه وصفعته على أفتيته الثلاث، فلاذ بالفرار عاويًا.. وعدت
أعمل وأنا مؤمن أنه لكي تنتصر على الفقر والجهل والمرض ولكي تقتل
الفجم.. عليك أن تقتله في داخلك أولاً.

تمت بحمد الله.

المؤلف في سطور

محمد صلاح أبو سيف

محمد أبو سيف

- مواليد أكتوبر 1950 - القاهرة.
- خريج المعهد العالي للسينما - قسم إخراج دفعة 1976.
- عمل بالإعلانات حتى عام 2001.

أفلام:

- التفاحة والجمجمة 1985 - كتابة وإخراج.
- نهر الخوف 1988 - كتابة وإخراج.
- جحيم تحت الماء 1990 - إخراج.
- أولى ثانوي 1998 - قصة وإخراج.
- بطل من الجنوب 2000 - إخراج.
- النعامة والطاووس 2002 - إخراج.
- خالي من الكوليسترول 2004 - كتابة وإخراج.

- خلي الدماغ صاحبي 2006 - إخراج.
- هز وسط البلد 2014 - كتابة وإخراج.
- المشخصاتي II 2015 - كتابة وإخراج.

أخرج مسلسلات:

- بنت أفندينا 2005.
- عواصف النساء 2007.
- الهاربة 2008.
- جنة ونار 2009.
- امرأة فوق العادة 2009.

جوائز:

- أفضل فيلم من مهرجان نانت السينمائي عن فيلم نهر الخوف.
- أفضل فيلم وأفضل إخراج من مهرجان نوتردام عن فيلم أولى ثانوي.
- أفضل فيلم وإخراج من مهرجان الإسكندرية عن فيلم النعامة والطاووس.

البريد الإلكتروني:

mabouse.f@yahoo.com